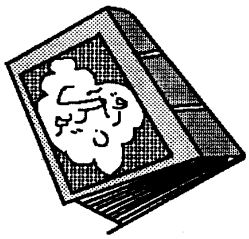

وسطية القرآن في العقائد

أركان الإيمان الستة

تأليف
د. علي محمد محمد الصلابي

مكتبة الإيمان
بالمنصورة

جميع حقوق الطبع محفوظة
الطبعة الأولى

رقم الإيداع ١٧٢٢٢/ ٢٠٠٥

إخراج فنى وكمبيوتر
بانوراما قنديل للفنون ☎ ٠٤٠/٢٢٤١٣٢٩

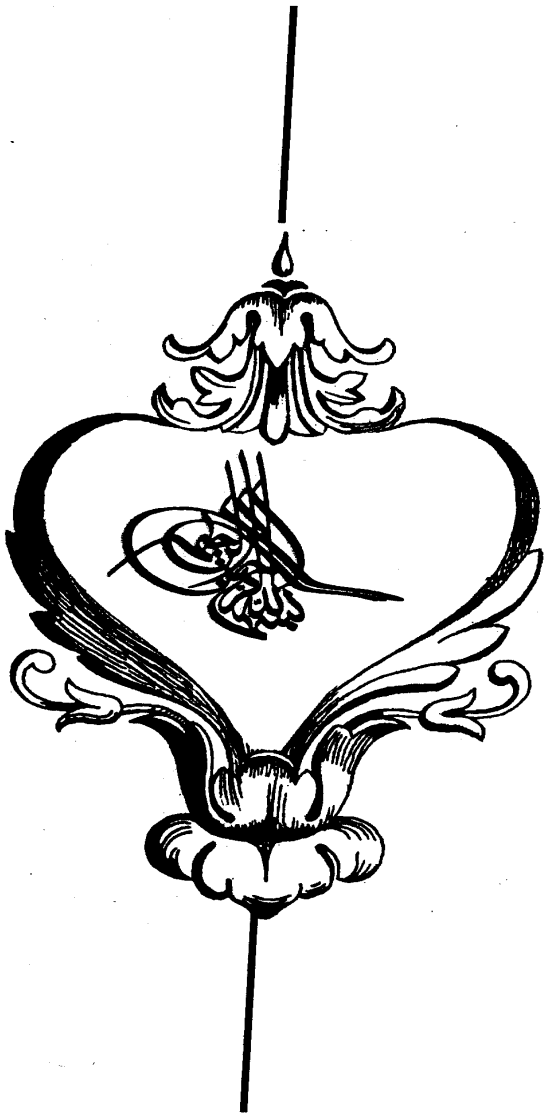

مقدمة

إن الحمد لله،نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادى له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾[آل عمران: ١٠٢].

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِى تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ النساء: ١].

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾[الأحزاب: ٧٠: ٧١].

أما بعد:

فإن أصدق الحديث كتاب الله عز وجل، وخير الهدى هدى محمد ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة فى النار ... وبعد:

هذا الكتاب (**وسطية القرآن الكريم فى العقائد**)أصله جزء من كتاب (الوسطية فى القرآن الكريم) وقد فصل عنه لتعم الفائدة ويسهل الاطلاع على أركان الإيمان الستة بسهولة ويسر، واقتناعاً منى بأهمية هذا الموضوع ومسيس الحاجة إليه، فقد قمت بإفراد هذا الموضوع (**وسطية القرآن الكريم فى العقائد**) فالقرآن الكريم جاء مقرراً لمنهج العقيدة الوسطية فى أبواب الاعتقاد والعبادات، والجهاد، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وغيرها من الأبواب والمجالات وبياناً لهذه الحقيقة وتأصيلاً لها، قمت بتقسيمه إلى سبعة فصول:

الفصل الأول:فى القرآن يقرر منهج الوسطية ويشتمل على مبحثين:

المبحث الأول: التعريف بالقرآن.
المبحث الثانى: فى وسطية القرآن فى العقيدة.
الفصل الثانى: فى وسطية القرآن فى باب توحيد الله وأسمائه وصفاته ويشتمل على أربعة مباحث.
المبحث الأول: موقف أمة اليهود.
المبحث الثانى: موقف النصارى.
المبحث الثالث: موقف المسلمين.
المبحث الرابع: مفهوم الإيمان كما جاء فى القرآن.
الفصل الثالث: الملائكة ويشتمل على مبحثين.
المبحث الأول: صفات الملائكة الخلقية.
المبحث الثانى: علاقتهم مع الله والإنسان والكون وعددهم.
الفصل الرابع: فى الكتب السماوية ويشتمل على ثلاثة مباحث:
المبحث الأول: تحريف اليهود وتزويرهم.
المبحث الثانى: تحريف النصارى للإنجيل.
المبحث الثالث: وسطية القرآن بين الكتب السماوية.
الفصل الخامس: وسطية القرآن فى أنبياء الله ورسله ويشتمل على ثلاثة مباحث:
المبحث الأول: موقف اليهود من أنبياء الله ورسله.
المبحث الثانى: موقف النصارى.
المبحث الثالث: موقف المسلمين من أنبياء الله ورسله.
الفصل السادس: فى وسطية القرآن فى اليوم الآخر ويشتمل على ستة مباحث:
المبحث الأول: أنواع المكذبين بالبعث.
المبحث الثانى: نظرة فى نصوص اليوم الآخر عند أهل الكتاب.
المبحث الثالث: أدلة البعث والنشور.
المبحث الرابع: طعام أهل النار وشرابهم ولباسهم.
المبحث الخامس: صور من عذاب أهل النار.

المبحث السادس: صفة الجنة.

الفصل السابع: فى وسطية القرآن فى القضاء والقدر ويشتمل على عشرة مباحث:

المبحث الأول: تعريف القضاء والقدر، والعلاقة بينهما.

المبحث الثانى: الإفراط والتفريط.

المبحث الثالث: ظهور بدعتى نفى القدر والقول بالجبر.

المبحث الرابع: مجمل اعتقاد أهل السنة والجماعة فى باب القدر.

المبحث الخامس: الأدلة من الكتاب والسنة فى باب القدر.

المبحث السادس: مراتب القدر وأركانه.

المبحث السابع: وسطية أهل السنة فى مسألة أفعال العباد.

المبحث الثامن: وسطية أهل السنة فى معنى إرادة الله ومشيئته.

المبحث التاسع: أقسام التقديم التى جاءت فى القرآن الكريم والسنة.

المبحث العاشر: ثمرات الإيمان بالقدر.

الخلاصة: ودونت فيها أهم النتائج التى وصلت إليها فى هذا البحث، وأسأل الله العلى العظيم أن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم.

وأسأل الله عز وجل أن يجعل هذا العمل المتواضع خالصاً لوجهه الكريم، وأن يغفر لى أى خطأ أو زلل وقعت فيه، إنه سميع قريب.

كتبه

على محمد محمد الصلابى

غفر الله له ولوالديه وللمسلمين

الفصل الأول

القرآن يقرر منهج الوسطية

الفصل الأول
القرآن يقرر منهج الوسطية

تمهيد: نزل القرآن الكريم هداية للناس ونوراً، يخرج به الله من شاء من الظلمات إلى النور، ولزوم منهج الوسطية عين الاستقامة والهداية والصراط المستقيم؛ ولذلك فقد جاءت الآيات مستفيضة ترسم منهج الوسطية وتدل عليه. والوسطية منهج متكامل شامل غير محصور فى ركن من الأركان، لا فى جزئية من الجزئيات، ولا فى حكم من الأحكام، ولا فى أصل من الأصول، فالإسلام كله وسط، وهذه الأمة هى أمة الوسط: ﴿ **وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا** ﴾ [البقرة: ١٤٣].

ولذلك جاء القرآن مقرراً لمنهج الوسطية فى أبواب الاعتقاد، والعبادات والحكم والتحاكم، وفى باب الجهاد، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وغيرها من الأبواب والمجالات، وبياناً لهذه الحقيقة وتجلية لها، سنعيش مع كتاب الله متأملين بعض ما ورد فيه، تأكيداً لهذه الحقيقة وتأصيلاً لها، وقبل أن أشرع فى الهدف المطلوب، ومعنى المنهج فى اللغة وفى الاصطلاح. سأقف مع فاتحة الكتاب حيث إنها من أولها إلى آخرها تقرر هذه الحقيقة وتؤكدها.

المبحث الأول
التعريف بالقرآن الكريم

أولاً: معنى القرآن فى اللغة:

القرآن من مادة قرأ، ومنه قرأت الشيء فهو قرآن: أى جمعته، وضممت بعضه إلى بعض، فمعناه: الجمع والضم. ومنه قولهم: ما قرأت هذه الناقة سلى قط، وما قرأت جنيناً، أى لم تضم رحمها على ولد(١).

قال أبو عبيدة (٢) رحمه الله: (...وإنما سمى قرآنا لأنه يجمع السور فيضمها وتفسير ذلك فى آية القرآن، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾. [القيامة: ١٧] مجازه: تأليف بعضه إلى بعض...) ثم قال: وفى آية أخرى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ﴾. [النحل: ٩٨] مجازه: إذا تلوت بعضه فى إثر بعض، حتى يجتمع، وينضم بعضه إلى بعض، ومعناه: يصير إلى معنى التأليف والجمع، ثم استشهد على هذا المعنى، يقول عمرو بن كلثوم (٣):

ذراعى حرة أدماء بكر هجان اللون لم تقرأ جنيناً (٤)

أى لم تضم فى رحمها ولداً قط (٥) فسمى القرآن قرآناً، لأنه جمع القصص، والأمر والنهى، والوعد والوعيد، والآيات والسور: بعضها إلى بعض (٦).

---

(١) انظر: الصحاح للجوهرى، مادة قرأ: ١/ ٦٥.

(٢) هو معمر بن المثنى التيمى مولاهم البصرى، النحوى، صاحب التصانيف، ولد سنة ١١٠ هـ ومات سنة ٢٠٩ هـ وقيل ٢١٠ انظر: سير أعلام النبلاء: ٩/ ٤٤٥.

(٣) هو عمرو بن كلثوم التغلبى من أصحاب المعلقات السبع ومن كبار شعراء الجاهلية انظر: شرح المعلقات السبع: ١٨٠.

(٤) انظر: شرح القصائد السبع الطوال، لأبى بكر محمد بن القاسم الأنبارى: ٣٨٠.

(٥) مجاز القرآن لأبى عبيدة معمرة التيمى: ١/ ١-٣.

(٦) انظر: لسان العرب، كتاب (أ-ب) فصل الهمزة، باب قرأ: ١/ ١٢٨.

ويذكر أبو بكر الباقلانى (١) : أن القرآن يكون مصدراً واسماً : مصدرا كما فى قوله تعالى : ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ﴾ .[القيامة : ١٧] واسما كما فى قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴾ .[الإسراء : ٤٥] .

ويروى عن الشافعى رحمه الله : أن القرآن اسم علم لكتاب الله، غير مشتق : كالتوارة، والإنجيل (٢) .

قال القرطبى رحمه الله :(والصحيح الاشتقاق فى الجميع) (٣) . أى فى القرآن والتوراة والإنجيل .

معنى القرآن فى الاصطلاح :

القرآن الكريم هو اسم لكلام الله تعالى، المنزل على عبده ورسوله : محمد ﷺ ، وهو اسم لكتاب الله خاصة، ولا يسمى به شىء غيره من سائر الكتب (٤)، وإضافة الكلام إلى الله تعالى إضافة حقيقية، من باب إضافة الكلام إلى قائله .

ولما ظهر الخوض فى صفات الله تعالى، وفى كلام الله خاصة، من قبل الزنادقة، وفرق المبتدعة، احتاج أهل السنة إلى تعريف القرآن تعريفاً يظهرون فيه معتقدهم فى صفات الله تعالى عامة، وفى صفات الكلام خاصة، ومنه القرآن، مخالفين بذلك أهل البدع من الجهمية والمعتزلة وغيرهم .

فقال أبو جعفر الطحاوى (٥) رحمه الله : (وإن القرآن كلام الله، منه بدا بلا

---

(١) هو إمام المتكلمين ورأس الأشاعرة أبو بكر محمد بن الطيب بن محمد القاضى المعروف بابن الباقلانى البصرى المالكى صاحب المصنفات وكان له بجامع المنصور حلقة عظيمة، وكان ورده فى الليل عشرين ترويحة فى الحضر والسفر فإذا فرغ منها كتب خمساً وثلاثين ورقة من تصنيفه ويعد من أكبر الأشاعرة توفى سنة : ٤٠٣ هـ انظر : شذرات الذهب : ٣/١٦٧ .

(٢) انظر : الجامع لأحكام القرآن للقرطبى : ٢/٢٩٨ .

(٣) نفس المرجع السابق : ٢/٢٩٨ .

(٤) المرجع السابق : ٢/٢٩٨ .

(٥) هو الحافظ الفقيه أبو جعفر أحمد بن محمد بن سلامة الطحاوى الأزدى المصرى، شيخ الحنفية فى مصر، ونسبه إلى طحا، قرية بصعيد مصر توفى عام ٣٢١ بمصر انظر : البداية والنهاية : ١١/١٧٤ .

كيفية قولاً، وأنزله على رسوله وحياً، وصدقه المؤمنون على ذلك حقاً ،وأيقنوا أنه كلام الله تعالى بالحقيقة، ليس بمخلوق ككلام البرية، فمن سمعه، فزعم أنه كلام البشر فقد كفر)[١] .

ثانياً: التعريف بالمنهج فى اللغة والاصطلاح:

أ - معنى المنهج فى اللغة [٢]:

المنهج من مادة نهج، ينهج نهجاً، وهو الطريق البين الواضح، ويطلق على الطريق المستقيم، والمنهج، والمنهاج والنهج: بمعنى واحد. وفى التنزيل قوله تعالى: ﴿ **لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا** ﴾. [المائدة: ٤٨]. قال ابن عباس رضى الله عنهما: سبيلاً وسنة [٣]. وهو مروى عن مجاهد، وعكرمة والحسن البصرى، وغيرهم، وروى عن ابن عباس: سنة وسبيلاً، ورجح ابن كثير رحمه الله التفسير الأول؛ لظهوره فى المعنى ومناسبته [٤]. وقال الحافظ ابن حجر رحمه الله: والمنهاج: السبيل، أى الطريق الواضح) [٥]. وتفسير ابن عباس الأول هو المختار.

ب - معنى المنهج فى الاصطلاح:

المنهج: هو الطريق المؤدى إلى التعريف على الحقيقة فى العلوم، بواسطة طائفة من القواعد العامة، والتى تهيمن على سير العقل، وتحدد عملياته حتى يصل إلى نتيجة معلومة [٦] وبعبارة أوجز: هو القانون أو القاعدة التى تحكم أى محاولة للدراسة العلمية، وفى أى مجال [٧]، ومن ثم تختلف المناهج باختلاف العلوم التى تبحث فيها، فلكل علم منهج يناسبه، ومع وجود حد مشترك بين المناهج

---

(١) شرح الطحاوية: ١٢١ ، ١٢٢.

(٢) انظر: لسان العرب باب الجيم، فصل النون: ٢/٣٨٣.

(٣) صحيح البخارى مع الفتح، كتاب الإيمان، باب قول النبى ﷺ : «بنى الإسلام على خمس » ١/٦٠.

(٤) انظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٣/١٢٠ .

(٥) انظر: فتح البارى، كتاب الإيمان، باب بنى الإسلام ١/٦٤ .

(٦) انظر: العلم والبحث العلمى، لسحين رشون ١٤٣-١٤٥ .

(٧) انظر منهج البحث العلمى عند العرب، لجلال موسى ٢٧١ .

المختلفة، وقد تتعاون - وهو الغالب - مجموعة من المناهج لخدمة ومعالجة فن واحد (١).

سورة الفاتحة تقرر منهج الوسطية:

إن أم الكتاب تقرر منهج الوسطية من أولها إلى آخرها وأظهر آية فيها شاهدة بذلك هى قوله تعالى: ﴿ اهدِنَا الصِّرَاطَ الْمُستَقِيمَ ﴾ [الفاتحة: ٦] وما بعدها.

وهذه الآية صريحة فى تحديد المنهج الوسط، ذلك أنها بينت أن هذا الصراط هو صراط الذين أنعم الله عليهم. قال الطبرى رحمه الله :(أجمعت الأمة من أهل التأويل جميعاً على أن الصراط المستقيم هو الطريق الواضح الذى لا اعوجاج فيه، وكذلك فى لغه جميع العرب، فمن ذلك قول الشاعر:

أمير المؤمنين على صراط ... إذا اعوج الموارد مستقيم

قال ابن عباس رحمه الله: ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ [الفاتحة :٦] يقول: ألهمنا الطريق الهادى، وهو دين الله الذى لا عوج له (٢) ثم قال: وكل حائد عن قصد السبيل وسالك غير المنهج القويم فضال عند العرب، لإضلاله وجه الطريق(٣).

وقد بين الله لنا أن الصراط المستقيم، هو منهج الوسط، حيث قال واصفا الصراط المستقيم :﴿ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ ﴾ .[الفاتحة:٧] ومنهج المغضوب عليهم يمثل: التفريط، بينما يمثل منهج الضالين : الإفراط، فهما منهجان دائران بين الغلو والجفاء.

قال ابن كثير رحمه الله :(غير صراط المغضوب عليهم، وهم الذين فسدت إرادتهم، فعلموا الحق وعدلوا عنه، ولا صراط الضالين، وهم الذين فقدوا العلم، فهم هائمون فى الضلالة لا يهتدون إلى الحق) (٤).

وبهذا يتبين لنا أن هناك ثلاثة طرق : طريق الذين أنعم الله عليهم، وطريق

---

(١) انظر منهج البحث العلمى عند العرب، لجلال موسى ٢٧١ .

(٢) انظر تفسير الطبرى ١ / ٧٣، ٧٤ .

(٣) المرجع السابق ١ / ٨٤ .

(٤) انظر تفسير ابن كثير ١ / ٢٩ .

المغضوب عليهم، وطريق الضالين، والله أمرنا بالالتزام بسبيل الذين أنعم الله عليهم؛ لأنه هو الصراط المستقيم، وهو منهج وسط بين سبيلين منحرفين، وهما سبيلا اليهود والنصارى، وكل طريق منحرف عن منهج الصراط المستقيم فله حظ من أحد هذين المسبيلين؛ ولأن الاستقامة تعنى الوسطية كما تبينها آية الفاتحة، وكما وضحت ذلك فى ملامح الوسطية ، جاءت الآيات متعددة تدعو إلى الاستقامة بأساليب متعددة وألفاظ متقاربة وهى تدور بين الخبر والإنشاء. ومن هذا المنطلق، وبعد أن تقرر أن طريق الاستقامة هو طريق الأمة الوسط، فإن كل آية وردت فى الاستقامة فهى آية فى تحقيق الوسطية والدعوة إليها والآيات فى هذا الباب كثيرة جداً أذكر بعضا منها دلالة على المراد، وبياناً لهذا المنهج.

قال سبحانه : ﴿ فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا ﴾. [هود: ١١٢] وقال : ﴿ فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ ﴾. [الشورى: ١١٥] فقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَطْغَوْا ﴾ بعد أن أمر بالاستقامة، والطغيان وهو مجاوزة الحد (١) وهو خروج عن منهج الوسطية إلى الانحراف عن السبيل.

وفى الآية الثانية قال: ﴿ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ ﴾ واتباع الهوى خروج عن الاستقامة، وانحراف عن منهج الوسط وتواصل الآيات فى هذا الشأن، ففى سورة البقرة : ﴿ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾. [البقرة: ١٤٢].

وفى آل عمران : ﴿ وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ وفى الأنعام : ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا ﴾. [الانعام: ١٥٣] وفيها : ﴿ قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ﴾. (الأنعام: ١٦١) وفى النحل ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾. [النحل: ٧٦] .

وفى الزخرف : ﴿ فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾. [الزخرف: ٤٣] وفى سورة الملك : ﴿ أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّن يَمْشِي

---

(١) انظر : تفسير القرطبى ٩/١٠٧ .

سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾. [الملك: ٢٢] إلى غير ذلك من الآيات، حيث إن كل واحدة منها دالة على أن الصراط المستقيم: هو الطريق الذى أمرنا باتباعه واجتناب ما عداه؛ لأنه هو طريق الحق والعدل والوسط، وماعداه طريق الضلال والغواية والانحراف عن الصراط المستقيم، وها هو الشيطان يعلن هذه الحقيقة قائلاً كما ذكر الله فى سورة الأعراف: ﴿ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾.[الأعراف: ١٦] وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿مَن يَشَأِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾. [الأنعام: ٣٩].

وفى سورة التكوير: ﴿ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ (٢٧) لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ﴾.[التكوير: ٢٧ - ٢٨] وهذه الآية نص فى أن القرآن كله دعوة للاستقامة والسير على المنهج الحق، قال القرطبى: ﴿إِنْ هُوَ﴾ يعنى القرآن ﴿إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ﴾ أى موعظة وزجر: ﴿لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ﴾ أى يتبع الحق ويبقى عليه (١).

ومما سبق يتضح لنا أن سورة الفاتحة وضعت القاعدة والمنطق ورسمت المنهج وحددت معالمه ثم جاءت الآيات بعد ذلك مقررة لذلك وداعية له.

(١) انظر: تفسير القرطبى ١٩/٣٤٣.

المبحث الثانى
وسطية القرآن فى العقيدة

أولا : التعريف بالعقيدة :

أ ـ العقيدة لغة : (من العقد ، وهو الربط والشد بقوة، منه الإحكام والإبرام، والتماسك والمراصة والإثبات والتوثق) (١).

أ ـ العقيدة فى الاصطلاح : كلمة العقيدة لم تكن موجودة فى الكتاب والسنة، ولا فى أمهات المعاجم، وإن أول من تم الوقوف على ذكره لجمعها (عقائد) هو القشيرى (٢) سنة ٤٣٧ هـ فى كتاب الرسالة وهى كلمة مولدة لم تكن فى الصدر الأول (٣).

وقد عرفها الدكتور ناصر العقل (٤) فقال : (الإيمان الجازم بالله وما يجب له فى ألوهيته وربوبيته وأسمائه وصفاته، والإيمان بملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، والقدر خيره، وشره، وبكل ماجاءت به النصوص الصحيحة فى أصول الدين وأمور الغيب وأخباره وما أجمع عليه السلف الصالح والتسليم لله تعالى فى الحكم والأمر والقدر والشرع ولرسوله ﷺ بالطاعة والتحكيم والاتباع) (٥).

يشمل التوحيد، والإيمان، والإسلام، والغيبيات، والنبوات، والقدر، والأخبار، وأصوله الأحكام القطعية، وسائر أصول الدين، والاعتقاد، ويتبعه الرد

---

(١) انظر لسان العرب مادة عقد، فصل العين المهملة ٣ / ٢٩٥ .

(٢) هو أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك القشيرى صاحب الرسالة والتفسير وغيرهما صحب أبا على الدقاق وغيره، أخذ الفقه فاتقنه، وأخذ الأصول على ابن فورك والأستاذ أبى إسحاق ولد سنة ٣٧٧ هـ وتوفى سنة ٤٦٥ هـ انظر: تاريخ بغداد ١١ / ٨٣، ترجمة رقم ٥٧٦٣ .

(٣) انظر معجم المناهى اللفظية للشيخ بكر أبوزيد : ٢٤٢ .

(٤) هو ناصر عبد الكريم العقل من علماء العقائد بنجد تحصل على درجة الدكتوراة وأشرف على رسائل علمية فى كلية أصول الدين بجامعة الإمام محمد بن سعود.

(٥) مباحث فى عقيدة أهل السنة والجماعة :٩ .

معلى أهل الأهواء والبدع وسائر الملل والنحل، والمذاهب الضالة، والموقف نهم ومن مسميات هذا العلم، العقيدة، والتوحيد، والسنة، وأصول الدين.

والعقيدة فى الإسلام تقابل الشريعة، إذ الإسلام عقيدة وشريعة تعنى التكاليف العملية التى جاءت فى القرآن، والسنة النبوية فى العبادات والمعاملات.

والعقيدة هى أمور علمية يجب على المسلم أن يؤمن بها؛ لأن الله أخبرنا بها بطريق كتابه، أو بطريق وحيه إلى رسوله ﷺ، وأصول العقائد التى أمرنا الله باعتقادها هى التى حددها الرسول ﷺ فى حديث جبريل المشهور بقوله: «**الإيمان أن تؤمن بالله، وملائكته وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره من الله تعالى**» (١).

فالعقيدة فى ديننا هى التى تدور حول قضايا معينة، هى التى أخبرنا بها الله ورسوله، وليست اعتقاد أى شىء، وحتى تصبح هذه عقيدة لابد أن تصدق بها تصديقاً جازماً لا ريب فيه، فإن كان فيها ريب أو شك كانت ظناً لا عقيدة (٢).

والدليل على ذلك قوله تعالى: ﴿ **إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا** ﴾. [الحجرات: ١٥] وقوله تعالى: ﴿ **الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ** ﴾. [البقرة: ١، ٢] وقال: ﴿ **إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ** ﴾. [آل عمران: ٩] وذم المشركين المرتابين ﴿ **وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ** ﴾. [التوبة: ٤٥] والمسائل التى يجب اعتقادها أمور غيبية، ليست مشاهدة منظورة، وهى التى عناها الله بقوله عندما مدح المؤمنين: ﴿ **يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ** ﴾ [البقرة: ٣] فالله غيب وكذلك الملائكة واليوم الآخر، أما الكتاب والرسل فقد يتبادر أنها تشاهد وتنظر، ولكن المراد هو الإيمان بنسبتها إلى الله أى كون الرسل مبعوثين من عند الله، وأن الكتب منزلة من عند الله، وهذا أمر غيبى.

ثانياً: العقيدة الصحيحة والعقيدة الفاسدة:

العقيدة ليست مختصة بالإسلام، بل كل ديانة أو مذهب لابد لأصحابه من

---

(١) مسلم، كتاب الإيمان، باب الإيمان بالقدر ١/ ٣٨، رقم ٨.

(٢) انظر: العقيدة فى الله لعمر الأشقر: ٩، ١٠.

عقيدة يقيمون عليها نظام حياتهم، وهذا ينطبق على الجماعات والأفراد والأمم والشعوب، والعقائد منذ بدء الخليقة إلى اليوم، وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها وهى قسمان:

الأول: يمثل العقيدة الصحيحة، وهى تلك العقائد التى جاءت بها الرسل الكرام فى أى زمان ومكان، وهى عقيدة واحدة؛ لأنها منزلة من العليم الخبير الحكيم العزيز.

والقسم الثانى: يشمل العقائد الفاسدة على كثرتها وتعددها، وفسادها ناشىء من كونها نتاج أفكار البشر، ومن وضع مفكريهم وعقلائهم، وعلمهم محدوداً ومقيداً بقيود بشرية متمثلة فى عادات وتقاليد وأفكار.

وأحياناً يأتى فساد العقيدة من تحريفها، وتغييرها وتبديلها، كما هو الحال بالنسبة للعقيدة اليهودية والنصرانية فى الوقت الحاضر، فإنهما حرفتا منذ عهد بعيد، ففسادهما كان من هذا التحريف، وإن كانت عقيدتها سليمة الأصل (١).

ثالثاً: أين العقيدة الصحيحة اليوم؟

العقيدة الصحيحة لا توجد إلا فى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ؛ لأنهما محفوظتان لحفظ الله لهما قال تعالى: ﴿**إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ**﴾ [الحجر: ٩] والعقائد فى غير الإسلام وإن كان فى بعضها قليل من الحق، فإنها لا تمثل الحق ولاتجليه.

فالعقيدة الصحيحة السليمة لا توجد فى اليهودية ولا فى النصرانية، ولا فى كلام الفلاسفة... وإنما توجد فى الإسلام فى أصليه: الكتاب، والسنة ندية طرية صافية مشرقة، تملأ الفؤاد إيماناً ونوراً وحياة ويقيناً، ﴿**وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِى مَا الْكِتَابُ وَلَا الإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِ**﴾. [الشورى: ٥٢] وتقنع العقل بالحجة والبرهان: ﴿... **إِنَّ فِى ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ**﴾. وتنسجم مع الفطرة: ﴿**فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِى فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا**﴾. [الروم: ٣٠].

---

١ - انظر العقيدة فى الله: ١١.

رابعاً : ماذا تعنى العقيدة ؟

العقيدة الإسلامية ضرورية للإنسان ؛ لأنه بدونها تائه ضائع يفقد ذاته ووجوده، والعقيدة الإسلامية وحدها التى تجيب على التساؤلات التى شغلت ولا تزال تشغل الفكر الإنسانى، بل وتحيره من أين جئت ؟ ومن أين جاء هذا الكون ؟ من الوجد ؟ وما صفاته ؟ ما أسماؤه ؟ لماذا أوجدنا وأوجد الكون ؟

ومادورنا فى هذا الكون ؟ وما علاقتنا بالخالق الذى خلقنا ؟ وهل هناك عوامل غير منظورة وراء هذا العالم المشهور ؟ وهل هناك مخلوقات عاقلة مفكرة غير هذا الإنسان ؟ وهل بعد هذه الحياة حياة أخرى نصير إليها ؟ وكيف تكون تلك الحياة إن كان الجواب بالإيجاب ؟؟ لا توجد عقيدة سوى العقيدة الإسلامية اليوم تجيب على هذه الأسئلة إجابة صادقة مقنعة [١] وكل من لم يعرف هذه العقيدة، أو لم يعتنقها فإن حاله لن يختلف عن حال ذلك الشاعر البائس [٢] الذى لا يدرى شيئاً :

جئت ، لا أعلم من أين ، ولكنى أتيت
ولقد أبصرت ، قدامى طريقاً فمشيت
وسأبقى سائراً إن شئت هذا أم أبيت
كيف جئت ؟ كيف أبصرت طريقى ؟
لست أدرى
أجديد أم قديم أنا فى هذا الوجود
هل أنا حر طليق أم أسير فى قيود
هل أنا قائد نفسى فى حياتى أم مقود
أتمنى أننى أدرى ولكننى
لست أدرى

---

(١) انظر : العقيدة فى الله ١٢ .

(٢) هو إيليا أبو ماضى من قصيدة له طويلة بعنوان (الطلاسم) من ديوانه (الجداول) : ١٠٦ .

وطريقى ما طريقى ؟ أطويل أم قصير
هل أنا أصعد أم أنا أهبط فيه وأغور
أأنا السائر فى الدرب أم الدرب تسير ؟
أم كلانا واقف والدهر يجرى
لست أدرى
ليت شعرى وأنا فى عالم الغيب الأمين
أترانى كنت أدرى أننى فيه دفين
وبأنى سوف أبدو وبأنى سأكون
أم ترانى كنت لا أدرك شيئاً ؟
لست أدرى
أترانى قبلما أصبحت إنساناً سوياً
كنت محواً أو محالا أم ترانى كنت شيئا
ألهذا اللغز حل ؟ أم سيبقى أبدياً ؟
لست أدرى ولماذا ألست أدري
لست أدرى

وهذا الشاعر الملحد فقد معرفة الحقائق الكبرى فأصبح فى هذه الحيرة والقلق والشك والأمراض النفسية، وأين هو من المسلم الذى يدرى ويعرف معرفة مستيقنة كل هذه الحقائق، فإذا به يجد برد اليقين، وهدوء البال، وإذا به يسير فى طريق مستقيم إلى غاية مرسومة يعرف معالمها، ويدرى غايتها.

قال تعالى : ﴿ اللَّهُ الَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَلِكُم مِّن شَيْءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ . [الروم : ٤٠] وقال تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات : ٥٦] واستمع إلى الشاعر البائس يتحدث عن الموت والمصير .

إن يك الموت قصاصاً أى ذنب للطهارة ؟
وإن كان ثواباً ، أى فضل للدعارة
وإذا كان وما فيه جزاء أو خسارة
فلم الأسماء إثم وصلاح
لست أدرى
إن يك الموت رقاداً بعده صحو طويل
فلماذا ليس يبقى صحونا هذا الجميل
ولماذا المرء لا يدرى متى وقت الرحيل
ومتى ينكشف الستر فيدرى ؟
لست أدرى
إن يك الموت هجوعاً يملأ النفس سلاماً
وانعتاقاً لا اعتقالاً وابتداء لا ختاماً
فلماذا لا أعشق النوم ولا أهوى الحماما ؟
ولماذا تجزع الأرواح منه
لست أدرى
أو راء القبر بعد الموت بعث ونشور ؟
فحياة ، فخلود ، أم فناء فدثور ؟
أكلام الناس أصدق أم كلام الناس زور ؟
أصحيح أن بعض الناس يدرى
لست أدرى
إن أكن أبعث بعد الموت جثماناً وعقلاً
أترى أبعث بعضاً أم ترى أبعث كلاً
أترى أبعث طفلاً أم ترى أبعث كهلاً ؟
ثم هل أعرف بعد الموت ذاتى ؟
لست أدرى (١) .

---

١ ـ هو إيليا أبو ماضى من قصيدة له طويلة بعنوان (الطلاسم) من ديوانه (الجداول) : ١٠٧ .

(لست أدرى) تلك هى الإجابة عن التساؤلات الخالدة وليست هى قولة شاعر فحسب (فسقراط) الفيلسوف الذى يعد من عمالقة الفلاسفة، يقول بصريح العبارة (الشيء الذى لا أزال أجهله جيداً أننى لست أدرى)(١). بل إن (اللا أدرية) مذهب فلسفى قديم.

إنه الضلال: الضلال عن الحقيقة، إنه الشقاء، شقاء القلب وتعاسة النفس وضياع الضمير المثقل المكدود، وكم فى الحياة من أمثال هذا الشاعر البائس الضال، بعضهم يستطيع أن يفصح عن شقوته، وحيرته، وبعضهم يحس ويعانى وتبقى أفكاره حبيسة نفسه الشقية (٢).

بالإسلام وحده يصبح الإنسان يدرى، يدرى من أين جاء؟ وإلى أين المصير؟ يدرى لماذا هو موجود وما دوره فى هذه الحياة؟ قال تعالى: ﴿أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[الملك: ٢٢] إن البشرية تخبطت فى دياجير الظلام، وانتكست فى مهاوى الشرك وضلت عن سواء السبيل، وانحرفت عن منهج التوحيد، الذى جاءت به الأنبياء والرسل، فأصيبت البشرية فى عقلها وفكرها وقلبها بالشرك، وما ينبثق عنه من ضياع فى المنهج والفكر والعقيدة والأخلاق، فانحرفت اليهودية عن التوحيد الذى جاء به موسى عليه السلام على دراية من أحبارهم وعلمائهم، ولذلك غضب الله عليهم، وأضاعت النصارى الحق الذى جاء به عيسى عليه السلام فضلوا سواء السبيل.

فأصبحت البشرية فى ظلمة شديدة قبل نزول القرآن وبزوغ فجر الإسلام كانت البشرية قبل نزول القرآن تعج بركام العقائد والتصورات المنحرفة فى ذات الله ، وفى الكون، وفى الحياة، وفى الإنسان، وفى الموت، وفى الجزاء، وفى الحساب، وفى الكتب السماوية، وفى رسل الله، وفى أقدار الله وقضائه، وأصبحت البشرية بين إفراط وتفريط بعيدة عن الصراط المستقيم، حادت عن الوسطية والاعتدال والاستقامة، فبعض البشر زعم أن الملائكة بنات الله، ثم عبدوا

---

(١) الدين لدراز: ٦٩ . (٢) انظر: العقيدة فى الله: ١٥ .

الملائكة كما فعل مشركو العرب، وبعضهم قالوا عزير ابن الله كما فعلت اليهود، ووصف المولى عز وجل بصفات لا تليق به ، صفات النقص وشبه بمخلوقاته، تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً.

وشاعت بين البشرية عبادة الأصنام، إما بوصفها تماثيل للملائكة، وإما بوصفها تماثيل للأجداد، وإما لذاتها، وكانت الكعبة التى بنيت لعبادة الله وحده تعج، بالأصنام، إذ كانت تحتوى على ثلاثمائة وستين صنماً، غير الأصنام الكبرى فى جهات متفرقة.

ومما يدل على أن اللات والعزى ومناة كانت تماثيل للملائكة ما جاء فى القرآن الكريم فى سورة النجم : ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ اللاَّتَ وَالْعُزَّىٰ (١٩) وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَىٰ (٢٠) أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الأُنثَىٰ (٢١) تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ (٢٢) إِنْ هِيَ إِلاَّ أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الأَنفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَىٰ (٢٣) أَمْ لِلإِنسَانِ مَا تَمَنَّىٰ (٢٤) فَلِلَّهِ الآخِرَةُ وَالأُولَىٰ (٢٥) وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلاَّ مِن بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَىٰ (٢٦) إِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلائِكَةَ تَسْمِيَةَ الأُنثَىٰ (٢٧) وَمَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا ﴾ [النجم ١٩ - ٢٨].

وانتشرت بين الناس عبادة الكواكب، وكانت قبيلة حمير تعبد الشمس وكنانة : القمر، ولخم وجذام : المشترى، وطى : سهيلاً، وقيس : العبور، وأسد : عطارد.

وقد جاء عن هذا فى سورة فصلت : ﴿ لا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ . [فصلت :٣٧] وجاءت فى سورة النجم : ﴿ وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَىٰ ﴾ . [النجم :٤٩] وكثرت الإشارات إلى خلق النجوم والكواكب، وربوبية الله سبحانه لها كبقية خلائقه، وذلك لنفى ألوهية الكواكب وعبادتها، لقد سادت الصورة الشائهة للتصورات فى الجزيرة العربية، حيث بلاد الشام والرومان، حيث النصرانية المحرفة، واليهودية المغضوب عليها، وأصبحت البشرية شرقاً وغرباً، جنوباً وشمالاً تعج بركام من بقايا العقائد السماوية المحرفة،

ويجثم على ضمير البشرية فى كل مكان، والذى كانت تنبثق منه أنظمتهم وأوضاعهم وآدابهم وأخلاقهم (١).

من ثم كانت عناية الإسلام الكبرى موجهة إلى تحرير أمر العقيدة وتحديد الصورة الصحيحة التى يستقر عليها الضمير البشرى فى حقيقة الألوهية، وعلاقتها بالخلق، وعلاقة الخلق بها.. فتستقر عليها نظمهم وأوضاعهم وعلاقتهم الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، وآدابهم وأخلاقهم كذلك، فلا يمكن أن تستقر هذا الأمور كلها، إلا أن تستقر الألوهية وتتبين خصائصها واختصاصاتها.

وعن الإسلام (فى أصليه الكتاب والسنة) بإيضاح طبيعة الخصائص والصفات الإلهية المتعلقة بالخلق والإرادة والهيمنة والتدبير... ثم بحقيقة الصلة بين الله والإنسان ... فلقد كان معظم الركام فى ذلك التيه الذى تخبط فيه العقائد والفلسفات، مما يتعلق بهذا الأمر الخطير الأثر فى الضمير البشرى وفى الحياة الإنسانية كلها.

فالذى يعرف الجاهلية هو الذى يدرك قيمة الإسلام، ويعرف كيف يحرص على رحمة الله المتمثلة فيه، ونعمة الله المتحققة به، إن جمال هذه العقيدة وكمالها وتناسقها وبساطة الحقيقة الكبيرة التى تمثلها ... إن هذا كله لا يتجلى للقلب والعقل، كما يتجلى من مراجعة ركام الجاهلية ـ السابقة للإسلام واللاحقة ـ عندئذ تبدو هذه العقيدة رحمة... رحمة حقيقية... رحمة للقلب والعقل. ورحمة بالحياة والأحياء.

رحمة بما فيها من جمال وبساطة، ووضوح وتناسق، وقرب وأنس، وتجاوب مع الفطرة مباشر عميق (٢).

خامساً: هل تطورت العقيدة عبر الزمان؟

يرى كثير من الباحثين الغربيين أن الإنسان لم يعرف العقيدة على ما يعرفها عليه اليوم مرة واحدة، ولكنها ترقت وتطورت فى فترات وقرون متعاقبة، ولا

---

(١) انظر خصائص التصور الإسلامى ومقوماته: ٤٢.

(١) انظر: المرجع السابق: ٤٦.

عجب أن يقول بهذا الإفك من لم يمنحهم الله كتابه الذى بين فيه تاريخ العقيدة بوضوح لا لبس فيه ، إلا أن الغريب أن يسلك هذا المذهب رجال يعدون أنفسهم ويعدهم غيرهم باحثين مسلمين.

ومن أمثال أولئك: عباس محمود العقاد الذى يرى فى كتابه (الله) وهو كتاب يبحث فى نشأة العقيدة الإلهية: أن الإنسان ترقى فى العقائد، ويرى أن ترقى الإنسان فى العقائد موافق تماماً لترقيه فى العلوم.

يقول: (كانت عقائد الإنسان الأولى مساوية لحياته الأولى، وكذلك كانت علومه وصناعاته، فليست أوائل العلم والصناعة بأرقى من أوائل الأديان والعبادات، وليست عناصر الحقيقة فى واحدة منها بأوفر من عناصر الحقيقة فى الأخرى)(١).

بل يرى أن تطور العقيدة لدى الإنسان كان أشق من تطور العلوم والصناعات ويقول: وينبغى أن تكون محاولات الإنسان فى سبيل الدين أشق وأطول من محاولاته فى سبيل العلوم والصناعات؛ لأن حقيقة الكون الكبرى أشق مطلباً وأطول طريقاً من حقيقة هذه الأشياء المتفرقة التى يعالجها العلم تارة والصناعة تارة أخرى.

ويرى أن الحقيقة الإلهية لم تتجل للناس مرة واحدة يقول: (فالرجوع إلى أصول الأديان فى عصور الجاهلية الأولى لا يدل على بطلان التدين، ولا على أنها تبحث عن محال، كل ما يدل عليه أن الحقيقة الكبرى أكبر من أن تتجلى للناس كاملة فى عصر واحد)(٢).

ثم أخذ يستعرض آراء الباحثين فى تاريخ العقيدة، فمنهم من يرى أن السبب فى نشأة العقيدة هو ضعف الإنسان بين مظاهر الكون وأعدائه من قوى الطبيعة والأحياء، بعضهم يرى أن العقيدة الدينية عبادة (الطوطم) كأن تتخذ بعض القبائل حيوانا (طوطمياً) تزعمه أباً لها، وقد يكون شجراً أو حجراً يقدسونه،

(١) العقيدة فى الله ص (٢٤٣) نقلاً عن كتاب الله (للعقاد).
(٢) المرجع السابق: ٢٤٤.

إلى آخر تلك الفروض التى قامت فى أذهان الباحثين الغربيين.

ومع الأسف فقد سرت هذه النظرية إلى بعض الكتاب مثل: مصطفى محمود فى كتابه (الله) واعتنقها جملة من الدارسين أوقع هؤلاء فى هذا الخطأ أمور:

الأول: أنهم ظنوا أن الإنسان اهتدى إلى العقيدة بدون معلم يعلمه ومرشد يوضح له، فما دام الأمر كذلك فلا بد أن يترقى فى معرفته بالله كما ترقى فى العلوم والصناعات.

ثانياً: أنهم قدروا أن الإنسان الأول خلق خلقاً ناقصاً غير مؤهل لأن يتلقى الحقائق العظمى كاملة، بل إن تصوراتهم عن الإنسان الأول تجعله أقرب إلى الحيوان منه إلى الإنسان.

الثالث: أنهم عندما بحثوا فى الأديان ليتبينوا تاريخها لم يجدوا أمامهم إلا تلك الأديان المحرفة أو الضالة فجعلوها ميدان بحثهم، فأخضعوها للدراسة والتمحيص، وأنى لهم أن يعرفوا الحقيقة من تلك الأديان التى تمثل انحراف الإنسان فى فهم العقيدة (١).

سادساً: القرآن وحده يوضح تاريخ العقيدة:

ليس هناك كتاب فى الأرض يوضح تاريخ العقيدة بصدق إلا كتاب الله سبحانه وتعالى، ففيه علم غزير فى هذا الموضوع، وعلم البشر لا يمكن أن يدرك هذا الجانب إدراكاً وافياً لأسباب:

الأول: أن ما نعرفه عن التاريخ الإنسانى قبل خمسة آلاف عام قليل، أما ما نعرفه قبل عشرة آلاف عام فيعتبر أقل من القليل، وما قبل ذلك يعتبر مجاهيل لا يدرى علم التاريخ من شأنها شيئاً، لذا فإن كثيراً من الحقيقة ضاع بضياع التاريخ الإنسانى.

الثانى: أن الحقائق التى ورثها الإنسان اختلطت بباطل كثير، بل قد ضاعت فى أمواج متلاطمة فى محيطات واسعة من الزيف والدجل والتحريف، ومما يدل على ذلك أن كتابة تاريخ حقيقى لشخصية أو جماعة ما فى العصر الحديث تعتبر من أشق الأمور، فكيف بتاريخ يمتد إلى فجر البشرية ؟

---

(١) المرجع السابق: ٢٤٤ ، ٢٤٥ .

الثالث :أن قسما من التاريخ المتلبس بالعقيدة لم يقع فى الأرض، بل فى السماء (١). لذا كان الذى يستطيع أن يمدنا بتاريخ حقيقى لا لبس فيه هو الله سبحانه وتعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَخْفَىٰ عَلَيهِ شَيْءٌ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ ﴾. [آل عمران: ٥].

تاريخ العقيدة كما يرويه القرآن الكريم:

أعلمنا الله سبحانه أنه خلق آدم خلقاً مستقلاً سوياً متكاملاً، ثم نفخ فيه من روحه، وأسكنه جنته، وأباح له أن يأكل هو وزوجته منها كيف يشاء إلا شجرة واحدة، فأغراه عدوه إبليس بالأكل من الشجرة، فأطاع عدوه، وعصى ربه فأهبطه الله من الجنة إلى الأرض، وقبل الهبوط وعده الله سبحانه بأن ينزل عليه وعلى ذريته هداه كى يعرف الإنسان بربه ومنهجه وتشريعه، ووعد المستجيبين بالهداية فى الدنيا والسعادة فى الآخرة، وتوعد الله المستكبرين بالمعيشة الضنكة فى الدنيا وبالشقاء فى الآخرة ﴿ قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (٣٨) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾. (البقرة: ٣٨ - ٣٩). وفى سورة طه يقول سبحانه: ﴿ قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَىٰ (١٢٣) وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ (١٢٤) قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا (١٢٥) قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴾. [طه: ١٢٣ - ١٢٦].

سابعاً: الجيل الأول كان على التوحيد.

هبط آدم إلى الأرض، وأنشأ الله من ذريته أمة كانت على التوحيد الخالص كما قال تعالى: ﴿ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾ أى على التوحيد والدين الحق، فاختلفوا ﴿ فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ ﴾. (البقرة: ٢١٣).

---

(١) المرجع السابق: ٢٤٥.

وفى حديث أبى أمامة أن رجلا سأل الرسول ﷺ قال: يا رسول الله أنبى كان آدم؟ قال: «**نعم، مكلم**»، قال: فكم بينه وبين نوح ؟ قال: «**عشرة قرون**». وذكر ابن عباس رضى الله عنه: أن كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الإسلام(١).

ومقدار القرن مائة سنة وعلى ذلك يكون بين آدم ونوح ألف سنة وقد تكون المدة أكثر من ذلك إذ قيد ابن عباس هذه القرون العشرة بأنها كانت على الإسلام، فلا ينفى أن يكون بينهما قرون أخرى على غير الإسلام. وقد يكون المراد بالقرن الجيل من الناس قال تعالى: ﴿ **وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ** ﴾. (الإسراء: ١٧) وقوله: ﴿ **ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ** ﴾. [المؤمنون: ٣١].

١ - تفسير الطبرى : ٢ / ٣٣٥، ٣٣٦ .

الفصل الثانى

وسطية القرآن

فى باب توحيد الله

وأسمائه وصفاته

الفصل الثانى
وسطية القرآن فى باب توحيد الله وأسمائه وصفاته

تمهيد: إن المتأمل فى كتاب الله تبارك وتعالى، وما جاء فيه عن دعوات الرسل وما أنزل عليهم من الكتاب ليخرج بحقيقة واحدة، أطبق عليها جميع الرسل، وأنزلت بها جميع الكتب السماوية، هذه الحقيقة هى: الدعوة إلى توحيد الله وعبادته دون سواه، فهى أسس الرسالات وعمودها الفقرى، وهى القاسم المشترك بينها، وإن اختلفت بعد ذلك الشرائع والمناهج، فما من نبى أرسل ولا كتاب أنزل إلا وكان أول ما يدعو إليه: هو توحيد الله تبارك وتعالى.

يقول الله عز وجل فى تقرير هذه الحقيقة: ﴿ **وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلالَةُ فَسِيرُوا فِى الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ** ﴾[النحل: ٣٦] وفى آية أخرى يقول سبحانه: ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِى إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ** ﴾. [الأنبياء: ٢٥].

وإذا استعرضنا القرآن الكريم فى حديثه عن رسل الله عليهم الصلاة والسلام نجد أن كل رسول قال لقومه: ﴿ **يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ** ﴾. [المؤمنون: ٢٣، والأعراف: ٦٥، ٧٣، ٨٥]. ابتداء من أولهم نوح عليه السلام، وانتهاء بخاتمهم نبينا محمد ﷺ.

فالأنبياء عليهم الصلاة والسلام دينهم واحد، وهو الإسلام وشرائعهم مختلفة كما قال المصطفى ﷺ: « **أنا أولى الناس بعيسى ابن مريم فى الدنيا والآخرة، والأنبياء إخوة لعلات أمهاتهم شتى ودينهم واحد** »(١).

قال الحافظ ابن حجر: (ومعنى الحديث: أن أصل دينهم واحد وهو التوحيد

---

(١) أخرجه البخارى: كتاب أحاديث الأنبياء، باب (واذكر فى الكتاب مريم): ٦/ ٤٧٨.

وإن اختلفت فروع الشرائع، وقيل: المراد أن أزمنتهم مختلفة) (١).

وقال الحافظ ابن كثير فى معنى الحديث: (أى القدر المشترك بينهم وهو عبادة الله وحده لا شريك له، وإن اختلفت شرائعهم ومنهاجهم) (٢).

لقوله تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾. [المائدة: ٤٨].

وكل الأنبياء أخبروا بأنهم مسلمون ودعوا قومهم للإسلام؛ لأنه الدين الحق الذى لا يقبل الله غيره: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَن يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾. [آل عمران: ١٩] ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥].

وهذا يدل على أن دين جميع الأنبياء واحد، وهو الإسلام ودعوتهم واحدة وهى الدعوة لتوحيد الله عز وجل، وإفراده بالعبادة، على هذا مضى رسل الله والمسلمون من أممهم، ولكن قومهم غيروا وبدلوا بعدهم، وحرفوا وأدخلوا فى دين الله ما لم يأذن به الله، وشمل التحريف والتبديل أساس دعوة الرسل، وهو التوحيد. وما يتعلق بذات الله عز وجل من الأسماء والصفات، فتفرقت الأمم فى ذلك ما بين مفرط، ومفرط، وغال ومقصر؛ لإعراضهم عن هدى المرسلين واتباعهم غير سبيل المؤمنين.

ومن أعظم الأمم اختلافا وضلالا فى هذا الباب: أمتا اليهود والنصارى، فاليهود غلب عليهم التقصير والتفريط والجفاء، وإن كان لديهم غلو وإفراط، والنصارى غلب عليهم الغلو والإفراط وإن كان وقع منهم تفريط وتقصير فى جوانب. والمسلمون اتبعوا الرسل، فهدوا لأقوم السبيل، فكان قولهم هدى بين ضلالتين، وحقا بين باطلين، فهو كلبن سائغ يخرج من بين فرث ودم. وإليك البيان فى ما ذهبت إليه كل من هذه الأمم الثلاثة فى هذا الباب (٣).

---

(١) فتح البخارى: ٦/٤٨٩.

(٢) تفسير ابن كثير: ٧/١٨٣.

(٣) وسطية أهل السنة بين الفرق: (٢٤٢، ٢٤٣).

المبحث الأول
موقف أمة اليهود

عرفنا مما تقدم أن أمة يهود، أمة غلب عليها طابع التفريط والتقصير فى هذا الباب، بل هو الغالب عليهم فى أكثر الأبواب.

ولعل من أبرز مظاهر تفريطهم وتقصيرهم فى هذا الباب أمرين:

الأول: اتخاذهم الأنداد لله عز وجل، وعبادة الأصنام.

والثانى: إغراقهم فى تشبيه الخالق بالمخلوق، ووصف الله عز وجل بالنقائص التى لا تليق إلا بالمخلوق.

فأما الأمر الأول: وهو اتخاذهم الأنداد وعبادة الأصنام، فإن القوم لما أنقذهم الله من عدوهم فرعون وجنوده، وجاوز بهم البحر مع موسى عليه السلام، وأغرق عدوهم على مشهد منهم، ومروا على قوم يعكفون على أصنام لهم، مالت نفوسهم إلى الوثنية وطالبوا موسى عليه السلام أن يجعل لهم مثلها، يقول الله جل وعلا فى ذلك: ﴿ **وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰ أَصْنَامٍ لَّهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ** ﴾. [الأعراف: ١٣٨] ثم بين لهم موسى عليه السلام ضلال أولئك وبطلان عملهم، وأن الإله الحق هو الله الذى فضلهم على العالمين فقال: ﴿ **إِنَّ هَٰؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٣٩) قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ** ﴾. [الأعراف: ١٣٩، ١٤٠].

١ ـ اتخاذهم العجل فى زمن موسى:

لم يلق نصح موسى عليه السلام وتذكيره ووعظه من القوم قلباً واعياً أو أذناً صاغية، فما أن تركهم عليه السلام وذهب إلى ربه يناجيه، حتى اتخذوا العجل من بعده إلها من دون الله قال تعالى: ﴿ **وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِن بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ** ﴾. [الأعراف: ١٤٨] ﴿ **وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ**

﴿ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ ﴾ . [البقرة : ٥١] ثم بين تعالى من تولى كبر إضلالهم وصناعة العجل لهم، فقال : ﴿ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ ﴾ إلى قوله : ﴿ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلاً جَسَداً لَّهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ ﴾ . [طه : ٨٥ - ٨٨] .

فبين تعالى أن الذى عمل لهم العجل هو السامرى، ومن العجيب أن كتاب العهد القديم ينسب هذا العمل الشنيع إلى هارون عليه السلام كما جاء فى (سفر الخروج) (١) . ولقد تكرر من القوم اتخاذ الأصنام وعبادتها بعد موسى عليه السلام .

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله : (وأهل الكتاب معترفون بأن اليهود عبدوا الأصنام مرات . . .) (٢) .

وفى كتاب العهد القديم، إشارات كثيرة لعبادتهم الأوثان والأصنام، من ذلك :

١ - ما جاء فى (سفر الملوك الثانى) عن عودتهم لعبادة العجل فى عهد رحبعام (٣) يقول السفر :(. . . . وعمل عجلى ذهب وقال لهم : كثير عليكم أن تصعدوا إلى أورشليم هو ذا آلهتك يا إسرائيل الذين أصعدوك من أرض مصر ووضع واحد فى بيت أبل، وجعل الآخر فى دان) (٤) .

٢ - عبادتهم الأفعى وبعض التماثيل :

يذكر (سفر الملوك الثانى) عن الملك حزقيال أنه : (أزال المرتفعات وكسر التمايثل وقطع السوارى وسحق حية النحاس التى عملها موسى، لأن بنى إسرائيل كانوا إلى تلك الأيام يوقدون لها . . .) (٥) .

على أن موسى عليه السلام لم يعمل تمثالاً نحاسياً لحية، وإنما كانت عصاه

---

(١) انظر : العهد القديم، سفر الخروج إصحاح ٣٢ فقرة : ١ - ٦ .

(٢) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح : ٣ / ٢٤٧ .

(٣) هو رحبعام بن سليمان عليه السلام ملك بعد أبيه .

(٤) سفر الملوك الأول، إصحاح ١٢ فقرة : ٢٨ ، ٢٩ .

(٥) إصحاح ١٨ - فقرة : ٤ .

تنقلب إلى حية تسعى معجزة له ثم تعود سيرتها الأولى بعد ذلك عصاً يتوكأ عليها ويهش بها على غنمه، لكن لعل بنى إسرائيل عملوا ذلك ونسبوه إلى موسى عليه السلام لتروج عند الناس ويعظموها ويعبدوها.

وأما الأمر الثانى: وهو قولهم بالتشبيه ووصف الخالق بصفات المخلوق.

وهذا أمر مشهور عنهم، حتى عده الشهرستانى (١) من طباعهم الملازمة لهم، فإن القوم أسرفوا فى تشبيه الله عز وجل بالمخلوق ووصفوه جل وعلا بالنقائص التى تختص بالمخلوق.

ولقد سجل عليهم القرآن الكريم صوراً من ذلك، وكتابهم الذى بين أيديهم ينضح بالكثير من ذلك، ونحن نذكر فيما يلى نماذج من أقوالهم التى شبهوا فيها الخالق عز وجل بخلقه.

١ ـ فمن ذلك: (وصفهم الله بالفقر).

وهو صفة لا تليق بخالق البشر، ولكن القوم لا عقول لهم ولا حياء عندهم، يقول عز وجل فى ذلك: ﴿ **لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ** ﴾. [آل عمران: ١٨١].

٢ ـ ومن ذلك: (وصفهم له بأن يده مغلولة).

قال عز وجل ذاكراً قولهم هذا: ﴿ **وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ** ﴾. [المائدة: ٦٤].

٣ ـ وصفوه بأنه: (يحزن، ويندم على أفعاله) تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

يصفه (سفر التكوين) بذلك فيقول: (ورأى الرب أن شر الإنسان قد كثر فى الأرض وأن كل تصور أفكار قلبه إنما هو شرير كل يوم، فحزن الرب أنه عمل الإنسان الذى خلقه الإنسان مع بهائم ودبابات وطيور السماء، لأنى حزنت أنى علمتهم)(٢).

---

(١) انظر: الملل والنحل ١/١٠٦، هو أبو الفتح محمد عبد الكريم توفى ٥٤٨ هـ.

(٢) إصحاح ٦ فقرة: ٥ ـ ٨

٤ ـ ووصفوه :(بالتعب والاستراحة) تعالى عن ذلك .

جاء فى (سفر الخروج) : (أذكر يوم السبت لتقدسه، ستة أيام تعمل وتصنع جميع عملك وأما اليوم السابع ففيه سبت للرب إلهك، لا تصنع عملا أنت وابنك وابنتك وعبدك وأمتك وبهيمتك، وتريلك الذى داخل أبوابك، لأن فى ستة أيام صنع الرب الأرض والسماء والبحر وكل ما فيها، واستراح فى اليوم السابع لذلك بارك الرب اليوم السابع وقدسه) (١) . وفى سفر (التكوين): (فأكملت السماوات والأرض وكل جندها وفرغ الله فى اليوم السابع من عمله الذى عمل واستراح فى اليوم السابع من جميع عمله الذى عمل) (٢) .

٥ ـ وقالوا : (بأنه إنسان وصارع يعقوب عليه السلام إلى الفجر) .

ففى (سفر التكوين) : (فبقى يعقوب وحده وصارعه إنسان حتى طلوع الفجر، ولما رأى أنه لا يقدر عليه ضرب فخذه فانخلع حق فخذ يعقوب فى مصارعته معه، وقال : أطلقنى لأنه قد طلع الفجر، فقال : لا أطلقك إن لم تباركنى فقال له : ما اسمك ؟ فقال : يعقوب، فقال : لا يدعى اسمك فى ما بعد يعقوب بل إسرائيل؛ لأنك جاهدت مع الله والناس وقدرت . . . فدعا يعقوب اسم المكان فينئيل قائلاً : لأنى نظرت الله وجهاً لوجه ونجيت نفسى) (٣) .

٦ ـ وصفوه بما يفيد أنه : (لا يعلم الغيب ويحتاج علامات يميز بها بنى إسرائيل من غيرهم، فوضع الدم علامة على بيوت بنى إسرائيل ليميزها عن بيوت المصريين حتى لا يهلكهم) . ففى (سفر الخروج) : (أن الرب كلم موسى عليه السلام وقال له فيما قال : فإنى أجتاز فى أرض مصر هذه الليلة وأضرب كل بكر فى أرض مصر من الناس والبهائم، وأصنع أحكاما بكل آلهة المصريين أنا الرب، ويكون لكم الدم علامة على البيوت التى أنتم فيها فأرى الدم وأعبر عنكم فلا

---

(١) إصحاح ٢٠ فقرة ١ ـ ١٧ .

(٢) إصحاح ٢ فقرة ١ ـ ٢ .

(٣) إصحاح ٣٢ ـ فقرة ٢٤ ـ ٣٠ .

يكون عليكم ضربة للهلاك حين أضرب أرض مصر) (١).

٧ ـ أنهم جعلوا له أبناء كما أن للمخلوق أبناء.

جاء فى (سفر التكوين) : (وحدث لما ابتدأ الناس يكثرون على الأرض وولد لهم بنات أن أبناء الله رأوا بنات الناس أنهن حسنات فاتخذوا لأنفسهم نساء من كل ما اختاروا) . (٢). وحكى الله عز وجل عنهم أنهم جعلوا له ابناً فقال: ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ ﴾ . [التوبة: ٣٠] .

(١) سفر الخروج، إصحاح ١٢ فقرة ١٢ – ١٣ .

(٢) إصحاح ٦ فقرة ١ ـ ٢ .

المبحث الثانى
موقف النصارى

لقد ضلت أمة النصارى فى هذا الباب ضلالاً بعيداً، ولعل أمة من الأمم لم تضل فى دينها وربها وإلهها كما ضل الذين قالوا إنا نصارى. ولا عجب فالضلالة صفتهم المميزة لهم، كما أخبر بذلك رسول الله ﷺ فى قوله: «**اليهود مغضوب عليهم والنصارى ضلال**» (١). قال فى تفسير قول الله عز وجل: ﴿**غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ**﴾. [الفاتحة: ٧] ولعل من أعظم ضلالهم فى باب توحيد الله وصفاته أنهم:

١ - شبهوا المخلوق بالخالق:

وأضفوا عليه من الصفات والخصائص ما لا يليق إلا بالله عز وجل، ولا يصلح إلا له سبحانه فوصفوا المخلوق بصفات الخالق المختصة به، فقالوا: (إنه يخلق، ويرزق، ويغفر ويرحم، ويتوب على الخالق ويثيب ويعاقب) (٢) وهذه الصفات من خصائص الربوبية، وصفات الألوهية التى لا تكون إلا لله سبحانه.

وذلك أن هذه الأمة الضالة، جعلت المسيح عليه السلام هو الله، كما ذكر الله عز وجل قولهم هذا وكفرهم به فقال: ﴿**لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ...**﴾. [المائدة: ١٧] وتارة جعلوه ابناً لله سبحانه وتعالى عما يقول المبطلون، وعن قولهم هذا يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿**وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ**﴾. [التوبة: ٣٠].

وقالوا تارة أخرى: إنه شريك لله وجزء من ثلاثة يتكون منها الإله كما ذكر الله قولهم هذا وكفرهم به أيضاً فقال: ﴿**لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلاثَةٍ وَمَا مِنْ**

---

(١) الترمذى: كتاب التفسير، باب من سورة الفاتحة: ٥ / ٢٠٤.

(٢) الوصية الكبرى، لابن تيمية: ٤.

إله إلاَّ إلَهٌ واحدٌ وإن لَّمْ ينتهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ . [المائدة :٧٣] فألهوا المسيح عليه السلام وجعلوه شريكاً لله، وعبدوه من دونه، بل وصفوه بأخص صفات الألوهية والربوبية من الخلق والرزق والإحياء، والإماتة، وبذلك فاقوا عباد الأصنام والأوثان الذين قالوا فى معبوداتهم :﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ ﴾ . [الزمر:٣] ولم يضيفوا إليها شيئا من خصائص الربوبية كالخلق والرزق ونحو ذلك، بل أقروا بكل ذلك لله وحده كما قال عز وجل: ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ ﴾ . [يونس : ٣١] ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ . [العنكبوت : ٦١] ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ مِن بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ ﴾ . [العنكبوت :٦٣] ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ ﴾ [لقمان : ٢٥] .

أما هؤلاء فلئن سألتهم عن شيء من ذلك ليقولن: المسيح، فهو عندهم الإله الخالق المحيى الميت، باعث الرسل، ومنزل الكتب، حكى الإمام ابن القيم عنهم أنهم قالوا :(وليس المسيح عند طوائفنا الثلاثة هكذا). بنبى ولا عبد صالح، بل هو رب الأنبياء وخالقهم وباعثهم ومرسلهم وناصرهم، ومؤيدهم ورب الملائكة)[١].

وفى قرارهم الذى قرروه فى (مجمع نيقية)[٢] الذى عقد سنة ٣٢٥م وسموه بـ(الأمانة) ونصوا فيه على ألوهية المسيح عليه السلام، صرحوا بأنه هو الذى سينزل للقضاء بين الناس يوم القيامة ومحاسبتهم ومجازاتهم فقالوا :(وهو مستعد للمجيء تاره أخرى للقضاء بين الناس يوم القيامة ومحاسبتهم

---

(١) هداية الحيارى، ٢٦٩ .

(٢) سمى بذلك، نسبة إلى مدينة نيقية من أعمال إصطنبول التى اجتمع بها عدد من علماء النصارى، وكان من قراراتهم القول بإلهية المسيح.

ومجازاتهم) وقالوا : (وهو مستعد للمجيء تارة أخرى للقضاء بين الأموات والأحياء) (١) .

يقول أحد قساوستهم فى رسالة إلى أبى عبيدة الخزرجى (٢)، مصرحاً بألوهية المسيح وأنه خالق السماوات والأرض : (أما بعد حمد الله الذى هدانا لدينه، وأيدنا بيمينه، وخصنا بابنه ومحبوبه، ومد علينا رحمته بصلبه المسيح إلهنا، الذى خلق السماوات والأرض وما بينهن، والذى أمدنا بدمه المقدس ومن عذاب جهنم وقانا . . .) (٣) .

وقال مخاطباً أبا عبيدة داعياً إياه للإيمان بألوهية المسيح الخالق : (وما عقائدكم كلها إلا حسنة، وكان عندكم عدل كثير فى أصل دينكم، وخير شامل، فلو آمنتم بالمسيح وقلتم : إنه هو الله خالق السموات والأرض لكمل إيمانكم) . (٤)

وهكذا نرى النصارى يصفون المسيح عليه السلام بصفات الربوبية المختصة برب العالمين عز وجل ، وهذا أمر انفردوا به من بين العالمين ، ولم يقتصر الأمر على المسيح عليه السلام، بل جعلوا لغيره من الخلق بعض صفات الله تبارك وتعالى ، فجعلوا مريم عليها السلام إلهة ؛ لأنها أم الله بزعمهم ، ووصفوها بالجلوس على العرش مع الله عز وجل ، وسألوها مالا يسأل إلا من الله عز وجل .

يقول الإمام ابن القيم : (وأما قولهم فى مريم : فإنهم يقولون إنها أم المسيح ابن الله ووالدته فى الحقيقة . . وأنها على العرش جالسة عن يسار الرب تبارك وتعالى والد ابنها ، وابنها عن يمينه ، قال : والنصارى يدعونها ، ويسألونها سعة الزرق وصحة البدن وطول العمر ومغفرة الذنوب(٥)) .

---

(١) انظر : الشهرستانى، الملل والنحل : ٢ / ٢٨ .

(٢) هو أبو جعفر أحمد بن عبد الصمد بن أبى عبيدة الخزرجى الساعدى كان مشهورا بالذكاء والنبل مات بفاس بالمغرب عام ٥٨٢ هـ .

(٣) أبو عبيدة الخزرجى بين المسيحية والإسلام : ٧٢ .

(٤) نفس المصدر : ٨٧ .

(٥) هداية الحيارى : ٢٦١ .

وهذه الأمور لا يملكها إلا الله عز وجل ولا يسألها إلا هو سبحانه ، ولقد أشار القرآن الكريم إلى قول النصارى بألوهية مريم فى قوله تبارك وتعالى مخاطبا عيسى : ﴿ **وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ** ﴾ [المائدة :١١٦] . بل خصوا كنائسهم وبابواتهم ومطارنتهم ببعض خصائص الله عز وجل كمغفرة الذنوب ودخول الجنة والحرمان منها، ففى المجمع الثانى عشر من مجامعهم المعقود فى سنة ١٢١٥ م قرورا : (أن الكنيسة البابوية تملك الغفران وتمنحه لمن تشاء) .(١) وبناء على هذا القرار قامت الكنيسة بإصدار ما يسمى (صكوك الغفران) .

يقول أحد قسسهم فى هذا : (وقد جعل الله فى أيدى المطارين ما لم يجعله فى يد أحد ، وذلك أن كل ما يفعلون فى الأرض يفعله الله فى السماء ، فإذا أذنبنا فهم الذين يقبلون التوبات ويعفون عن السيئات بأيديهم صلاح الأحياء والأموات)(٢). ماذا أبقوا لله عز وجل ؟ !!!

٢ - ومن ضلالهم فى هذا الباب أيضاً : أنهم سبوا الخالق عز وجل وتنقصوه وذلك من وجهين :

الأول : قولهم إنه اتخذ ولداً ، حيث قالوا: إن المسيح ابن الله ، كما قال تعالى : ﴿ **وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ** ﴾ . [التوبة : ٣٠] وقد نزه الله عز وجل نفسه عن اتخاذ الصاحبة والولد فقال : ﴿ **وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ** ﴾ [البقرة : ١١٦] وقال سبحانه : ﴿ **وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا (٨٨) لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا (٨٩) تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا (٩٠) أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا (٩١) وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا (٩٢) إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِلاَّ آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا** ﴾ . [مريم : ٨٨ - ٩٣]، فأنكر قولهم، ونزه نفسه عن أن يكون له ولد .

---

(١) أبو زهرة ، النصرانية : ١٤٨ .

(٢) أبو عبيدة الخزرجى ، بين المسيحية والإسلام : ٩١ .

وبين سبحانه فى آية أخرى أن الولد لا يكون إلا من صاحبه، وهو سبحانه لا صاحبة له، فقال عز وجل: ﴿ **بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ** ﴾ .[الأنعام: ١٠١].

قال ابن كثير فى تفسير هذه الآية: (أى: كيف يكون له ولد، ولم تكن له صاحبة؟ أى: الولد إنما يكون متولداً عن شيئين متناسبين، والله لا يناسبه ولا يشابهه شيء من خلقه؛ لأنه خالق كل شيء فلا صاحبة ولا ولد . . .) (١).

وقد بين سبحانه فى الحديث القدسى، أن من نسب إليه اتخاذ الولد فقد شتمه وسبه بقوله ذلك، ففى الصحيح عن ابن عباس رضى الله عنهما، عن النبى ﷺ قال: «**قال الله: كذبنى ابن آدم ولم يكن له ذلك، وشتمنى ولم يكن له ذلك، فأما تكذيبه إياى، فزعم أنى لا أقدر أن أعيده كما كان، وأما شتمه إياى فقوله: لى ولد فسبحانى أن أتخذ صاحبة أو ولداً**»(٢).

الثانى: زعمهم أن الله سبحانه وتعالى عن قولهم علواً كبيراً (نزل من السماء وتجسد من روح القدس وصار إنساناً وحبل به وولد من مريم البتول وقتل وصلب) (٣).

وقال القس القوطى فى رسالته إلى أبى عبيدة الخزرجى يشرح فيها مذهبه: (. . . فهبط بذاته من السماء والتحم فى بطن مريم العذراء البتول أم النور فاتخذ لنفسه منها حجاباً كما سبق فى حكمته . . .) (٤).

يقول الإمام ابن القيم: (. . . إن هذه الأمة - أى: النصارى ارتكبت محذورين عظيمين، لا يرضى بهما ذو عقل ولا معرفة، أحدهما: الغلو فى المخلوق، حتى جعلوه شريك الخالق وجزءاً منه، وإلهاً آخر معه، ونفوا أن يكون عبداً له.

---

(١) تفسير ابن كثير: ٣ / ٣٠٢.

(٢) البخارى: كتاب التفسير ، ، باب: ﴿ **وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا** . . . ﴾: ٨ / ١٦٨، رقم ٤٤٨٢ .

(٣) انظر: الشهرستانى، الملل والنحل: ٢ / ٢٨ .

(٤) أبو عبيدة الخزرجى، بين المسيحية والإسلام: ٨٣ - ٨٤.

والثالث: تنقص الخالق وسبه ورميه بالعظائم، حيث زعموا أنه سبحانه وتعالى عن قولهم علوا كبيراً - نزل من العرش عن كرسى عظمته، ودخل فى فرج امرأة وأقام تسعة أشهر يتخبط بين البول والدم والنجو [١] ،وقد علته أطباق المشيمة والرحم والبطن، ثم خرج من حيث دخل، رضيعاً صغيراً يمص الثدى... ثم صار إلى أن لطمت اليهود خديه، وربطوا يده، وبصقوا فى وجهه، وصفعوا قفاه، وصلبوه جهراً بين لصين، وألبسوه إكليلاً من الشوك، وسمروا يديه ورجليه، وجرعوه أعظم الآلام، هذا هو الإله الحق الذى بيده أتقنت العوالم وهو المعبود المسجود له، ولعمر الله إن هذه مسبة لله سبحانه ما سبه بها أحد من البشر قبلهم ولا بعدهم....).

وذكر عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه، أنه قال فيهم: (أهينوهم ولا تظلموهم، فلقد سبوا الله عز وجل مسبة ما سبه إياها أحد من البشر) [٢].

وذكره شيخ الإسلام ابن تيمية من قول معاذ بن جبل رضى الله عنه [٣].

---

(١) النجو: ما يخرج من البطن من ريح وغائط. انظر: لسان العرب: ١٥/٣٠٦.

(٢) إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان: ٢/٢٧٨.

(٣) الجواب الصحيح: ٢/٥٢.

المبحث الثالث
موقف المسلمين

أما هذه الأمة المسلمة فقولها فى هذا الباب هو ما جاء به المرسلون من توحيد الله وإفراده بالعبادة، فآمنت بأنه لا إله إلا الله وحده لا شريك له، لا إله غيره، ولا رب سواه وهو رب العالمين، وخالق الكون، ومدبره ﴿ **لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ** ﴾. [الأعراف: ٥٤] ونزهوه سبحانه عن الأنداد، واتخاذ الصاحبة والأولاد، تصديقاً لقوله تعالى عن نفسه: ﴿ **مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ** ﴾. [المؤمنون: ٩١]، وقال كما قال مؤمنوا الجن: ﴿ **وَأَنَّهُ تَعَالَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلا وَلَدًا** ﴾. [الجن: ٣] وقوله: ﴿ **قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ① اللَّهُ الصَّمَدُ ② لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ③ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ** ﴾. [الإخلاص].

ووصفوه سبحانه بصفات الكمال والجلال، ونزهوه عن جميع صفات النقص، كما نزهوه عن أن يماثله شيء من المخلوقات فى شيء من الصفات...)[١]. ولم يصفوه إلا بما وصف به نفسه سبحانه، أو وصفته به رسله صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، من غير تعطيل ولا تمثيل، فلم يشبهوه بشيء من خلقه لا فى ذاته ولا فى صفاته - كما فعل اليهود - بل قالوا: ﴿ **لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ** ﴾. [الشورى: ١١]. ولم يشبهوا شيئاً من خلقه به، لا فى ذاته ولا فى شيء من صفاته، ولم يجعلوا له نظيراً أو نداً أو مثيلا أو شريكاً فى شيء من خصائص ألوهيته وربوبيته - كما صنع النصارى - بل نزهوه سبحانه عن الشبيه والنظير والكفء والند والمثيل[٢].

وإذا تأملت سورة الإخلاص وجدت بها صفات الكمال لله سبحانه وتعالى

---

(١) منهاج السنة لابن تيمية: ٥/١٦٩.

(٢) وسطية أهل السنة بين الفرق: ٢٥٨.

وهو أنه المنفرد بها وحده دون ما سواه قال تعالى: ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝١ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾ . [الإخلاص] ففى هذا السورة وصف الله سبحانه نفسه بأنه أحد صمد، فهذان الوصفان يدلان على اتصاف الله بغاية الكمال المطلق (١).

وذكر أبو هريرة فى معنى الصمد: (إنه المستغنى عن كل أحد والمحتاج إليه كل أحد) (٢) ومن خلال قول أبى هريرة فى معنى الصمد يدل على الإثبات والتنزيه، فالإثبات بوصفه سبحانه بأنه هو الذى يصمد إليه أى يرجع إليه فى كل أمر؛ وذلك لأنه هو المتصف بجميع صفات الكمال، فهو القادر على كل شىء، والفعال لما يريد، والذى بيده الخلق والأمر والجزاء، وما من قوة لغيره تعالى إلا بهيمنة منه، إذا شاء أبقاها ومتى شاء سلبها، فالمرجع والمرد إليه سبحانه (٣).

وأما التنزيه، فبوصفه تعالى بأنه غنى عن كل شىء، فلا افتقار فيه بوجه من الوجوه، لا فى وجوده فإنه الأول الذى ليس قبله شىء، وهو الذى لم يلد ولم يولد، ولا فى بقائه فإنه الذى يطعم ولا يطعم، ولا فى أفعاله فلا شريك ولا ظهير (٤).

كما أن وصفه سبحانه بأنه أحد صمد يدل على اتصافه بالكمال المطلق وكذلك يدلان على معنى آخر وهو نفى الولادة والتولد عن الله سبحانه، فإن الصمد جاء فى بعض الأقوال بأنه لا جوف له ولا أحشاء، فلا يدخل فيه شىء فلا يأكل ولا يشرب سبحانه وتعالى كما قال تعالى: ﴿ قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ قُلْ إِنِّى أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾. [الأنعام: ١٤] وقال تعالى: ﴿ مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ۝٥٧ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴾ . [الذريات: ٥٦ – ٥٨] فإن الأحد هو الذى لا كفء له ولا نظير فيمتنع أن تكون له صاحبة.

والتولد إنما يكون من شيئين قال تعالى: ﴿ بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ

---

(١) علو الله على خلقه بتصرف: ٢٨ .
(٢) تفسير القرطبى: ٢/٢٤٥ .
(٣) علو الله على خلقه بتصرف: ٢٨ ، ٢٩ .
(٤) المرجع السابق ص (٢٨ ، ٢٩)

وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ . [الأنعام: ١٠١]

وفى قوله تعالى: ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾ . (الإخلاص: ٤) وفى هذا سلب عن المخلوق مكافأته ومماثلته للخالق ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾ . [الأنعام: ١]

أى يعدلون به غيره فيجعلون له من خلقه عدلا.

ومثال هذا قوله تعالى: ﴿ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ﴾ . [مريم: ٦٥] أى لا شيئاً يساميه ولا نداً ولا عدلاً ولا نظيرا له يساويه، فأنكر التشبيه والتمثيل وبهذا يتبين لنا أن تنزيهه سبحانه عن العيوب والنقائص واجب لذاته، كما دلت على ذلك سورة الإخلاص[١].

١ - المرجع السابق: (٢٨ - ٣٤) للدويش.

المبحث الرابع
مفهوم الإيمان كما جاء فى القرآن

لا ريب أن مفهوم الإيمان عندما نصل إليه من خلال القرآن وتوضيح سيد الأنام عليه أفضل الصلاة والسلام : هى الوسطية بعينها فى هذا الباب، وهى الاستقامة والاعتدال؛ لذلك حرصت على إيضاح مفهوم الإيمان كما جاء فى القرآن والسنة خصوصاً وأن الناس قد وقعوا فى الإفراط والتفريط لبعدهم عن الوحيين الكتاب والسنة .

أولا : فى حد الإيمان وتفسيره :

إن معرفة حدود الاشياء وتفسيرها الذى يوضحها، يجب أن تتقدم أحكامها، فإن الحكم على الأشياء فرع عن تصورها، فمن حكم على أمر من الأمور - قبل أن يحيط علمه بتفسيره، ويتصوره تصوراً يميزه عن غيره - أخطأ خطأ فاحشاً .

أما حد الإيمان وتفسيره، فهو : (التصديق الجازم، والاعتراف التام بجميع ما أمر الله ورسوله بالإيمان به، والانقياد ظاهراً وباطناً، فهو تصديق القلب واعتقاده المتضمن لأعمال القلوب وأعمال البدن، وذلك شامل للقيام بالدين كله) (١) .

ولهذا كان الأئمة والسلف يقولون : الإيمان قول القلب واللسان، وعمل القلب واللسان والجوارح وهو : قول وعمل واعتقاد يزيد بالطاعة، وينقص بالمعصية . فهو يشمل عقائد الإيمان، وأخلاقه، وأعماله، فالإقرار والاعتراف بما لله تعالى : من الأسماء الحسنى، والصفات الكاملة العليا، والأفعال الناشئة عن أسمائه وصفاته، وهو من أعظم أصول الإيمان، وكذلك الاعتراف بما لله من الحقوق الخاصة - وهو : التأله والتعبد لله ظاهراً وباطناً - من أصول الإيمان والاعتراف بما أخبر الله به عن ملائكته وجنوده، والموجودات السابقة واللاحقة، والإخبار باليوم الآخر، كل هذا من أصول الإيمان (٢) .

---

(١) التوضيح والبيان لشجرة الإيمان للسعدى : ٩ .

(٢) انظر : المرجع السابق : ١٠ .

وكذلك الإيمان بجميع الرسل - صلوات الله وسلامه عليهم - وما وصفوا به فى الكتاب والسنة من الأوصاف الحميدة، كل هذا من أصول الإيمان، كما أن أعظم أصول الإيمان: الاعتراف بانفراد الله بالوحدانية والألوهية، وعبادة الله وحده لا شريك له، وإخلاص الدين لله، والقيام بشرائع الإسلام الظاهرة، وحقائقه الباطنة كل هذا من أصول الإيمان؛ ولهذا رتب الله على الإيمان دخول الجنة والنجاة من النار، ورتب عليه رضوانه والفلاح والسعادة. ولا يكون ذلك إلا بما ذكرنا: من شموله للعقائد وأعمال القلوب، وأعمال الجوارح؛ لأنه متى فات شيء من ذلك، حصل من النقص وفوات الثواب، وحصول العقاب - بحسبه.

بل أخبر الله تعالى: أن الإيمان المطلق تنال به أرفع المقامات فى الدنيا، وأعلى المنازل فى الآخرة، فقال تعالى: ﴿ **وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ** ﴾. [الحديد: ١٩].

والصديقون هم أعلى الخلق درجة بعد درجة الأنبياء، فى الدنيا، وفى منازل الآخرة، وأخبر فى هذه الآية، أن من حقق الإيمان به وبرسله، نال هذه الدرجة ويفسر ذلك ويوضحه ما ثبت فى الصحيحين عنه ﷺ قال: « **إن أهل الجنة ليتراؤون الغرف فى الجنة، كما تراؤون الكوكب الشرقى أو الغربى فى الأفق، لتفاضل ما بينهم** »، فقالوا: يا رسول الله تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم، قال: « **بلى والذى نفسى بيده، رجال آمنوا بالله، وصدقوا المرسلين** » (١).

وإيمانهم بالله وتصديقهم للمرسلين: فى ظاهرهم وباطنهم، فى عقائدهم وأخلاقهم وأعمالهم، وفى كمال طاعتهم لله ولرسوله، فقيامهم بهذه الأمور، به يتحقق إيمانهم بالله وتصديقهم للمرسلين. وقد أمر الله فى كتابه بهذا الإيمان العام الشامل، وما يتبعه: من الانقياد والاستسلام، وأثنى على من قام به، فقال فى أعظم آيات الإيمان: ﴿ **قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ**

(١) أخرجه البخارى، كتاب الرقاق، باب صفة الجنة والنار، رقم(٦٥٥٦)، ومسلم، كتاب الجنة، باب ترائى أهل الجنة أهل الغرف رقم (٢٨٣٠).

أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ . [البقرة : ١٣٦].

فأمر الله عباده بالإيمان بجميع هذه الأصول العظيمة والإيمان الشامل بكل كتاب أنزله الله، وبكل رسول أرسله الله، والإخلاص والاستسلام والانقياد له وحده بقوله : ﴿ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ . كما أثنى على المؤمنين في آخر السورة بالقيام بذلك، فقال : ﴿ آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴾ . [البقرة : ٢٨٥].

فأخبر : أن الرسول ومن معه من المؤمنين، آمنوا بهذه الأصول ولم يفرقوا بين أحد من الأنبياء، بل آمنوا بهم جميعاً، وبما أوتوه من عند الله، وأنهم التزموا طاعة الله، فقالوا : سمعنا وأطعنا، وطلبوا من ربهم : أن يحقق لهم ذلك وأن يعفوا عن تقصيرهم ببعض حقوق الإيمان، وأن مرجع الخلائق كلهم ومصيرهم إلى الله يجازيهم بما قاموا به من حقوق الإيمان، وما ضيعوه منها كما قال تعالى عن أتباع الأنبياء عيسى وغيره أنهم قالوا : ﴿ رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴾ . [آل عمران : ٥٣] فآمنوا بقلوبهم، والتزموا بقلوبهم، وانقادوا بجوارحهم، وسألوا الله أن يكتبهم مع الشاهدين له بالتوحيد وأن يحقق لهم القيام به، قولاً وعملاً واعتقاداً وقال تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ . [الأنفال : ٢ - ٤].

الصلاة فرضها ونفلها : يقيمونها ظاهراً وباطناً، ويؤتون الزكاة، وينفقون النفقات الواجبة والمستحبة، ومن كان على هذا الوصف فلم يبق من الخير مطلباً، ولا من الشر مهرباً . ولهذا قال : ﴿ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ﴾، الذين يستحقون هذا الوصف على الحقيقة، ويحققون القيام به ظاهراً وباطناً ثم ذكر ثوابهم الجزيل - المغفرة المتضمنة لزوال كل شر ومحذور ورفعة الدرجات عند ربهم، والرزق الكريم المتضمن من النعم ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

قال تعالى: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ① الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ② وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ③ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ④ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ⑤ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ⑥ فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ⑦ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ⑧ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ⑨ أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ⑩ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾. [المؤمنون: ١-١١]. ففسر الله الإيمان فى هذه الآيات بجميع هذه الخصال فإنه أخبر بفلاح المؤمنين، ثم وصفهم بقوله: ﴿ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴾ إلى آخر الآيات المذكورة - فمن استكمل هذه الأوصاف فهو المؤمن حقاً، ومضمونها: القيام بالواجبات الظاهرة والباطنة، واجتناب المحرمات والمكروهات، وبتكميلهم للإيمان استحقوا أن يكونوا ورثة جنات الفردوس التى هى أعلى الجنات، كما أنهم قاموا بأعلى الكمالات. وهذه صريحة فى أن الإيمان يشمل عقائد الدين، وأخلاقه، وأعماله الظاهرة والباطنة، ويترتب على ذلك: أنه يزيد بزيادة هذه الأوصاف والتحقق بها، وينقص بنقصها، وأن الناس فى الإيمان درجات متفاوتة بحسب تفاوت هذه الأوصاف (١).

ولهذا كانوا ثلاث درجات: **سابقون مقربون**، وهم الذين قاموا بالواجبات والمستحبات، وتركوا المحرمات والمكروهات، وفضول المباحات، **ومقتصدون**، وهم: الذين قاموا بالواجبات، وتركوا المحرمات، **وظالمون لأنفسهم**، وهم: الذين تركوا بعض واجبات الإيمان، وفعلوا بعض المحرمات، كما ذكرهم الله بقوله: ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴾. [فاطر: ٣٢] وقد يعطف الله على الإيمان، الأعمال الصالحة أو التقوى أو الصبر، للحاجة إلى ذكر المعطوف؛ لئلا يظن الظان أن الإيمان يكتفى فيه بما فى القلب فكما فى القرآن من قوله: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾. [البقرة: ٢٧٧] ثم يذكر خبراً عنهم،

---

(١) انظر: التوضيح والبيان: ١٦.

والأعمال الصالحات من الإيمان فمن ادعى أنه مؤمن: وهو لم يعمل بما أمر الله به ورسوله من الواجبات، ومن ترك المحرمات فليس بصادق فى إيمانه وهذا من وسطية القرآن واستقامته واعتداله وحكمته فى هذا الباب.

كما يقرن بين الإيمان والتقوى، فى مثل قوله تعالى: ﴿ **أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢) الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ** ﴾ . [يونس: ٦٢، ٦٣] فذكر الإيمان الشامل لما فى القلوب من العقائد والإرادات الطيبة، والأعمال الصالحة، ولا يتم للمؤمن ذلك حتى يتقى ما يسخط الله من الكفر والفسوق والعصيان؛ ولهذا حقق ذلك بقوله: ﴿ **وكانوا يتقون** ﴾ كما وصف الله بذلك خيار خلقه، بقوله: ﴿ **وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ (٧) فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ** ﴾ . [الحجرات: ٧ ، ٨] فهذه أكبر المنن، أن يحبب الله الإيمان للعبد، ويزينه فى قلبه، ويذيقه حلاوته، وتنقاد جوارحه للعمل بشرائع الإسلام، ويبغض الله إليه أصناف المحرمات والله عليم بمن يستحق أن يتفضل عليه بهذا الفضل، حكيم فى وضعه فى محله اللائق به.

كما ثبت فى الصحيح من حديث أنس رضى الله عنه أنه قال ﷺ : «**ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان، أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يرجع عن دينه، كما يكره أن يقذف فى النار**»(١) . فذكر أصل الإيمان الذى هو محبة الله ورسوله، ولا يكتفى بمطلق المحبة، بل لابد أن تكون محبته لله مقدمة على جميع المحاب، وذكر تفريعها: بأن يحب لله، ويبغض لله فيحب الأنبياء والصديقين، والشهداء والصالحين؛ لأنهم قاموا بمحاب الله واختصهم من بين خلقه، وذكر دفع ما يناقضه وينافيه، وأنه يكره أن يرجع عن دينه أعظم كراهة تقدر أعظم من كراهة إلقائه فى النار.

أخيراً فى هذا الحديث: أن للإيمان حلاوة فى القلب، إذا وجدها العبد سلته

---

(١) رواه مسلم شرح النووى، كتاب الإيمان، باب: الحياء شعبة من الإيمان: ٢/ ٦ .

عن المحبوبات الدنيوية، وعن الأعراض النفسية، وأوجبت له الحياة الطيبة، فإن أحب الله ورسوله لهج بذكر الله طبعاً - فإن من أحب شيئاً أكثر من ذكره - واجتهد فى متابعة الرسول، وقدم متابعته على كل قول، وعلى إرادة النفوس وأغراضها، من كان كذلك فنفسه مطمئنة مستحلية للطاعات، قد انشرح صدر صاحبها للإسلام، فهو على نور من ربه، وكثير من المؤمنين لا يصل إلى هذه المرتبة العالية ﴿ **وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا** ﴾ . [الأنعام : ١٣٢] .

وكذلك فى الصحيحين من حديث أبى هريرة أنه ﷺ قال : « **الإيمان بضع وسبعون شعبة ، أعلاها قول : لا إله إلا الله ، وأدناها : إماطة الأذى عن الطريق والحياء شعبة من الإيمان** » . وهذا صريح أن الإيمان يشمل أقوال اللسان، وأعمال الجوارح، والاعتقادات والأخلاق، والقيام بحق الله، والإحسان إلى خلقه، فجمع فى هذا الحديث بين أعلاه وأصله وقاعدته وهو قول : لا إله إلا الله، اعتقادا وتألها، وإخلاصها لله وبين أدناه، وهو إماطة العظم والشوكة وكل ما يؤذى عن الطريق ، فكيف بما فوق ذلك : من الإحسان وذكر الحياء، والله أعلم؛ لأن الحياء به حياة الإيمان، وبه يدع العبد كل فعل قبيح كما به يتحقق كل خلق حسن، وهذه الشعب - المذكورة فى هذا الحديث - هى جميع شرائع الدين الظاهرة والباطنة . وهذا - أيضا - صريح فى أن الإيمان يزيد وينقص بحسب زيادة هذه الشرائع والشعب واتصاف العبد بها أوعدمه، ومن العلوم أن الناس يتفاوتون فيها تفاوتاً كبيراً، فمن زعم : أن الإيمان لا يزيد ولا ينقص فقد خالف الحس مع مخالفته لنصوص الشارع كما ترى (١) .

والانقياد لحكم الله ورسوله من علامات الإيمان قال تعالى : ﴿ **فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا** ﴾ . [النساء : ٦٥] فأقسم تعالى أنهم لا يؤمنون حتى يحكموا رسوله، ولا يبقى فى قلوبهم حرج وضيق من حكمه وينقادوا له انقياداً،وينشرحوا لحكمه، وهذا شامل فى تحكيمه فى أصول الدين، وفى فروعه، وفى الأحكام

(١) انظر : التوضيح والبيان : ٢٣ .

الكلية، والأحكام الجزئية (١). وفى صحيح البخارى عن أنس مرفوعا: « **لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه** » (٢). وذلك يقتضى أن يقوم بحقوق إخوانه المسلمين الخاصة والعامة، فإنه من الإيمان، ومن لم يقم بذلك ويحب لهم ما يحب لنفسه، فإنه لم يؤمن الإيمان الواجب بل نقص إيمانه بقدر ما نقص من الحقوق الواجبة عليه (٣).

وفى صحيح مسلم من حديث العباس بن عبد المطلب (٤) رضى الله عنه قال: قال ﷺ: « **ذاق طعم الإيمان من رضى بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد نبيا** » (٥).

والرضا بذلك يقتضى الفرح بذلك، والسرور بربوبية الله له، وحسن تدبيره وأفضليته عليه، وأن يرضى بالإسلام ديناً، ويفرح به، ويحمد الله على هذه النعمة التى هى أكبر المنن، حيث رضى الله له الإسلام ووفقه له، واصطفاه له، ويرضى بمحمد ﷺ نبياً، إذ هو أكمل الخلق، وأعلاهم فى كل صفة كمال، وأمته وأتباعه أكمل الأمم وأعلاهم، وأرفعهم درجة فى الدنيا والآخرة.

فالرضا بنبوة الرسول ورسالته واتباعه، من أعظم ما يثمر الإيمان، ويذوق به العبد حلاوته، قال تعالى: ﴿ **لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ** ﴾ [آل عمران: ١٦٤] قال تعالى: ﴿ **لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ** ﴾. [التوبة: ١٢٨].

فكيف لا يرضى المؤمن بهذا لرسول الكريم الرؤوف الرحيم الذى أقسم الله

---

(١) انظر: التوضيح والبيان: ٢٣.

(٢) رواه البخارى، كتاب الإيمان، باب من الإيمان أن يحب لأخيه: ١/ ١١.

(٣) انظر: التوضيح والبيان: ٢٤.

(٤) هو العباس بن عبد المطلب بن هشام بن عبد مناف بن قصى القرشى أبو الفضل عم النبى ﷺ أسلم قبل عام الفتح وقدمه عمر فى صلاة الاستسقاء وتوفى عام ٣٢ هـ.

(٥) رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب من رضى بالله وبالإسلام وبمحمد: ١/ ٦٢.

أنه لعلى خلق عظيم،وأشرف مقام للعبد انتسابه لعبودية الله، واقتداؤه برسوله ، ومحبته واتباعه؛ وهذا علامة محبة الله ؛ وباتباعه تتحقق المحبة والإيمان. قال تعالى : ﴿ **قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِييُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ** ﴾ .[آل عمران : ٣١].

وفى صحيح مسلم من حديث سفيان بن عبد الله الثقفى قال : قلت :يا رسول الله؛ قل لى فى الإسلام قولاً، لا أسأل عنه أحدا بعدك، قال : « **قل آمنت بالله ، ثم استقم** » .(١)

فبين ﷺ بهذه الوصية الجامعة أن العبد إذا اعترف بالإيمان ظاهراً وباطناً، ثم استقام عليه قولاً وعملاً ، فعلاً وتركاً، فقد كمل أمره ، واستقام على الصراط المستقيم ، ورجى له فلاح الدارين . وبعد هذا العرض الموجز لمفهوم الإيمان كما جاء فى القرآن ووضحته أحاديث سيد ولد عدنان عليه أفضل الصلاة والسلام، يتضح لنا مفهوم الإيمان بعيداً على من أنكره جملة كالملاحدة، أو انحرف فى فهم حقيقته كالفلاسفة أو حرفوه عن أصله كاليهود أو ضلوا عن تصور معانيه والوقوف على ماهيته كالنصارى، وبذلك يتضح لنا مفهوم الإيمان ووسطية واستقامة واعتدال القرآن فى عرضه .

وابتعدت عن أقوال من وقع فى البدع فى حقيقة هذا الجانب من المعتزلة والخوارج والمرجئة والجهمية، واكتفيت بقول واعتقاد أهل السنة والجماعة الذين هم الصحابة رضى الله عنهم، وكل من سلك نهجهم من خيار التابعين رحمة الله عليهم، ثم أصحاب الحديث ومن تبعهم من الفقهاء جيلاً فجيلاً إلى يومنا هذا، ومن اقتدى بهم من العوام فى شرق الأرض وغربها رحمة الله عليهم.(٢)

وقد بين النبى ﷺ أن النجاة لا تكون إلا لمن كان على ماكان عليه رسول الله وأصحابه ومن تابعهم إلى يوم الدين قال رسول الله ﷺ : « .... **وتفترق أمتى على ثلاث وسبعين ملة كلهم فى النار إلا واحدة** » قالوا : وما هى يا رسول الله؟

---

(١) مسلم، كتاب الإيمان، باب جامع أوصاف الإسلام : ١/ ٦٥.

(٢) انظر: الفصل فى الملل والأهواء والنحل: ٢/ ١١٣.

قال: «**ما أنا عليه وأصحابى**». (١)

ثانيا: منهج القرآن فى الأمور التى يستمد منها الإيمان.

بما أن الإيمان أعظم المطالب وأهمها وأعمها؛ لذلك جعل الله له مواد كبيرة تجلبه وتقويه، كما أنه له أسباب تضعفه وتوهيه.

والمواد التى تجلبه وتقويه أمران: مجمل، ومفصل، أما المجمل فهو: التدبر لآيات الله المتلوة: من الكتاب، والسنة، والمتأمل لآياته الكونية على اختلاف أنواعها، والحرص على معرفة الحق الذى خلق له العبد، والعمل بالحق، فجميع الأسباب مرجعها إلى هذا الأصل العظيم.

وأما التفصيل: فالإيمان يحصل ويقوى بأمور كثيرة: منها بل أعظمها:

أولا: معرفة أسماء الله الحسنى الواردة فى الكتاب والسنة، والحرص على فهم معانيها، والتعبد لله فيها، قال تعالى: ﴿**وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾. [الأعراف: ١٨٠] فالتأمل فى أسمائه وصفاته سبحانه وتعالى من منهج الوسطية والإلحاد فى أسمائه وصفاته خروج عن منهج الوسطية الذى رسمه القرآن ﴿**قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا فَلَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ**﴾. [الإسراء: ١١٠] والذين يصفون الله بغير ما وصف به نفسه فى كتابه أو على لسان رسوله ﷺ، يلحدون فى آيات الله، وهذا انحراف عن الصراط المستقيم: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا**﴾. [فصلت: ٤٠] ولذلك فإن الحرص على معرفة أسماء الله الحسنى وفهم معانيها يزيد الإيمان.

فقد ثبت فى الصحيحين عنه ﷺ أنه قال: «**إن لله تسعة وتسعين اسماً - مائة إلا واحدا - من أحصاها، دخل الجنة**» (٢) أى من حفظها، وفهم معانيها، واعتقدها، وتعبد الله بها دخل الجنة، والجنة لا يدخلها إلا المؤمنون فاعلم:

١- رواه الترمذى: كتاب الإيمان، باب ما جاء فى افتراق هذه الأمة: ٥/٢٦ رقم الحديث: ٢٦٤١ وحسنه.

٢ - البخارى مع الفتح، كتاب الدعوات، باب لله مائة اسم: ١١/٢١٨، رقم الحديث: ٦٤١٠.

أن ذلك أعظم ينبوع ومادة لحصول الإيمان وقوته وثباته، معرفة الأسماء الحسنى هى أصل الإيمان، والإيمان يرجع إليها.

ومعرفتها تتضمن أنواع التوحيد الثلاثة: توحيد الربوبية، وتوحيد الإلهية، وتوحيد الأسماء والصفات، وهذه الأنواع هى روح الإيمان وروحه، وأصله وغايته. فكلما ازداد العبد معرفة بأسماء الله وصفاته، ازداد إيمانه، وقوى يقينه، فينبغى للمؤمن: أن يبذل مقدوره ومستطاعه فى معرفة الأسماء والصفات، وتكون معرفته سالمة من داء التعطيل، ومن داء التمثيل اللذين ابتلى بهما كثير من أهل البدع المخالفة لما جاء به الرسول ﷺ، بل تكون المعرفة متلقاة من الكتاب والسنة، وما روى عن الصحابة والتابعين لهم بإحسان، فهذه المعرفة النافعة التى لايزال صاحبها فى زيادة فى إيمانه وقوة يقينه، وطمأنينة فى أحواله (١).

ويعجبنى فى هذا المقام كلام نفيس للعلامة ابن القيم رحمه الله حيث يقول: (ومشهد الأسماء والصفات من أجل المشاهد، والمطلع على هذا المشهد يعرف أن الوجود متعلق خلقاً وأمراً بالأسماء الحسنى والصفات العلى، ومرتبط بها وإن كل ما فى العالم بما فيه من بعض آثارها ومقتضياتها، فاسمه الحميد، المجيد، يمنع ترك الإنسان سدى مهملاً معطلاً، لا يؤمر ولا ينهى، ولا يثاب ولا يعاقب، وكذلك اسمه (الحكيم) يأبى ذلك، وهكذا فكل اسم من أسمائه له موجبات وله صفات لا ينبغى تعطيلها عن كمالها ومقتضياتها والرب تعالى يحب ذاته وأوصافه وأسماءه، فهو عفو يحب العفو، ويحب المغفرة، ويحب التوبة، ويفرح بتوبة عبده حين يتوب إليه أعظم فرح يخطر بالبال.

وكان تقدير ما يغفره ويعفو عن فاعله، ويحلم عنه، ويتوب عليه ويسامحه بموجب أسمائه وصفاته، وحصول ما يحبه ويرضاه من ذلك، وما يحمد به نفسه ويحمد به أهل سماواته وأهل أرضه، وما هو من موجبات كماله ومقتضى حمده وهو سبحانه الحميد المجيد، وحمده ومجده يقتضيان آثارهما ومن آثارهما:

---

(١) انظر: التوضيح والبيان: ٤١.

مغفرة الزلات وإقالة العثرات، والعفو عن السيئات، أو المسامحة عن الجنايات مع كمال القدرة على استيفاء الحق، والعلم منه سبحانه بالجناية ومقدار عقوبتهما فحلمه بعد علمه، وعفوه بعد قدرته، ومغفرته عن كمال عزته وحكمته كما قال عيسى عليه السلام فى القرآن: ﴿ **إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ** ﴾ . [المائدة: ١١٨] أى فمغفرتك عن كمال قدرتك وحكمتك لست كمن يغفر عجزاً، ويسامح جهلاً بقدر الحق، بل أنت عليم بحقك، قادر على استيفائه حكيم فى الأخذ به، فمن تأمل سريان آثار الأسماء والصفات فى العالم، وفى الأمر يتبين له أن مصدر قضاء هذه الجنايات من العبيد، وتقديرها هو من كمال الأسماء والصفات والأفعال، وغايتها أيضاً مقتضى حمده ومجده، كما هو مقتضى ربوبيته وإلهيته، فلله فى كل ما قضاه وقدره الحكمة البالغة، والآيات الباهرة.

والله سبحانه دعا عباده إلى معرفته بأسمائه وصفاته وأمرهم بشكره ومحبته وذكره وتعبدهم بأسمائه الحسنى وصفاته العلى؛ لأن كل اسم له تعبد مختص به، علماً ومعرفة وحالاً، وأكمل الناس عبودية: المتعبد بجميع الأسماء والصفات التى يطلع عليها البشر، فلا يحجبه اسم عن اسم آخر، كما لا يحجبه التعبد باسمه **(القدير)** عن التعبد باسمه **(الحليم الرحيم)** أو يحجبه عبودية اسمه **(المعطى)** عن عبودية اسمه **(المانع)** أو عبودية اسمه **(الرحيم، العفو، والغفور)** عن اسم المنتقم أو التعبد بأسماء **(البر، والإحسان، واللطف)** عن أسماء العدل والجبروت، والعظمة والكبرياء، وهذه طريقة الكمال من السائرين إلى الله، وهى طريقة مشتقة من قلب القرآن قال تعالى: ﴿ **وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا..** ﴾. [الأعراف: ١٨٠] والدعاء بها يتناول دعاء المسألة ودعاء الثناء ودعاء التعبد [١] وهو سبحانه يدعو عباده إلى أن يعرفوه بأسمائه وصفاته ويثنوا عليه بها، ويأخذوا بحظهم من عبوديتها.

فالله تعالى يحب موجب أسمائه وصفاته، فهو عليم يحب كل عليم وهو

---

(١) انظر: مدارج السالكين: ٢/٤١٧ - ٤١٩ .

(**جواد**) يحب كل جواد، (**وتر**) يحب الوتر (**جميل يحب الجمال**) عفو يحب العفو وأهله (**حيى**) يحب الحياء وأهله (**بر**) يحب الأبرار (**شكور**) يحب الشاكرين (**صبور**) يحب الصابرين (**حليم**) يحب أهل الحلم، فلمحبته سبحانه للتوبة والمغفرة، والعفو والصفح خلق من يغفر لهم ويتوب عليهم ويعفو عنهم، وقدر عليهم ما يقتضى وقوع المكروه المبغوض له، ليترتب عليه المحبوب له المرضى له (١).

وظهور أسماء الله وصفاته فى هذه الحياة وفى النفس البشرية وفى الكون كله واضح، لا يحتاج إلى دليل، إلا أن الاهتداء إلى تلك الآثار أو الانتباه لها يتوقف على توفيق الله تعالى، بل إن التوفيق نفسه من آثار رحمته التى وسعت كل شىء، فلو فكر الإنسان فى هذا الكون الفسيح وفى نفسه لرجع من هذه الجولة الفكرية، بعجائب واستفاد منها فوائد ما كان يحلم بها، ولو تأملنا هذه الآية الكريمة لرأينا أموراً تعجز عن التعبير عنها قال تعالى: ﴿ **أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ (١١٥) فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ** ﴾ . [المؤمنون: ١١٥ ، ١١٦] ومما يدلل ويؤكد أهمية هذا التوحيد هو ما تثمره أسماء الله وصفاته فى قلب المؤمن من زيادة الإيمان ورسوخ فى اليقين، وما تجلبه له من النور والبصيرة التى تحفظه من الشبهات المضللة والشهوات المحرمة (٢).

فهذا العلم إذا رسخ فى القلب أوجب خشية الله لا محالة، فلكل اسم من أسماء الله له تأثير معين فى القلب والسلوك، فإذا أدرك القلب معنى الاسم وما تضمنه واستشعر ذلك، تجاوب مع هذه المعانى وانعكست هذه المعرفة على تفكيره وسلوكه، ولكل صفة عبودية خاصة هى من موجباتها ومقتضياتها فالأسماء الحسنى والصفات العلى مقتضية لآثارها من العبودية، وهذا مطرد فى جميع أنواع العبودية التى على القلب والجوارح، فمثلاً: علم العبد بتفرد الرب تعالى بالضر والنفع، والعطاء والمنع، والخلق والرزق، والإحياء والإماتة يثمر له

---

(١) انظر: مدارج السالكين: ٢ / ٤٢٠.

(٢) انظر: دراسات فى مباحث توحيد الأسماء والصفات للتميمى: ١٤ ، ١٥.

عبودية التوكل عليه باطناً، ولوازم التوكل وثمراته ظاهراً، وعلمه بسمعه تعالى وبصره وعلمه أنه لا يخفى عليه مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض، وأنه يعلم السر وأخفى، ويعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور، يثمر له حفظ لسانه وجوارحه وخطرات قلبه عن كل ما لا يرضى الله، وأن يجعل تعلق هذه الأعضاء بما يحبه الله ويرضاه، فيثمر له ذلك الحياء باطناً، ويثمر له الحياء اجتناب المحرمات والقبائح، ومعرفته بغناه وجوده وكرمه وبره، وإحسانه ورحمته توجب له سعة الرجاء، ويثمر له ذلك من أنواع العبودية الظاهرة والباطنة بحسب معرفته وعلمه (١).

وكذلك معرفته بجلال الله وعزه تثمر له الخضوع والاستكانة والمحبة، وتثمر له تلك الأحوال الباطنة أنواعاً من العبودية الظاهرة هى موجباتها، وكذلك علمه بكماله وجماله وصفاته العلى، وجب له محبة خاصة بمنزلة أنواع العبودية، فرجعت العبودية إلى مقتضى الأسماء والصفات وارتبطت بها (٢).

وهذه الأحوال التى تتصف بها القلوب: هى أكمل الأحوال وأجل وصف يتصف به القلب وينصبغ به، ولا يزال العبد يمرن نفسه عليها حتى تنجذب نفسه وروحه بدواعيه منقادة راغبة ،وبهذه الأعمال القلبية تكمل الأعمال البدنية فنسأل الله أن يملأ قلوبنا من معرفته ومحبته والإنابة إليه، فإنه أكرم الأكرمين، وأجود الأجودين (٣).

لكل صفة من صفات الله أثر فى قلب المؤمن:

وقد يظن بعض الذين يدعون العلم، وممن لا حظ لهم من علوم الشريعة، أن معرفة أسماء الله وصفاته لا تؤثر فى الإيمان بالله من حيث الزيادة والنقصان ولا تؤثر فى القلوب، ولذلك لا فائدة من معرفتها أو جهلها أو إثباتها أو إنكارها، وقد توسع فى هذا الجانب الفلاسفة الذين وصفوا الله تعالى بصفات من عند أنفسهم ، وأنكروا وجحدوا ما وصف الله به نفسه ووصفه به رسوله،

---

(١) انظر: مفتاح دار السعادة لابن القيم: ٢/ ٩٠ .

(٢) انظر: مفتاح دار السعادة لابن القيم: ٢/ ٩٠ .

(٣) انظر: القواعد الحسان للسعدى: ١٣٠ .

فانحرفوا عن منهج الوسطية ووقعوا فى الإفراط والتفريط ، وابتعدوا عن الصراط المستقيم ومنهج الاعتدال الذى بينه القرآن الكريم.

ومما لا ريب فيه ،أنه ليست هناك صفة لله فى القرآن أو فى السنة إلا وقد ساقها الله تعالى لحكمة ومنفعة وغاية، ولولا ذلك لما ساقها ولما ذكرها؛ لأن كلامه وكلام رسوله ينزه عن العبث واللغو والحشو. ومن ظن أن الله يحشو كلامه بما لا فائدة فى ذكره، أو لا غاية من ورائه أو لا أهمية له فقد اتهم الله بالنقص واللغو.

ولبيان أن لكل صفة من صفات الله أثراً فى قلب المؤمن، سنبين ذلك ببعض التفاصيل من حيث: إن لكل صفة فى القلب أثراً يتضح ذلك، ويخرج فى السلوك البشرى، فلا توجد صفة من صفات الله إلا ولها أثر وفائدة، وإنما الذى ينكر الأثر هم الجهلة والجاحدين، أما علماء أهل السنة والجماعة فبينوا ذلك الأمر بياناً أوضح من الشمس فى رابعة النهار.

أثر صفة العظمة:

وهذه الصفة مشتقة من اسمه تعالى: (العظيم)، والعظمة صفة من صفاته لا يقوم لها خلق، والمقصود :أن عظمة الله سبحانه لا يمكن أن يتصف بها أحد من خلقه، والله خلق بين الخلق عظمة يعظم بها بعضهم بعضاً، فمن الناس من يعظم المال، ومنهم من يعظم لفضل، ومنهم من يعظم لعلم، ومنهم من يعظم لسلطان، ومنهم من يعظم لجاه، وكل واحد من الخلق إنما يعظم لمعنى دون معنى، والله عز وجل يعظم فى الأحوال كلها، فينبغى لمن عرف حق عظمته سبحانه أن لا يتكلم بكلمة يكرهها الله، ولا يرتكب معصية لا يرضاها الله.

فإذا شعر العبد بعظمة الله خاف مولاه واتقاه، ورغب فى مرضاته سبحانه وتعالى، والحديث الدال على صفة العظمة قول رسول الله ﷺ: «**يقول تبارك وتعالى: العظمة إزارى، والكبرياء ردائى، فمن نازعنى واحداً منهما قذفته فى النار**»(١).

---

(١) أخرجه ابن ماجه، كتاب الزهد، باب البراءة من الكبر: ٢/١٣٩٧، رقم الحديث: ٤١٧٥ وصححه الألبانى.

أثر صفة يد الله :

ومن الصفات التى جحدتها قلوب النفاة وأنكرها الزنادقة قديماً، وصف الله نفسه سبحانه بأن له يدين، وهذا ما قد مدح الله به نفسه فى آيات كثيرة من كتابه وقد مدحه بها النبى ﷺ فى أحاديث كثيرة، وهى تدخل فى صفات الله الذاتية، وقد بين سبحانه فى الآيات والأحاديث عظمة عطائه وسعة فضله، وأن يده الكريمة جل وعلا دائمة العطاء والإنفاق ، وفى مجال قوته وجبروته وبطشه وكمال قدرته وبيان عظمته أن السموات والأرض يوم القيامة تكون بيمينه ﴿ **وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ** ﴾ [الزمر : ٦٧] .

ولا شك أن أثر الإيمان بهذه الصفة فى قلب المؤمن عظيم؛ لأنه يورث القلب المهابة لله والخوف منه وتعظيم أمره ، وشأنه وأنه الملك الذى قهر الملوك ، وأنه لا مفر من قبضته ، ولا ملجأ منه إلا إليه .

أثر اسم الله الحميد :

وهذا الاسم يتضمن لصفة الحمد بكل أنواعه ، فهى صفة ذاتية لله عز وجل لا تنفك عنه ، وتظهر آثارها باستمرار فى كل لحظة، ومعناها أنه سبحانه مستحق لكل أنواع الحمد ؛ لأنه المحمود فى ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله ، وليس ذلك لأحد سواه سبحانه ، كما يبدو لى أن العبد لا بد أن يسلك فى حياته سلوكا يحمد عليه ؛ لأن أعماله جميعاً يجب أن تكون خالصة للحميد ، ولو أن كل فرد تحرى أن يكون عمله حميداً لصلح أمر الناس فى الدنيا والآخرة ، ولاختفت المنازعات فيما بينهم والخصومات ولعاشوا إخوة فى الله متحابين (١) .

أثر اسم الله المهيمن :

ومن آثار هيمنته سبحانه أنه يملك أن يتصرف فى خلقه كيف يشاء؛ لأنه ملكهم والمالك من حقه أن يتصرف فى ملكه بكافة أنواع التصرف، من نماذج هذه التصرفات ما ذكره الله تنبيهاً وتذكيراً باستمرار وشمول هيمنته على خلقه

---

(١) انظر : مفهوم الأسماء والصفات مقال فى مجلة الجامعة الإسلامية العدد (٥٩) : ٧٠ .

سبحانه وتعالى (١).

قال تعالى : ﴿ قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَانَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (٦٣) قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ (٦٤) قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴾ [الأنعام : ٦٣– ٦٥] وإذا شعر القلب بهيمنة ربه عليه لجأ إليه وطلب العون منه؛ لدفع ضر أو جلب نفع ، والآيات فى هذا الباب كثيرة، وكذلك أحاديث رسول الله ﷺ .

أثر صفة العلو فى قلب العبد :

إذا أيقن العبد أن الله تعالى فوق السماء ، عال على عرشه بلا حصر ، ولا كيفية ، وأنه الآن فى صفاته كما كان فى قدمه ، كان لقلبه فى صلاته وتوجهه، ودعائه . ومن لا يعرف ربه بأنه فوق السماء على عرشه ، فإنه يبقى ضائعاً لا يعرف وجهة معبوده ، ولكن ربما عرفه بسمعه ، وبصره وقدمه وتلك بلا هذا معرفة ناقصة ، بخلاف من عرف أن إلهه الذى يعبده فوق الأشياء ، فإذا دخل فى الصلاة وكبر وتوجه قلبه إلى جهة العرش منزهاً له تعالى . مفردا له كما أفرده فى قدمه وألوهيته واعتقد أنه فى علوه قريب من خلقه ، وهو معهم بعلمه وسمعه وبصره وإحاطته وقدرته ومشيئته ، وذاته فوق الأشياء ، فوق العرش ، ومتى شعر قلبه بذلك فى الصلاة أشرق قلبه واستنار ، وأضاء بأنوار المعرفة والإيمان وعكفت أشعة العظمة على قلبه وروحه ، ونفسه ، فانشرح لذلك صدره ، وقوى إيمانه ، ونزه ربه عن صفات خلقه ، من الحصر والحلول و ذاق حينئذ شيئاً من أذواق السابقين المقربين (٢) .

أثر صفة السمع :

قال تعالى : ﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾ [المجادلة : ١] وعن عائشة رضى الله عنها

---

(١) انظر : مفهوم الأسماء والصفات مقال فى مجلة الجامعة الإسلامية العدد (٥٩) : ٧٠ .

(٢) انظر : النصيحة فى صفة الرب جل وعلا للواسطى : ٥٠ .

قالت : (الحمد لله وسع سمعه الأصوات ، لقد جاءت المجادلة إلى النبى ﷺ تكلمه وأنا فى ناحية البيت ، ما أسمع ما تقول ، فأنزل الله عز وجل ﴿ **قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِى تُجَادِلُكَ فِى زَوْجِهَا ..** ﴾ [المجادلة : ١] (١) .

أقول : لو أن دارس الأسماء والصفات ومدرسيها تأملوا ما دلت عليه هذه الصفات وأشعر المرء نفسه أنه مراقب فى جميع أحواله، وأن ما ينطق به لسانه يسمعه خالقه من فوق سبع سموات فى حينه، وأنه سيجازيه على ذلك لا نعكس على سلوكه وأخلاقه وأعماله وسيرته فى مجتمعه ، ولظهرت الأخلاق الربانية وأصبح الشخص لله وليا يمشى على وجه الأرض ، ولشعرنا أن الأخلاق الرفيعة ثمرة من ثمرات التوحيد . وبقدر ما يملك العبد من الإيمان والتوحيد ينعكس ذلك ويظهر على أخلاقه .

ولا بد أن نراعى قواعد السلف عند تأملنا وتفكرنا فى أسماء الله وصفاته التى تزيدنا إيمانا بالله العلى العظيم، ويعجبنى فى هذا المقام أن أكتب ما كان يقوله ويكرره شيخى الفاضل عبد المحسن العباد فى دروسه بالمدينة النبوية (المذهب الحق وسط بين الطرفين فى قضية الإثبات ، فلا نفى ولا تأويل ، وفيه التنزية فلا تشبيه ولا تمثيل ، وكل من المشبهة والنفاة جمعوا بين إساءة وإحسان) .

فالمشبهة : أحسنوا إذ أثبتوا فلم ينفوا الصفات ، وأساؤوا إذا شبهوا ومثلوا ، وأهل السنة والجماعة جمعوا بين الحسنيين وسلموا من الإساءتين فالإحسان الذى عند الطرفين عندهم ، وليس عندهم ما عند كل من الإساءة وذلك أنهم أثبتوا ما أثبت فى الكتاب والسنة من الصفات ، ونزهوا الله عن مشابهة خلقه ، وكما قال تعالى : ﴿ **لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَىْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ** ﴾ [الشورى : ١١] فأول الآية تنزيه وآخرها إثبات ، فمثل هذا المذهب الحق بالنسبة إلى الطرفين المتقابلين كاللبن السائغ للشاربين الذى يخرج من بين فرث ودم (٢) .

---

(١) البخارى مع الفتح ، كتاب التوحيد ، باب وكان الله سميعا بصيرا : ١٣ / ٣٨٤ .

(٢) عشرون حديثا من صحيح مسلم لعبد المحسن العباد : ١٧٧ ، ١٧٨ .

ثانياً: تدبر القرآن على وجه العموم:

فإن المتدبر لا يزال يستفيد من علوم القرآن ومعارفه، ما يزداد به إيماناً، كما قال تعالى: ﴿ **وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ** ﴾. [الأنفال: ٢] وكذلك إذا نظرنا إلى انتظامه، وإحكامه، وأنه يصدق بعضه بعضاً، ويوافق بعضه بعضاً، ليس فيه تناقض ولا اختلاف: تيقن أنه تنزيل من حكيم حميد ﴿ **لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ** ﴾. [فصلت: ٤٢] وأنه لو كان من عند غير الله، لوجد فيه - من التناقض والاختلاف - أمور كثيرة، قال تعالى: ﴿ **أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا** ﴾. [النساء: ٨٢] وهذا من أعظم مقويات الإيمان، ويقويه من وجوه كثيرة: فالمؤمن بمجرد ما يتلو آيات الله، ويعرف ما فيها من الأخبار الصادقة، والأحكام الحسنة - يحصل له من أمور الإيمان، خير كبير فكيف إذا أحسن تأمله، وفهم مقاصده وأسراره ؟! ولهذا كان المؤمنون الكمل يقولون: ﴿ **رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا** ﴾. [آل عمران: ١٩٣].

ثالثاً: معرفة أحاديث النبى ﷺ، وما تدعو إليه من علوم الإيمان وأعماله:

كلها من محصلات الإيمان ومقوياته، فكلما ازداد العبد معرفة بكتاب الله وسنة رسوله، ازداد إيمانه ويقينه، وقد يضل فى علمه وإيمانه إلى مرتبة اليقين، فقد وصف الله الراسخين فى العلم، الذين حصل لهم العلم التام القوى الذى يدفع الشبهات والريب، ويوجب اليقين التام؛ ولهذا كانوا سادة المؤمنين الذين استشهد الله بهم واحتج بهم على غيرهم من المرتابين والجاحدين، كما قال تعالى: ﴿ **هُوَ الَّذِى أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِى الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُوا الأَلْبَابِ** ﴾. [آل عمران: ٧].

فالراسخون زال عنهم الجهل والريب وأنواع الشبهات، وردوا المتشابه من

الآيات إلى المحكم منها، وقالوا: آمنا بالجميع، فكلها من عند الله، وما منه، وما تكلم به كله صدق وحق. وقال تعالى: ﴿ لَكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ ﴾ . [النساء: ١٦٢].

وقال تعالى: ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ . [آل عمران: ١٨] ولعلمهم بالقرآن العلم التام، وإيمانهم الصحيح استشهد بهم فى الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَٰذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ . [الروم: ٥٦] وأخبر تعالى فى عدة آيات، أن القرآن آيات للمؤمنين وآيات للموقنين؛ لأنه يحصل لهم بتلاوته وتدبره - من العلم واليقين والإيمان - بحسب ما فتح الله عليهم منه، فلا يزالون يزدادون علما وإيماناً ويقيناً (١).

رابعاً: ومن طرق موجبات الإيمان وأسبابه: معرفة النبى ﷺ ومعرفة ما هو عليه من الأخلاق العالية، والأوصاف الكاملة، فإن من عرفه حق المعرفة لم يرتب فى صدقه وصدق ما جاء به من الكتاب والسنة والدين الحق كما قال تعالى: ﴿ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ ﴾ . [المؤمنون: ٦٩].

فمعرفته ﷺ توجب للعبد المبادرة إلى الإيمان بما لم يؤمن به، وزيادة الإيمان بما آمن به. وقال تعالى حاثاً لهم على تدبر أحوال الرسول الداعية للإيمان: ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾ . [سبأ: ٤٦].

وأقسم تعالى بكمال هذا الرسول وعظمة أخلاقه، وأنه أكمل مخلوق بقوله: ﴿ نٓ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ① مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ② وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ③ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ . [القلم: ١ - ٤] فهو ﷺ أكبر داع للإيمان فى أوصافه الحميدة، وشمائله الجميلة، وأقواله الصادقة النافعة، وأفعاله الرشيدة فهو الإمام الأعظم، والقدوة الأكمل ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا ﴾ . [الحشر: ٧].

---

(١) انظر: التوضيح والبيان: ٤٢ - ٤٣.

وقد ذكر الله عن أولى الألباب الذين هم خواص الخلق أنهم قالوا: ﴿ رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلإِيمَانِ ﴾ وهو هذا الرسول الكريم ﴿ يُنَادِي لِلإِيمَانِ ﴾ بقوله وخلقه وعمله ودينه، وجميع أحواله ﴿ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا ﴾ . [آل عمران: ١٩٢] أى إيماناً لا يدخله ريب.

ولما كان هذا الإيمان من أعظم ما يقرب العبد إلى الله، ومن أعظم الوسائل التى يحبها الله - توسلوا بإيمانهم أن يكفر عنهم السيئات وينيلهم المطالب العاليات، فقالوا: ﴿ رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الأَبْرَارِ ﴾ . [آل عمران: ١٩٣].

ولهذا كان الرجل المنصف - الذى ليس له إرادة إلا اتباع الحق مجرد ما يراه ويسمع كلامه - يبادر إلى الإيمان به ﷺ، ولا يرتاب فى رسالته بل كثير منهم - مجرد ما يرى وجهه الكريم - يعرف أنه ليس بوجه كذاب وقيل لبعضهم: (لم بادرت إلى الإيمان بمحمد قبل أن تعرف رسالته ؟ فقال: ما أمر بشىء، فقال العقل، ليته نهى عنه ولا نهى عن شىء فقال العقل ليته أمر به) (١).

فاستدل هذا العاقل الموفق - بحسن شريعته، وموافقتها للعقول الصحيحة - على رسالته، فبادر إلى الإيمان به (٢) ؛ ولهذا استدل ملك الروم هرقل - لما وصف له ما جاء به الرسول، وما كان يأمر به، وما ينهى عنه - استدل بذلك أنه من أعظم الرسل، واعترف بذلك اعترافاً جلياً ولكن منعته الرئاسة وخشية زوال ملكه من اتباعه، كما منعت كثيراً ممن اتضح لهم أنه رسول الله حقاً، وهذا من أكبر موانع الإيمان فى حق أمثال هؤلاء، وأما أهل البصائر والعقول الصحيحة، فإنهم يرون هذه الموانع والرئاسات والشبهات والشهوات، ولا يرون لها قيمة: حتى يعارض بها الحق الصحيح النافع، المثمر للسعادة عاجلاً وآجلاً. ولهذا السبب الأعظم كان المعتنون بالقرآن حفظاً ومعرفة، والمعتنون بالأحاديث الصحيحة أعظم إيماناً ويقيناً من غيرهم، وأحسن عملا فى الغالب (٣).

(١ ، ٢) المرجع السابق: ٤٩ . (٣) شجرة الإيمان للسعدى: ٤٩ .

خامساً: ومن أسباب الإيمان ودواعيه التى بينها القرآن: التفكر فى الكون، فى خلق السموات والأرض وما فيهن من المخلوقات المتنوعة، والنظر فى نفس الإنسان، وما هو عليه من الصفات المتنوعة قال تعالى: ﴿ **إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُوْلِي الأَلْبَابِ** ﴾ . [آل عمران: ١٩٠]

وقال تعالى: ﴿ **وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ** ﴾ . [الذاريات: ٢١].

فإن التأمل والتفكر فى الكون والنفس وآيات الله المنظورة داع قوى للإيمان، لما فى هذه الموجدات من عظمة الخلق الدالة على قدرة خالقها وعظمته، وما فيها: من الحسن والانتظام، والإحكام الذى يحير الألباب، الدال على سعة علم الله، وشمول حكمته، وما فيها من أصناف المنافع والنعم الكثيرة التى لا تعد ولا تحصى، الدالة على سعة رحمة الله، وجوده وبره، وذلك كله يدعو إلى تعظيم مبدعها وبارئها وشكره، واللهج بذكره، وإخلاص الدين له وهذا هو روح الإيمان وسره (١) .

وإذا تأملنا فى مخلوقات الله كلها، نجدها مضطرة ومحتاجة إلى ربها من كل الوجوه، وأنها لا تستغنى عنه طرفة عين خصوصاً ما تشاهده فى نفسك من أدلة الافتقار وقوة الاضطرار، وذلك يوجد للعبد كمال الخضوع، وكثرة الدعاء والتضرع إلى الله: فى جلب ما يحتاجه من منافع دينه ودنياه، ودفع ما يضره فى دينه ودنياه، ويوجب له قوة التوكل على ربه، وكمال الثقة بوعده، وشدة الطمع فى بره وإحسانه، وبهذا يتحقق الإيمان، ويقوى التعبد فإن الدعاء مخ العبادة وأصلها (٢) قال تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ** ﴾ . [فاطر: ١٥] كذلك التفكر فى كثرة نعم الله وآلائه العامة والخاصة التى لا يخلو منها مخلوق طرفة عين فإن هذا يدعو إلى الإيمان.

ولهذا دعى الله الرسل والمؤمنين إلى شكره، فقال: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ** ﴾ . فالإيمان يدعو إلى الشكر،

(١، ٢) التوضيح والبيان: ٥١ .

والشكر ينمو به الإيمان فكل منها ملازم وملزوم للآخر.

سادساً: ومن أسباب دواعى الإيمان التى بينها القرآن: الإكثار من ذكر الله فى كل وقت، ومن الدعاء الذى هو مخ العبادة، فإن الذكر لله يغرس شجرة الإيمان فى القلب ويغذيها وينميها، وكلما ازداد العبد ذكراً لله قوى إيمانه، كما أن الإيمان يدعو إلى كثرة الذكر، فمن أحب الله أكثر من ذكره، ومحبة الله هى: الإيمان، بل هى روحه. قال تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً ...** ﴾. [الأحزاب: ٤١] ﴿ **لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ...** ﴾. [الأحزاب: ٢١].

سابعاً: ومن الأسباب الجالبة للإيمان التى بينها القرآن: السعى والاجتهاد فى تحقيق مقام الإحسان فى عبادة الله والإحسان إلى خلقه قال تعالى: ﴿ **وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ...** ﴾. [لقمان: ٢٢] وقال تعالى: ﴿ **وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا** ﴾ [البقرة: ٨٣].

فعلى العبد: أن يعبد الله كأنه يشاهده، فإن لم يقوى على هذا استحضر أن الله يشاهده ويراه، فيجتهد فى إكمال العمل وإتقانه ولا يزال يجاهد نفسه ليتحقق بهذا المقام العالى، حتى يقوى إيمانه ويقينه، ويصل فى ذلك إلى حق اليقين وطريق المحسنين، كما جاء فى القرآن بيان صفاتهم، قال تعالى: ﴿ **إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِى جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُوا قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِى أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ** ﴾. [الذاريات: ١٥] وقال تعالى: ﴿ **الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ** ﴾. [آل عمران: ١٣٤].

وبذلك يتضح لنا صفات المحسنين ويكون الإحسان إلى الخلق بالقول والفعل والمال والجاه، وأنواع المنافع هو من الإيمان، ومن دواعى زيادته، والجزاء من جنس العمل، فكما أحسن إلى عباد الله، وأوصل إليهم من بره ما يقدر عليه، أحسن الله إليه أنواعاً من الإحسان ومن أفضلها: أن يقوى إيمانه ورغبته فى فعل الخير،

والتقرب إلى ربه، وإخلاص العمل له (١).

ثامناً: ومن الأمور التى تقوى الإيمان وتزيده ما ذكره الله تعالى فى سورة المؤمنون من قوله: ﴿ **قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ** ﴾ إلى قوله: ﴿ **أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ** ﴾. [المؤمنون: ١ - ١١]

فهذه الصفات الثمان، كل واحدة منها تثمر الإيمان وتنميه، كما أنها من صفات الإيمان وداخلة فى تفسيره كما تقدم، فحضور القلب فى الصلاة، وكون المصلى يجاهد نفسه على استحضار ما يقوله ويفعله: من القراءة، والذكر، والدعاء فيها، ومن القيام والقعود، والركوع والسجود من أسباب زيادة الإيمان ونموه (٢).

وقد سمى الله تعالى الصلاة إيماناً بقوله: ﴿ **وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ** ﴾. [البقرة: ١٤٣] ﴿ **وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ...** ﴾ [العنكبوت: ٤٥] فحشاء ومنكر ينافى الإيمان، كما أنها تحتوى على ذكر الله الذى يغذى الإيمان وينميه، لقوله: ﴿ **وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ** ﴾. [العنكبوت: ٤٥] والزكاة كذلك تنمى الإيمان وتزيده فرضها ونفلها، وقد بين النبى ﷺ كونها برهان على إيمان صاحبها فهى تغذى الإيمان وتنميه، والإعراض عن اللغو الذى هو كل كلام لا خير فيه، وكل فعل لا خير فيه - بل يقولون الخير ويفعلونه، ويتركون الشر قولاً وفعلاً - لا شك أنه من الإيمان ويزداد به الإيمان ويثمر.

ولهذا كان الصحابة رضى الله عنهم ومن بعدهم، إذا وجدوا غفلة أو تشعث إيمانهم، يقول بعضهم لبعض: « **اجلس بنا نؤمن ساعة** » فيذكرون الله، ويذكرون نعمه الدينية والدنيوية، فيتجدد بذلك إيمانهم، وكذلك العفة عن الفواحش خصوصاً فاحشة الزنى، لا ريب أن هذا من أكبر علامات الإيمان ومنمياته.

فالمؤمن لخوفه مقامه بين يدى ربه، ﴿ **وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ** ﴾. [النازعات: ٤٠] إجابة لداعى الإيمان، وتغذية لما معه من الإيمان. ورعاية العهود والأمانات، وحفظها من علامات الإيمان، وإذا أردت أن تعرف إيمان العبد ودينه

(١، ٢) التوضيح والبيان: ٥٤.

فانظر حاله: هل يرعى الأمانات كلها مالية أو قولية، أو أمانات الحقوق ؟ وهل يرعى الحقوق والعهود والعقود التى بينه وبين الله، والتى بينه وبين العباد ؟ إذ لم يكن كذلك نقص من دينه وإيمانه بمقدار ما انتقص من ذلك. وختماً بالمحافظة على الصلوات على حدودها، وحقوقها؛ وأوقاتها ـ لأن المحافظة على ذلك بمنزلة الماء الذى يجرى فى بستان الإيمان فيسقيه وينميه ويؤتى أكله كل حين.

تاسعاً: ومن دواعى زيادة الإيمان وأسبابه: الدعوة إلى الله وإلى دينه والتواصى بالحق والتواصى بالصبر، والدعوة إلى أصل الدين، والدعوة إلى التزام شرائعه بالأمر بالمعروف، والنهى عن المنكر. وبذلك يكمل العبد بنفسه، ويكمل غيره كما أقسم تعالى بالعصر، أن جنس الإنسان لفى خسر إلا من اتصف بصفات أربع: الإيمان، والعمل الصالح اللذين بهما تكمل النفس، والتواصى بالحق ـ الذى هو العلم النافع والعمل الصالح والدين الحق، وبالصبر على ذلك كله، يكمل غيره.

وذلك: أن نفس الدعوة إلى الله والنصيحة لعباده، من أكبر مقومات الإيمان وصاحب الدعوة لابد أن يسعى بنصر هذه الدعوة، ويقيم الأدلة والبراهين على تحقيقها، ويأتى الأمور من أبوابها، ويتوصل إلى الأمور من طرقها، وهذه الأمور من طرق الإيمان وأبوابه (١) قال تعالى: ﴿ **وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّه وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٣٣) وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ (٣٤) وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (٣٥) وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ...** ﴾. [فصلت: ٣٣ ـ ٣٦] ومن حرص على نصح الناس ودعوتهم إلى دين الله لابد أن يجازيه الله ويؤيده بنور منه، وروح وإيمان وقوة توكل، فإن الإيمان وقوة التوكل على الله، يحصل بهما النصر على الأعداء من شياطين الإنس وشياطين الجن (٢) قال تعالى: ﴿ **إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ** ﴾. [النحل: ٩٩] والمتصدى لنصرة الحق، لابد أن يفتح

---

(١) التوضيح والبيان: ٥٨.
(٢) التوضيح والبيان: ٥٨.

عليه فيه من الفتوحات العلمية والإيمانية بمقدار صدقه وإخلاصه.

عاشراً: ومن أهم مواد الإيمان ومقوماته: توطين النفس على مقاومة ما ينافى الإيمان من شعب الكفر والنفاق، والفسوق والعصيان. فقد ذكر الله سبحانه وتعالى فى كتابه الأسباب المقوية المنمية للإيمان، ووضحها رسول الله ﷺ، كذلك بين المولى عز وجل الموانع والعوائق وأرشد إلى دفعها، وهى الإقلاع عن المعاصى، والتوبة مما يقع منها، وحفظ الجوارح كلها عن المحرمات، ومقاومة فتن الشبهات القادحة فى علوم الإيمان، المضعفة له، والشهوات المضعفة لإرادات الإيمان، فإن الإرادات التى أصلها الرغبة فى الخير ومحبته والسعى فيه، لا تتم إلا بترك إرادات ما ينافيها من رغبة النفس فى الشر، ومقاومة النفس الأمارة بالسوء. فمتى حفظ العبد من الوقوع فى فتن الشبهات، وفتن الشهوات تم إيمانه وقوى يقينه (١).

فالعبد المؤمن الموفق لا يزال يسعى فى أمرين: أحدهما: تحقيق أصول الإيمان وفروعه والتحقق بها علماً وعملاً وحالاً. والثانى: السعى فى دفع ما ينافيها وينقصها أو ينقصها من الفتن الظاهرة والباطنة، ويداوى ما قصر فيه من الأول، وما تجرأ عليه من الثانى بالتوبة النصوح، وتدارك الأمر قبل فواته (٢) قال تعالى: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ** ﴾. [الأعراف: ٢٠١] أى مبصرون الخلل الذى وقعوا فيه، والنقص الذى أصابهم من طائف الشيطان، الذى هو أعدى الأعداء للإنسان، فإذا أبصروا تداركوا هذا الخلل بسده، وهذا الفتق برتقه، فردوا إلى حالهم الكاملة، وعاد عدوهم حسيراً ذليلاً، وإخوان الشيطان ﴿ **يَمُدُّونَهُمْ فِى الْغَيِّ ثُمَّ لا يُقْصِرُونَ** ﴾. [الأعراف: ٢٩٢]. الشياطين لا تقصر عن إغوائهم وإيقاعهم فى أشراك الهلاك، والمستجيبون لهم لا يقصرون عن طاعة أعدائهم والاستجابة لدعوتهم حتى يقعوا فى الهلاك، ويحق عليهم الخسار وبعد هذا العرض الموجز لمفهوم الإيمان تبين أن ما جاء به القرآن

(١، ٢) المرجع السابق: ٦١.

ووضحه سيد الأنام ﷺ : هو الصراط المستقيم والاستقامة والاعتدال، بعيداً عن ما وقع فيه الملاحدة من الزور والبهتان، ووقع فيه الفلاسفة من تصورات خاطئة مريضة فى أسماء الله وصفاته وأفعاله وذاته.

لقد وقع الناس بين إفراط وتفريط وانكسار وغلو، فأكرم الله البشرية بهذا الكتاب العزيز الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ففى جانب الإيمان بالله تعالى جاء القرآن بالمنهج الوسط الذى تجسدت فيه ملامح الوسطية من حكمة واستقامة واعتدال وعدل وبينية.

وقبل الانتهاء من مبحث الإيمان وأسباب زيادته رأيت من باب الفائدة والحث على استيعاب وفهم هذا الموضوع المهم فى حياة الناس أن أتطرق إلى فوائد الإيمان وثمراته كما جاءت فى القرآن موضحاً الآثار والفوائد والثمرات العاجلة والآجلة فى القلب والبدن، والراحة والحياة الطيبة فى الدنيا والآخرة، وذكر القرآن الكريم لهذه الفوائد والثمار يرسم لنا الصورة اليانعة الحية فى وسطية القرآن فى قضية الإيمان.

ثالثاً: فوائد الإيمان وثمراته:

إن من حكمة الله الربانية :أن جعل قلوب عباده المؤمنين تحس وتتذوق وتشعر بثمرات الإيمان؛ لتندفع نحو مرضاته، والتوكل عليه سبحانه وتعالى، فإن شجرة الإيمان إذا ثبتت وقويت أصولها وتفرعت فروعها، وزهت أغصانها، وأينعت أفنانها عادت على صاحبها وعلى غيره بكل خير عاجل وآجل فى الدنيا والآخرة، وثمار الإيمان وثمراته وفوائده كثيرة قد بينها الله سبحانه وتعالى فى كتابه الكريم فمن أعظم هذه الفوائد والثمار:

أولاً: الاغتباط بولاية الله الخاصة، التى هى أعظم ما تنافس فيه المتنافسون، وتسابق فيه المتسابقون وأعظم ما حصل عليه المؤمنون، قال تعالى: ﴿ **أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ** ﴾ ثم وصفهم بقوله: ﴿ **الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ** ﴾. [يونس: ٦٢ ، ٦٣] فكل مؤمن تقي، فهو لله ولي ولاية خاصة، من ثمراتها ما قاله الله عنهم: ﴿ **اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ** ﴾ . [البقرة:٢٥٧]

أى يخرجهم من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان، ومن ظلمات الجهل إلى نور العلم، ومن ظلمات المعاصى إلى نور الطاعة ومن ظلمات الغفلة إلى نور اليقظة والذكر، وحاصل ذلك أنه يخرجهم من ظلمات الشرور المتنوعة إلى ما يرفعها من أنوار الخير العاجل والآجل. وإنما حازوا هذا العطاء الجزيل، بإيمانهم الصحيح، وتحقيقهم هذا الإيمان بالتقوى، فإن التقوى من تمام الإيمان.

ثانياً: الفوز برضا الله ودار كرامته قال تعالى: ﴿ **وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٧١) وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ** ﴾. [التوبة: ٧١، ٧٢] فنالوا رضا ربهم ورحمته، والفوز بهذه المساكن الطيبة بإيمانهم الذى كملوا به أنفسهم، وكملوا غيرهم بقيامهم بطاعة الله وطاعة رسوله، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، فاستولوا على أجل الوسائل، وأفضل الغايات وذلك فضل الله.

ثالثاً: ومن ثمرات الإيمان: أن الله يدافع عن المؤمنين جميع المردة، وينجيهم من الشدائد كما قال تعالى: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا** ﴾. [الحج: ٣٨] أى يدافع عنهم كل مكروه، يدافع عنهم شر شياطين الإنس وشياطين الجن، ويدافع عنهم الأعداء، ويدافع عنهم المكاره قبل نزولها ويرفعها أو يخفضها بعد نزولها، ولما ذكر تعالى ما وقع فيه يونس عليه السلام وأنه: ﴿ **فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَن لاَّ إِلَهَ إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ** ﴾. قال ﴿ **فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ** ﴾. [الأنبياء: ٨٧، ٨٨]. إذا وقعوا فى الشدائد، كما أنجينا يونس قال النبى ﷺ: « **دعوة أخى يونس ما دعا بها مكروب إلا فرج الله عنه كربته لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين** » وقال تعالى: ﴿ **وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا** ﴾. [الطلاق: ٤].

فالمؤمن المتقى ييسر الله له أمره وييسره لليسرى، ويجنبه العسرى، ويسهل

عليه الصعاب ويجعل له من كل هم فرجاً، ومن كل ضيق مخرجاً، ويرزقه من حيث لا يحتسب، وشواهد هذا كثيرة من الكتاب والسنة (١).

رابعاً: ومنها أن الإيمان والعمل الصالح الذى هو فرعه يثمر الحياة الطيبة فى هذه الدار، وفى دار القرار قال تعالى: ﴿ **مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** ﴾ . [النحل: ٩٧].

ذلك أن من خصائص الإيمان، أنه يثمر طمأنينة القلب وراحته وقناعته بما رزق الله، وعدم تعلقه بغيره، وهذه هى الحياة الطيبة، فإن أصل القلب الحياة الطيبة راحة القلب وطمأنينته، وعدم تشوشه مما يتشوش منه الفاقد للإيمان الصحيح.

خامساً: ومنها: أن جميع الأعمال والأقوال إنما تصح وتكمل بحسب ما يقوم بقلب صاحبها من الإيمان والاخلاص؛ ولهذا يذكر الله هذا الشرط الذى هو أساس كل عمل، مثل قوله: ﴿ **فَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ** ﴾. [الانبياء: ٩٤] أى لا يجحد سعيه ولا يضيع عمله، بل يضاعف بحسب قوة إيمانه وقال تعالى: ﴿ **وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا** ﴾. [الإسراء: ١٩] والسعى للآخرة هو العمل بكل ما يقرب إليها، ويدنى منها من الأعمال التى شرعها الله على لسان نبيه محمد ﷺ فإذا تأسست على الإيمان، ونبتت عليه كان السعى مشكوراً مقبولاً مضاعفاً، لا يضيع منه مثقال ذرة. وأما إذا فقد العمل الإيمان، فلو استغرق العامل ليله ونهاره فإنه غير مقبول قال تعالى: ﴿ **وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا** ﴾. الفرقان: ٢٣] وذلك لأنها أسست على غير الإيمان بالله ورسوله الذى روحه الإخلاص للمعبود والمتابعة للرسول. قال تعالى: ﴿ **قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا (١٠٣) الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا (١٠٤) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا** ﴾. [الكهف: ١٠٣ - ١٠٥] فهم لما فقدوا الإيمان، وحل محله الكفر بالله وآياته

---

(١) التوضيح والبيان: ٦٧.

حبطت أعمالهم، قال تعالى: ﴿ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ ﴾ . [الزمر: ٦٥] ﴿ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [الأنعام: ٨٨].

ولهذا كانت الردة عن الإيمان تحبط جميع الأعمال الصالحة، كما أن الدخول فى الإسلام والإيمان يجب ما قبله، من السيئات وإن عظمت، والتوبة من الذنوب المنافية للإيمان، والقادحة فيه والمنفقة له تجب ما قبلها(١).

سادساً: ومن ثمرات الإيمان: أن صاحب الإيمان يهديه الله إلى الصراط المستقيم ويهديه إلى علم الحق، وإلى العمل به، وإلى تلقى المحاب بالشكر، وتلقى المكاره والمصائب بالرضا والصبر قال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ ﴾ . [يونس: ١٠] وقال تعالى: ﴿ مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَن يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ ﴾ . [التغابن: ١١].

ذكر الشوكانى(٢) رحمه الله فى تفسير هذه الآية: (هو الرجل تصيبه المصيبة، فيعلم أنها من عند الله، فيرضى ويسلم. ولو لم يكن من ثمرات الإيمان، إلا أنه يسلى صاحبه عن المصائب والمكاره التى كل أحد عرضة لها فى كل وقت، ومصاحبة الإيمان واليقين أعظم مسل عنها، ومهون لها وذلك لقوة إيمانه وقوة توكله، ولقوة رجائه بثواب ربه، وطمعه فى فضله فحلاوة الأجر تخفيف مرارة الصبر، قال تعالى: ﴿ إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لا يَرْجُونَ ﴾ (٣) [النساء: ١٠٤] .

سابعاً: ومن ثمرات الإيمان ولوازمه وفوائده وخياراته من الأعمال الصالحة ما ذكره الله بقوله: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا ﴾. [مريم: ٩٦] أى بسبب إيمانهم وأعمال الإيمان يحبهم الله ويجعل لهم المحبة فى قلوب المؤمنين، ومن أحبه الله وأحبه المؤمنون من عباده حصلت له السعادة والفلاح

---

(١) المرجع السابق: ٧٥ .

(٢) هو الإمام محمد بن على الشوكانى ثم الصنعانى القاضى محدث وفقيه وأصولى ومفسر، واسم تفسيره فتح القدير توفى ١٢٥٠ هـ، انظر مناهج المفسرين: ٥٠.

(٣) فتح القدير للشوكانى: ٥/ ٢٣١.

والفوائد الكثيرة من محبة المؤمنين من الثناء والدعاء له حياً وميتاً، والاقتداء به، وحصول الإمامة فى الدين (١).

وهذه أيضاً من أجل ثمرات الإيمان: أن يجعل الله للمؤمنين الذين كملوا إيمانهم بالعلم والعمل لسان صدق ويجعلهم أئمة يهتدون بأمره كما قال تعالى: ﴿ **وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ** ﴾ . [السجدة: ٢٤] فبالصبر واليقين اللذين هما رأس الإيمان وكماله نالوا الإمامة فى الدين (٢).

ثامناً: ومنها قوله تعالى: ﴿ **يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ** ﴾ . [المجادلة: ١١] فهم أعلى الخلق درجة عند الله وعند عباده فى الدنيا والآخرة، وإنما نالوا هذه الرفعة، بإيمانهم الصحيح وعلمهم ويقينهم، والعلم واليقين من أصول الإيمان.

تاسعاً: ومن ثمرات الإيمان: حصول البشارة بكرامة الله، والأمن التام من جميع الوجوه، كما قال تعالى: ﴿ **وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ** ﴾ . [البقرة: ٢٢٣] فأطلقها ليعم الخير العاجل والآجل، وقيدها فى مثل قوله تعالى: ﴿ **وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ** ﴾ . [البقرة: ٢٥] فلهم البشارة المطلقة والمقيدة، ولهم الأمن المطلق فى مثل قوله تعالى: ﴿ **الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ** ﴾ . [الأنعام: ٨٢] ولهم الأمن المقيد فى مثل قوله تعالى: ﴿ **فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ** ﴾ . [الأنعام: ٤٨] فنفى عنهم الخوف لما يستقبلونه، والحزن مما مضى عليهم، وبذلك يتم لهم الأمن.

فالمؤمن له الأمن التام فى الدنيا والآخرة: أمن من سخط الله وعقابه، وأمن من جميع المكاره والشرور وله البشارة الكاملة بكل خير، كما قال تعالى: ﴿ **لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ** ﴾ . [يونس: ٦٤] .

ويوضح هذه البشارة قوله تعالى: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ**

---

(١) التوضيح والبيان: ٧٦

(٢) التوضيح والبيان: ٧٦

عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلاَّ تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ (٣٠) نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ (٣١) نُزُلاً مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴾ . [فصلت : ٣٠ - ٣٢].

وقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ . [الحديد :٢٨] فرتب على الإيمان حصول الثواب المضاعف، وكمال النور الذى يمشى به العبد فى حياته، ويمشى به يوم القيامة : . ﴿ يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ﴾ [الحديد : ١٢] .

فالمؤمن من يمشى فى الدنيا بنور علمه وإيمانه، وإذا طفئت الأنوار يوم القيامة مشى بنوره على الصراط حتى يجوز به إلى دار الكرامة والنعيم، وكذلك رتب المغفرة على الإيمان، ومن غفرت سيئاته سلم من العقاب، ونال أعظم الثواب(١) .

عاشراً : ومن ثمرات الإيمان : حصول الفلاح الذى هو إدراك غاية الغايات، فإنه إدراك كل مطلوب، والسلامة من كل مرهوب والهدى الذى هو أشرف الوسائل، كما قال تعالى بعد ذكره المؤمنين بما أنزل على محمد ﷺ وما أنزل على من قبله، والإيمان بالغيب، وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة اللتين هما من أعظم آثار الإيمان قال تعالى : ﴿ أُولَئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ . [البقرة : ٥].

فهذا هو الهدى التام والفلاح الكامل، فلا سبيل إلى الهدى والفلاح اللذين لا صلاح ولا سعادة إلا بهما إلا بالإيمان التام بكل كتاب أنزله الله، وبكل رسول أرسله الله فالهدى أجل الوسائل، والفلاح أكمل الغايات (٢) .

الحادى عشر : ومن ثمرات الإيمان : الانتفاع بالمواعظ والتذكير بالآيات قال تعالى : ﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ . [الذاريات : ٥٥] ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ . [الحجر : ٧٧].

وهذا لأن الإيمان يحمل صاحبه على التزام الحق واتباعه، علماً وعملاً وكذلك

(١ ، ٢) المرجع السابق : ٧٩ ، ٨٠ .

معه الآلة العظيمة ،والاستعداد لتلقى المواعظ النافعة والآيات الدالة على الحق، وليس عنده مانع يمنعه من قبول الحق، ولا من العمل به.

وأيضاً: فالإيمان يوجب سلامة الفطرة، وحسن القصد، ومن كان كذلك انتفع بالآيات، ومن لم يكن كذلك فلا يستغرب عدم قبوله للحق واتباعه له، ولهذا يذكر الله - فى سياق تمنع الكافرين من تصديق الرسول ﷺ وقبوله الحق الذى جاء به - السبب الذى أوجب لهم ذلك وهو الكفر الذى فى قلوبهم، يعنى لأن الحق واضح وآياته بينة واضحة والكفر أعظم مانع يمنع من اتباعه، أى فلا تستغربوا هذه الحالة، فإنها لم تزل دأب كل كافر (١).

الثانى عشر: ومنها أن الإيمان يقطع الشكوك التى تعرض لكثير من الناس فتضر بدينهم، قال تعالى: ﴿ **إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا...** ﴾ [الحجرات: ١٥] أى دفع الإيمان الصحيح الذى معه الريب والشك الموجود، وإزالته بالكلية، وقاوم الشكوك التى تلقيها شياطين الإنس والجن، والنفوس الأمارة بالسوء فليس لهذه العلل المهلكة دواء إلا تحقيق الإيمان. ولهذا ثبت فى الحديث الصحيح عن أبى هريرة عن النبى ﷺ: « **لا يزال الناس يسألون حتى يقال: هذا الله خلق الخلق، فمن خلق الله ؟ فمن وجد ذلك فليقل: رآمنت بالله** » (٢) وفى رواية: « **فليستعذ بالله ولينته** » (٣).

وبهذا بين ﷺ الدواء النافع لهذا الداء المهلك وهو ثلاثة أشياء: الانتهاء عن هذه الوساوس الشيطانية، والاستعاذة من شر من ألقاها وشبه بها ليضل بها العباد، والاعتصام بعصمة الإيمان الصحيح الذى من اعتصم به كان من الآمنين. وذلك لأن الباطل يتضح بطلانه بأمور كثيرة أعظمها: العلم أنه منافى للحق، وكل ما نقض الحق فهو باطل ﴿ **فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلاَّ الضَّلاَلُ** ﴾ . [يونس: ٣٢].

الثالث عشر: ومنها: أن الإيمان ملجأ المؤمنين فى كل ما يلم بهم، من سرور وحزن وخوف وأمن، وطاعة ومعصية، وغير ذلك من الأمور التى لابد لكل أحد منها، فيلجؤون إلى الإيمان عند الخوف فيطمئنون إليه ويزيدهم إيماناً

---

(١) انظر: التوضيح والبيان: ٨١.

(٢) رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان الوسوسة فى الإيمان: ١/ ١١٩.

(٣) المرجع السابق: ١/ ١٢٠.

وثباتاً، وقوة وشجاعة ويضمحل الخوف الذى أصابهم كما قال تعالى عن خيار الخلق: ﴿ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ (١٧٣) فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ ﴾ [آل عمران: ١٧٣، ١٧٤].

لقد اضمحل الخوف من قلوب هؤلاء الأخيار، وخلفه قوة الإيمان وحلاوته وقوة التوكل على الله، والثقة بوعده، ويلجؤون إلى الإيمان عند الطاعة والتوفيق للأعمال الصالحة، فيعترفون بنعمة الله عليهم بها، وأن نعمته عليهم فيها أعظم من نعم العافية والرزق، وكذلك يحرصون على تكميلها، وعمل كل سبب لقبولها وعدم ردها أو نقصها، ويسألون الذى تفضل عليهم بالتوفيق لها، أن يتم عليهم نعمته بقبولها، والذى تفضل عليهم بحصول أصلها، أن يتم لهم منها ما انتقصوه منها: ﴿ أُولَٰئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ ﴾ . [المؤمنون: ٦١] ويلجؤون إلى الإيمان إذا ابتلوا بشىء من المعاصى بالمبادرة إلى التوبة منها، وعمل ما يقدرون عليه من الحسنات لجبر نقصها قال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴾ . [الأعراف: ٢٠١].

فالمؤمنون فى جميع تقلباتهم وتصرفاتهم ملجؤهم إلى الإيمان، ومفزعهم إلى تحقيقه ودفع ما ينافيه ويضاده، وذلك من فضل الله عليهم ومنه [١]، وخوفا من الإطالة نقتصر على هذه الثمرات العظيمة التى بينها المولى عز وجل وبذلك نستيقن أن كتاب الله جاء تبياناً لكل شىء، وعرض قضية الإيمان من جوانبها المتعددة النافعة للناس، وبين وسائل زيادة الإيمان ورغبنا فيه، بذكر فوائده وثماره بحكمة بالغة تليق بالحكيم العليم جل وعلا.

وبين المولى عز وجل فى كتابه حقيقة الإيمان بأنه: اعتقاد بالجنان، ونطق باللسان، وعمل بالأركان ووضعنا على الصراط المستقيم وسلمت عقول المسلمين وقلوبهم من أمراض التعطيل والتشبيه، والافراط والتفريط، ووقع أهل البدع فى الانحراف عن جادة الصواب، وطريق أهل الاستقامة؛ لأنهم ابتعدوا عن كتاب الله وسنة رسوله وفهم الصحابة والتابعين لهم بإحسان من علماء وفقهاء ومحدثين.

---

(١) التوضيح والبيان: ٨٥

الفصل الثالث

الملائكـــــة

الفصل الثالث
الملائكة

تمهيد: إن الإيمان بالملائكة أصل من أصول الاعتقاد، لا يتم الإيمان إلا به، والملائكة من عوالم الغيب التى امتدح الله المؤمنين بها، تصديقا لخبر الله سبحانه وإخبار رسوله ﷺ، وقد بين الله سبحانه وتعالى فى كتابه وسنة نبيه هذا الموضوع بحيث أصبح - عند الاطلاع على هذه النصوص - الإيمان بها واضحاً، وليس فكرة غامضة، وهذا ما يعمق الإيمان ويرسخه، فإن المعرفة التفصيلية أقوى وأثبت من المعرفة الإجمالية.

وبين الله سبحانه وتعالى الانحراف الذى وقع فيه الناس فى اعتقادهم فى الملائكة منذ القديم، فهناك من عبدهم، وهناك من ظن أنهم بنات الله، وأما الفلاسفة فإنهم يرون أن الملائكة هم الأفلاك التى نراها فى الفضاء، وبعضهم أنكر وجودها، وأما اليهود فعادوا بعضهم ووصفوا الملائكة بأنهم يشربون ويأكلون (١).

كما ذكرت التوراة المحرفة فى سفر التكوين وبعض أسفارهم أن الملائكة لا تأكل ولا تشرب، واضطرب أمرهم فى هذا الشأن، واستزلهم الشيطان.

وتصور التوراة جبرئيل عليه السلام بأنه شيطان - لعنة الله على اليهود - يصنع الغواية، يغوى الأنبياء ؟

قالت التوراة المحرفة :(قد رأيت الرب جالساً على كرسيه، وكل جند السماء وقوف لديه، عن يمينه وعن يساره فقال الرب : من يغوى آخاب فيصعد ويسقط فى رامون جلعاد، فقال هذا هكذا وقال ذاك هكذا، ثم خرج الروح - يعنى - جبريل ووقف أمام الرب وقال أنا أغويه، وقال له الرب : بماذا ؟ فقال : أخرج وأكون روح كذب فى أفواه جميع أنبيائه فقال : إنك تغويه وتقتدر ؟ فاخرج وافعل هكذا) (٢).

---

(١) سفر التكوين : الإصحاح ١٨ الفقرات : ١ - ٨ .

(٢) الإسلام فى مواجهة الاستشراق، عبد العظيم المطعنى : ١٩٥ .

يا سبحان الله يجعلون جبريل روح كذب فى أفواه جميع أنبياء أخاب والرب يشجعه على ذلك ؟! وبذلك اتضحت مسالك الناس فى اعتقادهم فى الملائكة بين منكر لها وهم الملاحدة، وبين متصور لها بأفلاك وأوهام وهم الفلاسفة، وبين زاعم بأنها بنات الله وعبدوها من دون الله وهم مشركو العرب.

وجاء القرآن ليبين منهج الوسطية فى هذا الركن من العقائد بما ينفع الناس ويدلهم على الصراط المستقيم الذى هو الوسطية فى هذا الدين، وجاء القرآن الكريم موضحاً ما ينفع الناس ويصحح تصوراتهم وأفكارهم ومعتقدهم فى قضايا الاعتقاد وغيرها .

إن المسلم يعتقد اعتقاداً جازماً بأن لله ملائكة موجودين مخلوقين من نور، وأنهم ﴿ **لاَّ يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ** ﴾، وأنهم قائمون بوظائفهم التى أمرهم الله بالقيام بها. ولا يصلح إيمان عبد حتى يؤمن بوجودهم، وبما ورد فى حقهم من صفات وأعمال فى كتاب الله سبحانه، وسنه رسوله ﷺ من غير زيادة ولا نقصان، ولا تحريف (٢).

قال تعالى : ﴿ **آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ** ﴾ . [البقرة: ٢٨٥] وفى الحديث الصحيح عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه عندما سأل جبريل عليه السلام عن الإيمان قال ﷺ : «**أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره**» (٣).

فوجود الملائكة ثابت بالدليل القطعى الذى لا يمكن أن يلحقه أدنى شك، ومن هنا كان إنكار وجودهم كفراً بنص القرآن العظيم، فقد قال عز وجل: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنزَلَ مِن قَبْلُ وَمَن يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً بَعِيدًا** ﴾ . [النساء: ١٣٦].

---

(١) انظر: الإيمان لمحمد نعيم ياسين: ٤٨ .

(٢) انظر: البخارى مع الفتح، كتاب الإيمان، باب سؤال جبريل: ١ / ١٤٠ .

والذى يجمع الآيات القرآنية، والأحاديث النبوية، التى تكلمت عن الملائكة، وأوصافهم وأعمالهم وأحوالهم، يلاحظ: أنها تناولت فى الغالب ما بين علاقتهم بالخالق سبحانه وبالكون، والإنسان، فعرفنا سبحانه من ذلك على ما ينفعنا فى تطهير عقيدتنا، وتزكية قلوبنا وتصحيح أعمالنا.

وأما حقيقة الملائكة، وكيف خلقهم، وتفصيلات أحوالهم، فقد استأثر سبحانه بها، وهذا من وسطية القرآن وحكمة الرحمان حيث سبحانه وتعالى يعرف الناس فى حدود ما يحتاجون إليه، ويصلح أحوالهم فى المعاش والمعاد، وما تطيقه عقولهم، فالله سبحانه وتعالى لم يطلعنا على جميع المغيبات، سواء منها ما تعلق بجلاله وصفاته وأسمائه، وما تعلق بمخلوقاته الغيبية، والمؤمن الصادق يقر بكل ما أخبر به الخالق مجملاً أو مفصلاً، ولا يزيد على ذلك، ولا ينقص منه، ولا يتكلف البحث عن ما لا ينفعه ولا يخوض فيه (١).

(١) الإيمان: لمحمد نعيم ياسين: ٤٧.

المبحث الأول
صفات الملائكة الخلقية

إن الخالق عز وجل لم يخبرنا من صفاتهم الخلقية إلا النزر القليل، فأخبرنا سبحانه أنهم خلقوا قبل آدم، إذ ورد فى القرآن أن الله أخبرهم بأنه سيخلق الإنسان، ويجعله فى الأرض. قال تعالى: ﴿ **وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ** ﴾ . (البقرة: ٣٠).

وأما المادة التى خلقوا منها، فقد أخبرنا الرسول ﷺ أن الله خلقهم من نور فقد أخرج مسلم عن عائشة رضى الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: « **خلقت الملائكة من نور وخلق الجان من مارج من نار، وخلق آدم مما وصف لكم** » (١).

وتدل النصوص فى مجموعها على أن الملائكة مخلوقات نورانية ليس لها جسم مادى يدرك بالحواس الإنسانية، وأنهم ليسوا كالبشر فلا يأكلون، ولا يشربون، ولا ينامون، ولا يتزاوجون، مطهرون من الشهوات الحيوانية، ومنزهون عن الآثام والخطايا، ولا يتصفون بشىء من الصفات المادية، التى يتصف بها ابن آدم (٢).

أ ـ لهم القدرة على التشكل:

غير أن لهم القدرة على أن يتمثلوا بصور البشر، بإذن الله تعالى كما أخبر الله عز وجل عن جبريل عليه السلام أنه جاء مريم فى صورة بشرية، فقال تعالى: ﴿ **وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا (١٦) فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا** ﴾ . [مريم: ١٦ ، ١٧].

وفى حديث جبريل المشهور، حين جاء يعلم الصحابة معنى الإسلام، والإيمان، والإحسان، وأشراط الساعة، ذكر عمر بن الخطاب رضي الله عنه، أنه جاء على

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب الزهد والرقائق، باب أحاديث متفرقة: ٤ / ٢٢٩٤

(٢) شرح ملا على القارى على الفقه الاكبر: ١١.

هيئة رجل شديد بياض الثياب، شديد سواد الشعر، لا يرى عليه أثر السفر، وأنه جلس إلى النبى ﷺ فأسند ركبتيه إلى ركبتيه ووضع كفيه على فخذيه ثم شرع فى السؤال (١).

ب ـ لهم أجنحة:

ومن صفاتهم الخلقية التى أخبرنا الله بها أنه جعل لهم أجنحة يتفاوتون فى أعدادها، فقال سبحانه: ﴿ **الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً أُوْلِى أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِى الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ** ﴾ . [فاطر: ١] هذا ما أخبرنا به الله عز وجل عن الملائكة من حيث خلقتها، ونؤمن به كما جاء، ولا نسأل عن غيره ولو كان فى التفصيل نفع لعباد الله لما حجب عنهم معرفته، فهو اللطيف الرحيم بهم، يعلمهم الحق والخير وهذا من حكمة القرآن وهدايته إلى الصراط المستقيم ووسطيته فى الأمور.

(١) انظر: البخارى مع الفتح، كتاب الإيمان، باب سؤال جبريل: ٢/ ١٤ .

المبحث الثانى
علاقتهم مع الله والإنسان، والكون، وعددهم

أ ـ علاقتهم مع الله :

فهى علاقة العبودية الخالصة، والطاعة والامتثال، والخضوع المطلق لأوامره عز وجل، لا ينتسبون إليه سبحانه إلا بهذه النسبة، فهم ليسوا آلهة من دونه سبحانه، ولا ذرية له ولا بنات كما قال المشركون من قبل، قال تعالى : ﴿ **وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ (٢٦) لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ (٢٧) يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ** ﴾ . [الأنبياء : ٢٦ ـ ٢٨] وقال تعالى : ﴿ **يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ** ﴾ . [النحل : ٥٠] وقال تعالى : ﴿ **لاَّ يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ** ﴾ . [التحريم : ٦] .

فهم خلق من مخلوقات الله الكثيرة، يطيعونه سبحانه ولا يقدرون على شىء من تلقاء أنفسهم، وهم لا يستطيعون أن يقترحوا على الله شيئاً بفضل قوتهم، وهم منقطعون دائماً لعبادة الله وطاعة أمره. قال تعالى : ﴿ **وَمَا مِنَّا إِلاَّ لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ (١٦٤) وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ (١٦٥) وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ** ﴾ . [الصافات : ١٦٤ ـ ١٦٦] .

وإذا كانت هذه حقيقة أمرهم فقد انحرف عن الصراط المستقيم ووقع فى الشرك بالله من عبد أو استعان بالملائكة أو اعتقد أن لهم من الأمر شىء قال تعالى : ﴿ **وَلا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا الْمَلائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ** ﴾ . [آل عمران : ٨٠] .

ب ـ علاقة الملائكة بالكون والإنسان :

دل الكتاب والسنة على أصناف الملائكة، وأنها موكلة بأصناف المخلوقات، وأنه سبحانه، وكل بالشمس والقمر ملائكة، وبالأفلاك ملائكة، وبالجبال ملائكة، وبالسحاب ملائكة، وبالمطر ملائكة، وبالرحم ملائكة تدبر أمر النطفة حتى يتم خلقها، وبالموت ملائكة ووكل بكل عبد ملائكة يحفظونه، ووكل بكل

مخلوق، وبكل حوادث الكون وظواهره ملائكة (١).

وهذا لا ينافى ما يلاحظ فى الكون من قوانين وأسباب يرتبط بعضها ببعض، لأن هذه القوانين والأسباب إنما هى مخلوقات من مخلوقات الله، والملائكة موكلة بها أيضاً، وموكلة برعايتها، كما ترعى المخلوقات الأخرى، ولولا إرادة الله فى هذه الأسباب والقوانين، ولولا قدرته فى تسخير الملائكة للحفاظ عليها، فإن العقل لا يستلزم أبداً بقاءها على هذه الآماد الطويلة فى انتظامها وتناسقها (٢).

وأما الإنسان فيدخل بحياته الفطرية فى تلك الرعاية التى وكل الله سبحانه الملائكة بها؛ لأنه مخلوق من مخلوقات الله فى الكون بل هو المخلوق الذى سخر الله له ما فى الكون كله، قال تعالى: ﴿ **أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلا هُدًى وَلا كِتَابٍ مُّنِيرٍ** ﴾. [لقمان: ٢٠].

وفوق هذا فإن للملائكة أعمالاً أخرى فى حياة الإنسان الإرادية هدفها - كما حده الله لهم - هداية البشر، وإسعادهم، ومساعدتهم على عبادة الله، وعونهم على اختيار الهدى والصلاح، واجتناب الشر والفساد والضلال:

فهم الذين اختارهم رب العالمين لإيصال هداه إلى أهل الأرض عن طريق رسله الكرام والملك المختار لهذه المهمة: هو جبريل عليه السلام، قال تعالى: ﴿ **وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٩٢) نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ (١٩٣) عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ** ﴾. [الشعراء: ١٩٢ - ١٩٤].

كما أخبرنا عز وجل أنه سخرهم للدعاء للمؤمنين والاستغفار لهم، فقال سبحانه: ﴿ **الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ (٧) رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٨) وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَن تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَٰلِكَ**

---

(١) الإيمان لمحمد نعيم ياسين: ٥٥. (٢) الإيمان لمحمد نعيم ياسين: ٥٥.

هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ . [غافر: ٧ - ٩] .

وهم يشجعون العبد على طاعة ربه، وعبادته ويحثونه بالذكر والقرآن، ويحثونه على العلم والخير، ويحضرون صلاته وقراءته وفى ذلك كله أحاديث صحيحة .

وهم أيضا يثبتون العبد على العمل الصالح، وخاصة الجهاد فى سبيل الله تعالى، كما قال تعالى : ﴿ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴾ الأنفال : ١٢] .

ومن أعمالهم التى أخبرنا عنها رب العالمين مما له أثر عظيم فى تقويم حياة العبد وحفظهم من المعصية والشر، ما وكل إليهم من مراقبة أعمال العباد وكتابتها بعد إحصائها، فقال سبحانه وتعالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾ ﴾ . [ق : ١٦ - ١٨] وقال تعالى : ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَاتِبِينَ ﴾ . [الانفطار : ١١ - ١٢] وقال تعالى : ﴿ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴾ . [الزخرف : ٨٠] .

وقد وجدت كلاماً نفيساً جامعاً لابن القيم فى كتابه (إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان) عن علاقة الملائكة بالإنسان . فقال : (والملائكة الموكلة بالإنسان من حين كونه نطفة إلى آخر أمره، لهم وله شأن آخر : فإنهم موكلون بتخليقه ونقله من طور إلى طور، وتصويره وحفظه فى أطباق الظلمات الثلاث، وكتابة رزقه وعمله، وأجله وشقاوته، وسعادته وملازمته فى جميع أحواله، وإحصاء أقواله وأفعاله وحفظه فى حياته، وقبض روحه عند وفاته، وعرضها على خالقه وفاطره، وهم الموكلون بعذابه ونعيمه فى البرزخ، وبعد البعث، وهم الموكلون بعمل آلات النعيم والعذاب، وهم المثبتون للعبد المؤمن له ما ينفعه، والمقاتلون الذابون عنه، وهم أولياؤه فى الدنيا والآخرة، وهم الذين يعدونه بالخير ويدعونه

إليه، وينهونه عن الشر، يحذرونه منه فهم أولياؤه وأنصاره، وحفظته ومعلموه، وناصحوه، والداعون له، والمستغفرون له، وهم الذين يصلون عليه مادام فى طاعة ربه، ويصلون عليه ما دام يعلم الناس الخير، ويبشرونه بكرامة الله فى منامه وعند موته ويوم بعثه، وهم الذين يزهدونه فى الدنيا ويرغبونه فى الآخرة، وهم الذين يذكرونه إذا نسى وينشطونه إذا كسل، ويثبتونه إذا جزع، وهم الذين يسعون فى مصالح دنياه وآخرته، فهم رسل الله فى خلقه وأمره، وسفراؤه بينه وبين عباده تتنزل بالأمر من عنده فى أقطار العالم وتصعد إليه بالأمر). (١)

وكل الذى قال ابن القيم رحمه الله، استنبطه من كتاب الله وما صح من الأحاديث عن رسول الله ﷺ.

جـ- عدد الملائكة:

وهم كثر، لا يحصى عددهم إلا الله، قال تعالى: ﴿ **وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلاَّ مَلائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلاَّ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا وَلا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلاً كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ وَمَا هِيَ إِلاَّ ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ** ﴾. [المدثر: ٣١].

وهكذا منهج القرآن فى بيان حقيقة الملائكة، فيه ملامح الوسطية بعيداً عن الغلو والافراط، والتفريط والمطلوب من المؤمن أن يؤمن بالملائكة إيماناً تفصيلياً وإجمالياً، فيجب عليه الإيمان بالملائكة التى وردت أسماؤهم فى الكتاب أو السنة بالتفصيل ومن هؤلاء رؤساؤهم الثلاثة: جبريل،وميكائيل، وإسرافيل (٢).

وجبريل هو الملك الموكل بالوحى الذى به حياة القلوب والأرواح وقد ورد ذكره هو وميكائيل فى القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿ **قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ (٩٧) مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَافِرِينَ** ﴾. [البقرة: ٩٧، ٩٨].

---

(١) انظر: إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان: ٢/ ١٢٥.

(٢) الكواشف الجلية عن معانى الوسطية: ٣٦.

وجبريل عليه السلام عادته اليهود ظلماً وعدواناً وانتكاساً وبعداً عن الصراط المستقيم، أما الفلاسفة فأنكروا الملائكة جملة. وقد أثنى الله سبحانه عليه فى القرآن أحسن الثناء ووصفه بأجمل الصفات، قال تعالى: ﴿ **فَلا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ (١٥) الْجَوَارِ الْكُنَّسِ (١٦) وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ (١٧) وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ (١٨) إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (١٩) ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ (٢٠) مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ** ﴾. [التكوير: ١٥ - ٢١] وقال تعالى فى وصفه: ﴿ **عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ (٥) ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ** ﴾. [النجم: ٥، ٦].

وأما ميكائيل فهو الملك الموكل بالقطر الذى به حياة الأرض والنبات والحيوان[١] وأما إسرافيل فهو: الملك الموكل بالنفخ فى الصور الذى به حياة الخلق بعد مماتهم[٢] ومن الملائكة الذين ورد ذكرهم فى القرآن مالك، خازن النار، قال تعالى: ﴿ **وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ** ﴾. [الزخرف: ٧٧] فهؤلاء وغيرهم من ورد ذكر أسمائهم فى أحاديث ثبتت صحتها يجب الإيمان بهم، وبما نيط بهم من الوظائف والأعمال، وأما الملائكة الذين لم يرد ذكرهم، فيجب أن نؤمن بهم بصورة إجمالية، ونؤمن بما ذكر من أصنافهم، وأفعالهم فى القرآن والسنة فنؤمن بالكرام الكاتبين الذين جعلهم الله علينا حافظين، كما قال تعالى: ﴿ **وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ (١٠) كِرَامًا كَاتِبِينَ (١١) يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ** ﴾. [الانفطار: ١٠ - ١٢].

كما قال تعالى: ﴿ **لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ** ﴾. وذكرت بعض كتب التفسير أنهم اثنان عن اليمين وعن الشمال يكتبان الأعمال، صاحب اليمين يكتب الحسنات، وصاحب الشمال يكتب السيئات، وملكان آخران يحفظانه ويحرسانه واحد من أمامه وواحد من ورائه، فهو بين أربعة ملائكة.

وروى الإمام مسلم عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما منكم من أحد إلا وقد وكل به قرينه من الجن وقرينه من الملائكة**»، قالوا: وإياك يا رسول الله؟ قال: «**وإياى، لكن الله أعاننى عليه فأسلم فلا يأمرنى إلا**

---

(١) انظر: أصول الإيمان لمحمد بن عبد الوهاب.

(٢) إغاثة اللهفان: ٢/ ٢٢١.

بخير »[١].

ونؤمن بملك الموت الموكل بقبض أرواح العالمين قال تعالى: ﴿ قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴾. [السجدة: ١١] ولم يصرح القرآن باسمه، والأحاديث الصحيحة، وجاء فى بعض الآثار تسميته بعزرائيل[٢] فالله أعلم.

ونؤمن بحملة العرش، الذين أخبر عنهم الله فى القرآن فقال سبحانه: ﴿ وَالْمَلَكُ عَلَىٰ أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ ﴾. [الحاقة: ١٧]

ونؤمن كذلك بالملائكة الموكلين بالنار، أعاذنا الله منها، وهم الزبانية، ومقدموهم تسعة عشر قال تعالى: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ فِى النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ ﴾. (غافر: ٤٩) قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ [التحريم: ٦]. وقال تعالى: ﴿ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾ وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً ﴾ [المدثر: ٣٠، ٣١].

ونؤمن أيضاً بالملائكة الموكلين بالجنان الذين يهيئون الضيافة لساكنيها، من ملابس ومآكل ومشارب ومصنوعات وغير ذلك مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر. وإذا أردت أن تعرف ما صح عن رسول الله عن الملائكة فيمكنك أن ترجع إلى صحيح البخارى.

وبذلك يكون القرآن الكريم قد رسم لنا منهج الوسطية فى إيماننا بالملائكة، وهذا يبعدنا عن الواقع فى الخرافات والأوهام التى وقع فيها من لا يؤمن بالغيب، ولا يتلقون معارفهم عن الوحى الإلهى. وبهذا المعتقد يكون المسلم على منهج الاستقامة الذى أمر الله به وعلى الصراط المستقيم، فإن من يستشعر بقلبه وجود الملائكة جنود الرحمن، ويؤمن برقابتهم لأعماله وأقواله، وشهادتهم على كل ما يصدر عنه، يستحى من الله ومن جنوده، فلا يخالفه ولا يعصيه، لا فى العلانية، ولا فى السر إذ كيف له ذلك وهو يعلم أن كل شىء محسوب ومكتوب

---

(١) مسلم، كتاب صفات المنافقين وأحكامهم، باب تحريش الشيطان: ٤ / ٢٦١٧ .

(٢) أصول الإيمان لمحمد بن عبد الوهاب: ١٤ .

ومشهود عليه.

وإيمانه بالملائكة الكرام يكسبه الصبر على مواصلة الجهاد فى سبيل الله وعدم اليأس، والشعور بالأنس والطمانينة التى هى من لوازم الإيمان بالملائكة وما أخبر الله من أفعالها وأحوالها، وبهذا يتضح لنا أن من نعم الله علينا خلقه للملائكة وإخباره لنا عما ينفعنا فى معتقدنا فى هذه المخلوقات الطائعة العابدة لله عز وجل.

وأسأل الله تعالى أن تكون صورة الاعتقاد فى الملائكة قد اتضحت ملامحها من استقامة على الطريق وسلامة فى التصور وعمق فى المنهج وحكمة فى خلقها واعتدال فى وضعها وعدل فى حقيقتها بعيدة عن الغلو والإفراط والتفريط والإنكار.

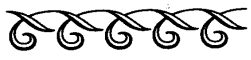

الفصل الرابع
الكتب السماوية

تمهيد: إن من أركان الإيمان الاعتقاد بالكتب السماوية وإنها من عند الله سبحانه وتعالى، إلا أن هناك من البشر من أنكر الكتب السماوية جملة وهم الملاحدة، وهناك من حرف الكتب السماوية وأضاف إليها ما لم ينزل الله به من سلطان، وهم اليهود والنصارى وقعوا فى الغلو وفى الإفراط وابتعدوا عن الصراط المستقيم، وقد اتضح ذلك عندما تكلمنا عن منهج الوسطية فى توحيد الله وأسمائه وصفاته، حيث رأينا ما وقع فيه اليهود من التحريف، وما وقعت فيه النصارى كذلك، وقد وضح الله سبحانه وتعالى ما وقع فيه أهل الكتاب من التحريف والتبديل.

المبحث الأول
تحريف اليهود وتزويرهم

أما اليهود فقد تفننوا فى التزوير، وأضافوا فى كتابهم المقدس وحذفوا منه واتبعوا كافة الأساليب الشيطانية وقد بين الله فى كتابه العزيز أنواعاً من تحريف اليهود للتوراة:

أولاً: إلباس الحق بالباطل:

كان بنو إسرائيل يخلطون الحق بالباطل، بحيث لا يتميز الحق من الباطل، وقد سجل القرآن الكريم هذا الجرم عليهم، قال سبحانه: ﴿ **يَا بَنِى إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِى أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِى أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ (٤٠) وَآمِنُوا بِمَا أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِى ثَمَنًا قَلِيلاً وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ (٤١) وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ** ﴾. [البقرة: ٤٠ - ٤٢] وقال سبحانه: ﴿ **يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ** ﴾. [آل عمران: ٧١].

ومن أبلغ الصور وأقبحها فى إلباس الحق ادعاء الكهنة والأحبار - فى التوراة التى بأيديهم - أن هارون عليه السلام هو الذى جمع الذهب من بنى إسرائيل واشترك معهم فى صناعة العجل الذهبى، ووافقهم على عبادته من دون الله، وفى الوقت نفسه يبرئون السامرى، فهارون الذى تحمل المشاق عليه الصلاة والسلام فى سبيل إقناع فرعون بالتوحيد جعلوه داعية الشرك والكفر، ولكن القرآن الكريم كان لهذه الدعوى بالمرصاد، فكذبهم، وبين حقيقة الأمر (١).

قال تعالى: ﴿ **فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ (٨٧) فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلاً جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى ...** ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ **وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِن قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوا أَمْرِى (٩٠) قَالُوا لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّىَ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى** ﴾ [طه: ٨٧ - ٩١].

---

(١) انظر: الفصل لابن حزم: ١/ ٢٥٦.

فهذا هو الصدق حقاً إنما عمل لهم العجل السامرى، أما هارون فنهاهم ولكنهم عصوه وكادوا يقتلونه.

النوع الثانى من التحريف : كتمان الحق :

لا شك أن الله حق، ولا يقول إلا حقاً، والتوراة التى أنزلت على موسى كلها حق، لأنها كلام الله تعالى، ولكن بنى إسرائيل كانوا يكتمون الحق قاصدين بذلك إخضاع كتاب الله لأهوائهم وشهواتهم، فالآيات التى يرون فيها منفعة لهم عاجلة أو تكون فى جانب حجتهم يقرونها، وأما الآيات التى يرون أن فيها دليلاً عليهم فيكتمونها، ولهذا سجل الله عليهم هذا الكتم فى كتابه فقال سبحانه: ﴿ **يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ** ﴾ [آل عمران: ٧١].

ومن أعظم ماكتمه أهل الكتاب هو ما وجدوه فى كتبهم من صفات محمد ﷺ واختيار الله له رسولا إلى الناس أجمعين، وقد كانوا يعرفونه فى كتبهم كما يعرفون أبناءهم ولكنهم إذا سئلوا عن ذلك كتموا (١).

قال تعالى: ﴿ **الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ** ﴾. [البقرة: ١٤٦]، ﴿ **الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ** ﴾. [الأنعام: ٢٠].

وقد بين عز وجل صفاته ﷺ الكاملة فى التوراة والإنجيل فقال عز وجل: ﴿ **وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ (١٥٦) الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ** ﴾[الأعراف: ١٥٦، ١٥٧] ومع هذه الأوصاف العظيمة التى كانوا يعرفونها مكتوبة عندهم أنكروا نبوته ﷺ وكتموا ما علموه.

النوع الثالث : إخفاء الحق :

وقد كان أهل الكتاب يخفون من أحكام التوراة الشىء الكثير، قال تعالى:

---

(٢) انظر: تفسير البغوى: ١/٦٧، ١٦٢، ٣١٥.

﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ ﴾ [المائدة : ١٥] ومن الأحكام التى أخفاها اليهود : حكم رجم الزانى والمحصن ، فقد جاؤوا إلى النبى ﷺ برجل منهم وامرأة قد زنيا ، فقال لهم : « **كيف تفعلون بمن زنى منكم ؟** » قالوا : نحممهما ونضربهما . فقال :« **لا تجدون فى التوراة الرجم ؟** » فقالوا : لا نجد فيها شيئاً . فقال لهم عبد الله بن سلام :كذبتم ، فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين، فوضع مدارسها الذى يدرسها منهم كفه على آية الرجم ، فطفق يقرأ ما دون يده وما وراءها ، ولا يقرأ آيه الرجم ، فنزع يده عن آية الرجم، فقال: ما هذه ؟ فلما رأوا ذلك قالوا : هى آية الرجم ، فأمر بهما رسول الله ﷺ فرجما .. الحديث » . (١)

ولهذا قال سبحانه : ﴿ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا ..... ﴾ إلى قوله : ﴿ وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِن بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُوْلَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴾ . [المائدة : ٤١ – ٤٣] .

وقال : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ ﴾ . [آل عمران : ٢٣] .

فأنكر سبحانه على أهل الكتاب المتمسكين فيما يزعمون بكتابيهم التوراة والإنجيل وإذا دعوا إلى التحاكم إلى ما فيهما من طاعة الله فيما أمرهم به فيهما من اتباع محمد ﷺ تولوا وهم معرضون عنهما، وهذا فى غاية ما يكون من ذمهم (٢).

النوع الرابع : لىُّ اللسان :

من أنواع تحريف اليهود للتوراة : لى اللسان ، فهم يلوون ألسنتهم ويعطفونها بالتحريف ، ليلبسوا على السامع اللفظ المنزل بغيره ، ويفتلون ألسنتهم حين يقرؤون كلام الله تعالى لإمالته عما أنزله الله عليهم إلى اللفظ الذى يريدونه قال تعالى : ﴿ وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ

---

(١) البخارى مع الفتح ، كتاب التفسير ، سورة آل عمران باب : قل فأتو بالتوراة : ٨ / ٢٢٤ .

(٢) انظر : تفسير ابن كثير : ١ / ٣٥٦ .

يَعْلَمُونَ ﴾ [آل عمران : ٧٨] .

ومن التحريف بلى اللسان ما كان يفعله اليهود مع رسول الله ﷺ بقولهم : ﴿ وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ ﴾ [النساء : ٤٦] ويقصدون معنى اسمع : لا سمعت ، أى يدعون على النبى ﷺ وقد كان المسلمون يقولون للنبى ﷺ راعنا ، من المراعاة والمعنى فأرع سمعك لكل منا ، فلما سمع اليهود هذه اللفظة اغتنموا الفرصة فى التحريف ؛ لأن معناها عندهم السب والطعن بمعنى ياأحمق (١) ولكن الله عز وجل كشف سترهم فقال : ﴿ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِن لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلا يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ [النساء : ٤٦] .

ونهى الله المؤمنين عن صفات اليهود فقال : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [البقرة : ١٠٤] .

النوع الخامس : تحريف الكلام عن مواضعه :

أثبت الله عز وجل على أهل الكتاب هذا النوع من التحريف فقال عز وجل : ﴿ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ ... ﴾ [النساء : ٤٦] ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ ... ﴾ . [المائدة : ١٣] .

وقال عز وجل : ﴿ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِن بَعْدِ مَوَاضِعِهِ ﴾ . [المائدة : ٤١]وهذا النوع من التحريف له أربع صور كالتالى :

١ - **تحريف التبديل** : وهو وضع كلمة مكان كلمة ، أو جملة مكان جملة .

٢ - **تحريف بالزيادة** : ويكون بزيادة كلمة أو جملة .

٣ - **تحريف بالنقص** : وهو إسقاط كلمة أو جملة من الكلام المنزل على

---

(١) انظر : تفسير البغوى : ١/ ١٠٢، ٤٣٨ .

موسى عليه السلام .

٤ - تحريف المعنى : تبقى الكلمة أو الجملة كما هى، ولكنهم يجعلونها محتملة لمعنيين ، ثم يختارون المعنى الذى يتفق مع أهوائهم وأغراضهم(١) .
وهذه الصورة لها أمثلة كثيرة من التوراة لا يتسع المقام لذكرها(٢) .

ومن رحمة الله تعالى وكرمه أنه عندما ذكر ما فعلوه من العظائم دعاهم إلى التوبة ، فقال تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰ أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا** ﴾ [النساء : ٤٧] فلو آمنوا بالله وملائكته وجميع كتبه ورسله لكفر عنهم سيئاتهم وأدخلهم الجنة(٣) .

قال تعالى : ﴿ **وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ (٦٥) وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ** ﴾ [المائدة : ٦٥ ، ٦٦] ﴿ **وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ** ﴾ . [آل عمران : ١١٠] .

---

(١) التوراة دراسة وتحليل للدكتور ، محمد شلبى شتيوى : ٨٣ .
(٢) انظر : إغاثة اللهفان : ٢ / ٣٤٢-٣٤٤ .
(٣) انظر : تفسير السعدى : ٣١٩ .

المبحث الثانى
تحريف النصارى للإنجيل

وأما النصارى فقد حرفوا الإنجيل، وبذلك ابتعدوا عن الصراط المستقيم وإليك ما يثبت التحريف فى الأناجيل :

أولاً : النتيجة التى لا مفر من التسليم بها أن الأناجيل القانونية الموجودة الآن ما هى إلا كتب مؤلفة ، وهى تبعا لذلك معرضة للخطأ والصواب ، ولا يمكن الادعاء ولو لحظة أنها كتبت بإلهام ؛ فلقد كتبها أناس مجهولون ، فى أماكن غير معلومة ، وفى تواريخ غير متأكدة ، والشىء المؤكد : أن هذه الأناجيل مختلفة غير متآلفة ، بل إنها متناقضة مع نفسها ، ومع حقائق العالم الخارجى ؛ لأنها فشلت فى تنبؤات كثيرة ، كالقول بنهاية العالم ، وهذا القول قد يضايق النصرانى العادى ، بل قد يصدمه ، ولكن بالنسبة للعالم النصرانى فقد أصبح ذلك عنده حقيقة مسلم بها (١) لما أجراه من أبحاث ، ولما علم من واقع الإنجيل .

ثانيا : الشواهد على التحريف من الأناجيل :

أ – جاء فى إنجيل مرقس :أن المسيح قال لتلاميذه : (اذهبوا إلى العالم أجمع واكروزا بالإنجيل للخليقة كلها ، من آمن واعتمد خلص ، ومن لم يؤمن يدان ، وهذه الآيات تتبع المؤمنين يخرجون الشياطين باسمى ، ويتكلمون بألسنة جديدة ، يحملون حيات ، وإن شربوا شيئاً مميتاً لا يضرهم ، ويضعون أيديهم على المرضى فيبرؤون) (٢).

ففى هذا النص حجة على النصارى من وجهين :

الوجه الأول :قولهم عن عيسى إنه أمرهم أن يبشروا بالإنجيل فدل ذلك على أن إنجيلاً أتاهم به وليس هو عندهم الآن ، وإنما عندهم أربعة أناجيل متغايرة

---

(١) انظر : المناظرة بين الإسلام والنصرانية : ٣٥ – ٥٠ .

(٢) انظر : الفصل لابن حزم ٢ / ١٣٩ وعزاه المحقق إلى إنجيل مرقس ، والإصحاح : ١٦ / ١٥–١٨ .

وليس منها إنجيل ألف إلا بعد رفع عيسى عليه السلام بأعوام كثيرة ، فصح أن ذلك الإنجيل الذى أخبر المسيح أنه أتاهم به وأمرهم بالتبشير به ذهب عنهم ؛ لأنهم لا يعرفون له أصلاً ، وهذا ما لا يمكن سواه .

الوجه الثانى : قولهم : إنه وعد كل من آمن بدعوة التلاميذ أنهم يتكلمون بلغات لا يعرفونها ، وينفون الجن عن المجانين ، ويضعون أيديهم على المرضى فيبرؤون ويحملون الحيات ،وإن شربوا شربه قتالة لا تضرهم ، وهذا وعد ظاهر الكذب ؛ فإن ما من النصارى أحد يتكلم بلغة لم يتعلمها ولا منهم أحد ينفى جنياً ، ولا من يحمل حية فلا تضره ، ولا من يضع يده على مريض فيشفى ، ولا منهم أحد يسقى السم فلا يضره ، وهم معترفون بأن يوحنا – صاحب الإنجيل – قتل بالسم وحاشا لله أن يأتى نبى بمواعيد كاذبة ، وهذا دليل على تحريف النصارى وتناقضهم وتكذيبهم أنفسهم)[١] .

ب – ومن ذلك ما جاء فى إنجيل متى أن عيسى عليه السلام دعا على شجرة تين خضراء فيبست التينة فى الحال ، فتعجب التلاميذ من ذلك ، فقال لهم عيسى : (الحق أقول لكم : إن كان لكم إيمان ، ولا تشكوا أمر التينة فقط ، بل إن قلتم أيضا لهذا الجبل انتقل وانطرح فى البحر فيكون) .[٢] .

وهذا فيه حجة على النصارى ، وذلك أن الأمر لا يخلو من أن يكون النصارى مؤمنين بالمسيح عليه السلام ، أو غير مؤمنين ، فقد كذبوا المسيح فيما نسبوه إليه فى هذه المقالة – وحاشا له من الكذب– فليس منهم أحد قدر على أن يأمر حبة من خردل بالانتقال فتنتقل ، فكيف على قلع جبل وإلقائه فى البحر ؟ وإن كانوا غير مؤمنين به فهم بإقرارهم هذا كفار ، ولا يجوز أن يصدق كافر[٣].

وبهذا يتبين أن الأناجيل وقع فيها تحريف عظيم ، ولا يعتمد عليها ، ولا مخرج من هذا التيه إلا بالدخول فى الإسلام ، وقد ذكر سبحانه وتعالى فى كتابه

---

(١) انظر : الفصل لابن حزم : ٢ / ١٣٩ .

(٢) انظر : الفصل لابن حزم : ٢ / ١٣٩ .

(٣) المرجع السابق : ٢ / ٩٨ .

ما اقترفه النصارى وما أدخلوه على حقيقة النبوة ، من تأليه جماعة منهم لعيسى ابن مريم ، وقول بعضهم بالتثليث ، قال تعالى : ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ .. ﴾ [المائدة : ٧٢]،وقال تعالى : ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلاَّ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [المائدة : ٧٣] فجاء القرآن الكريم ، وبين هذا التحريف وبين العقيدة السليمة عن عيسى وأمه ، فقال تعالى : ﴿ مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلانِ الطَّعَامَ انظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الآيَاتِ ثُمَّ انظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ [المائدة : ٧٥] والحق الذى لا يمارى فيه منصف أنه لا يوجد اليوم على ظهر الأرض كتاب تصلح نسبته إلى الخالق تبارك وتعالى سوى القرآن الكريم، ومن وسطية القرآن فى ركن الكتب السماوية بيانه ما وقع فيها من الانحراف والابتعاد عن الصراط المستقيم ، وأعطانا القول الفصل فى هذا المجال ولم يترك ما يفيدنا وينفعنا فيما يتعلق بهذا الشأن وغيره.

فبين سبحانه وتعالى أن التوراة أصلها من عند الله وحدث فيها التحريف بسبب أحبارهم ورهبانهم قال تعالى : ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلاً وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴾ [المائدة : ٤٤] .

وبين سبحانه وتعالى أن الإنجيل أصله من عند الله إلا أن علماءهم حرفوه قال تعالى : ﴿ وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١٤﴾ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ ﴾ [المائدة:١٤، ١٥] .

وأخبر سبحانه وتعالى أن الزبور أنزلها على داود عليه السلام فقال تعالى : ﴿ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَىٰ بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا ﴾ [الإسراء : ٥٥] وأخبرنا سبحانه عن الصحف التى أنزلها على إبراهيم وموسى

التى أخبر الله عنها بقوله : ﴿ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ (٣٦) وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ (٣٧) أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ (٣٨) وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ (٣٩) وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ (٤٠) ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَىٰ (٤١) وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنتَهَىٰ ﴾ (النجم : ٣٦ – ٤٢) .

قال تعالى : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ (١٤) وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ (١٥) بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (١٦) وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ (١٧) إِنَّ هَٰذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ (١٨) صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴾ [الأعلى : ١٤ – ١٩] .

وأما الكتب الأخرى التى نزلت على سائر الرسل ، فلم يخبرنا الله تعالى عن أسمائها ، وإنما أخبرنا سبحانه أن لكل نبى أرسله الله ، رسالة بلغة قومه ، فقال : ﴿ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [البقرة : ٢١٣] .

فمن حكمة الله أنه بين لنا ما يفيدنا فى دنيانا وآخرتنا ، فيجب علينا أن نؤمن بهذه الكتب التى لم تُسمَّ إجمالاً ، ولا يجوز لنا أن ننسب كتاباً إلى الله تعالى سوى ما نسبه إلى نفسه مما أخبرنا عنه فى القرآن الكريم .

المبحث الثالث
وسطية القرآن بين الكتب السماوية

ومن وسطية القرآن فى باب الإيمان بالكتب السماوية: بيانه أن هذه الكتب نزلت بالحق والنور والهدى ،وتوحيد الله سبحانه فى: ربوبيته، وألوهيته، وأسمائه وصفاته ، وأن ما نسب إليها مما يخالف ذلك إنما هو من تحريف البشر وصنعهم .

ومن وسطية القرآن ما ميزه الله وخصه به عن سائر الكتب المقدسة التى سبقت نزوله من الكتب المنزلة من أهمها :

أنه تضمن خلاصة التعاليم الإلهية ، وجاء مؤيداً ومصدقاً لما جاء فى الكتب السابقة من توحيد الله ، وعبادته ، ووجوب طاعته ، وجمع كل ما كان متفرقاً فى تلك الكتب من الحسنات والفضائل ، وجاء مهيمناً ورقيباً عليها ، يقر ما فيها من حق ، ويبين ما دخل عليها من تحريف وتغيير (١) قال تعالى : ﴿ **وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ** ﴾ [المائدة : ٤٨] .

ومن وسطية القرآن أنه جاء بشريعة عامة للبشر فيها كل ما يلزمهم لسعادتهم فى الدارين ، نسخ بها جميع الشرائع العملية الخاصة بالأقوام السابقة، وأثبت فيها الأحكام النهائية الخالدة الصالحة لكل زمان ومكان .

إن القرآن الكريم هو الكتاب الربانى الوحيد الذى تعهد الله بحفظه فقال تعالى : ﴿ **إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ** ﴾ [الحجر : ٩] وقال تعالى : ﴿ **وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ** ﴾ [فصلت: ٤١، ٤٢] .

والقرآن الكريم أنزله على رسوله محمد ﷺ للناس كافة ، وليس خاصا بقوم

---

(١) انظر : الإيمان لمحمد ياسين : ١٠٠ .

معينين ، كما كانت تنزل الكتب السابقة فكان حفظه من التحريف ، وصيانته من عبث الناس ؛ ليبقى ما فيه حجة الله على الناس ، قائمة حتى يرث الله الأرض ومن عليها .

بعكس الكتب الأخرى ، فقد وجه الكلام فى كل واحد منها إلى أمة خاصة دون سائر الأمم ، وهي وإن اتفقت فى أصل الدين إلا أن ما نزل فيها من الشرائع والأحكام كان خاصاً بأزمنة معينة وأقوام معينين قال تعالى : ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾ [المائدة : ٤٨] .

لذلك لم يتعهد الله سبحانه بحفظ أى منها على مدى الدهور والأيام والأزمان كما هو الحال بالنسبة للقرآن ، وقد تكلمت عن أوجه الخيرية للقرآن الكريم فى باب ملامح الوسطية .

وبهذا أرجو من الله العلى العظيم أن أكون قد وفقت فى بيان وسطية القرآن بالنسبة للكتب السماوية .

الفصل الخامس

وسطية القرآن في أنبياء الله ورسله

الفصل الخامس
وسطية القرآن فى أنبياء الله ورسله

تمهيد: لقد كان من أعظم نعم الله عز وجل على عباده: أن بعث فيهم رسلاً منهم يعرفون نسبهم وأخلاقهم، اختارهم من خيارهم واصطفاهم من أوسطهم مكانة ونسباً، يدعون قومهم إلى خير ينفعهم فى دنياهم وأخراهم، وينهونهم عن كل ما فيه هلاكهم وضررهم فى دنياهم وأخراهم، يدعونهم إلى عبادة الله وحده واتباع أوامره واجتناب نواهيه، ويحذرونهم من الشرك بالله ومعصيته، ومخالفة أوامره وارتكاب نواهيه – فما من أمة إلا خلا فيها نذير، وبعث إليها رسلاً أو رسولاً، وذلك رحمة من الله بعباده؛ ولئلا يقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير يقول فى ذلك تبارك وتعالى: ﴿ **وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلالَةُ** ﴾. [النحل:٣٦] ويقول الله عز وجل: ﴿ **إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا (١٦٣) وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلاً لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا (١٦٤) رُسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا** ﴾ [النساء:١٦٣– ١٦٥].

فبين سبحانه أنه أرسل رسله إلى عباده مبشرين ومنذرين، فمن عصاهم فله أليم العذاب والعقوبة؛ لئلا يحتج من كفر بالله وعبد الأنداد أو ضَلَّ عن سبيله بأن يقول: إن الله أراد عقابه: ﴿ **لَوْلا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ** ﴾. [طه:١٣٤]. ولقد بلغ الرسل صلوات الله وسلامه عليهم، ما أرسلوا به، ونصحوا لأممهم غاية النصح، وبينوا لهم أوضح بيان وأجلاه، ما يجب عليهم فى دينهم ودنياهم، وما أعد الله لأهل طاعته من ثواب، ولأهل معصيته من عذاب، وسلكوا فى تبليغ قومهم رسالات ربهم كل مسلك فدعوهم ليلا ونهارا،

وسرا وجهارا، ولم يسألوهم على ذلك أجرا، بل تحملوا فى سبيل نصحهم وهدايتهم ألوان الشدائد وضروب المتاعب والأذى(١).

ولقد تباينت مواقف الأمم تجاه أنبيائهم ورسلهم، ما بين مؤمن بهم متبع لهم، وبين كافر بهم مؤذٍ لهم، وبين غال فيهم منزل لهم فوق المنزلة التى أنزلهم الله إياها، وفى هذا المبحث سنعرض لموقف اليهود والنصارى والمسلمين فى أنبياء الله ورسله. وإنما اخترنا هذه الأمم من بين سائر الأمم؛ لكونها أكثر الأمم أنبياء ورسلاً؛ ولكونهم أهل كتب سماوية نزلت إليهم؛ ولكونهم آخر ثلاث أمم أرسل إليها رسل أدرك بعضها بعضا.

(١) انظر: وسطية أهل السنة بين الفرق: ٢٥٦.

المبحث الأول
موقف اليهود من أنبياء الله ورسله

لقد كان ليهود من أنبياء الله ورسله مواقف شائنة مخزية تنبئ عن خبث فى الطوية، وفساد فى السيرة والسريرة، واتباع للنفس والهوى، وإعراض عن الحق والهدى. وإذا نحن أجلنا النظر فى كتاب الله عز وجل، تحصل لنا أن مواقف اليهود من رسل الله تتلخص فى الأمور التالية:

الأمر الأول: أنهم فرقوا بين رسل الله، ولم يؤمنوا بهم جميعاً بل آمنوا ببعض وكفروا بالبعض الآخر (بمجرد التشهى والعادة، لا عن دليل قادهم إلى ذلك، فإنه لا سبيل لهم إلى ذلك بل بمجرد الهوى والعصبية)[١].

ومن أعظم الرسل الذين كفروا بهم وكذبوا برسالتهم، عيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام، على أنهم كذبوا وكفروا بأنبياء آخرين غيرهما بدليل قتلهم لكثير من أنبيائهم كما سيأتى، وقد عد الله من يؤمن ببعض الرسل ويكفر بالبعض الآخر كافراً، بل هو الكافر حقاً فقال: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا (١٥٠) أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا** ﴾. [النساء: ١٥٠، ١٥١]. قال الإمام ابن جرير فى تفسير هذه الآية: ﴿ **وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ** ﴾، يعنى أنهم يقولون: نصدق بهذا ونكذب بهذا، كما فعلت اليهود فى تكذيبهم عيسى ومحمد ﷺ وتصديقهم بموسى وسائر الأنبياء قبله، بزعمهم وكما فعلت النصارى من تكذيبهم محمداً ﷺ وتصديقهم عيسى وسائر الأنبياء قبله بزعمهم[٢].

الأمر الثانى: أنهم خذلوا أنبياءهم ولم يقوموا بنصرهم، وقد أخذ الله عليهم ميثاقهم لينصرهم فقال: ﴿ **وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَىٰ**

---

(١) تفسير ابن كثير: ٢ / ٣٩٦. (٢) جامع البيان: ٩ / ٣٥١.

عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴾ . [المائدة: ١٢].

قال الحافظ ابن كثير: (أى: نصرتموهم وآزرتموهم على الحق)(٢). فلم يفوا بميثاقهم، وما لبثوا أن قالوا لموسى عليه السلام لما قال لهم: ﴿ يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلا تَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ ﴾ . [المائدة: ٢١] ﴿ قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ ﴾ . [المائدة: ٢٢].

ثم ما لبثوا أن أعلنوا خذلانه، وعدم القتال معه، وخلوا بينه وبين عدوه فـ ﴿ قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا مَّا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ ﴾ . [المائدة: ٢٤] فكان جزاؤهم التيه فى الأرض أربعين سنة: ﴿ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الأَرْضِ فَلا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴾ . [المائدة: ٢٦].

الأمر الثالث: أنهم تنقصوا بعض الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، ورموهم بارتكاب كبائر الذنوب، وألصقوا بهم كل رذيلة ومن ذلك:

١ – ما نسبوه إلى هارون عليه السلام من أنه صنع لهم العجل، الذى عبدوه من دون الله جاء فى (سفر الخروج):

(ولما رأى الشعب أن موسى أبطأ فى النزول من الجبل، اجتمع الشعب على هارون وقالوا له: قم اصنع لنا آلهة تسير أمامنا؛ لأن هذا موسى الرجل الذى أصعدنا من أرض مصر لا نعلم ماذا أصابه، فقال لهم هارون: انزعوا أقراط الذهب التى فى آذان نسائكم وبنيكم وبناتكم وأتونى بها، فنزع كل الشعب أقراط الذهب التى فى آذانهم وأتوا بها إلى هارون، فأخذ ذلك من أيديهم وصوره بالأزميل وصنعه عجلاً مسبوكاً، فقالوا: هذه آلهتك يا إسرائيل التى أصعدتك من أرض مصر، فلما نظر هارون بنى مذبحاً أمامه ونادى هارون وقال: غداً عيد للرب

---

٢ – تفسير القرآن العظيم: ٣ / ٦٢.

فبكروا فى الغيد وأصعدوا محرقات، وقدموا ذبائح سلامة وجلس الشعب للأكل والشرب ثم قاموا للعب)[١].

هكذا يصور هذا السفر نبياً عظيما من أنبياء الله بعثه ليدعو الناس إلى توحيد الله فى صورة صانع للأصنام، مغر لقومه بعبادته من دون الله عز وجل. ونحن نقطع بأن هذا النص مما كتبه اليهود بأيديهم وقالوا: هو من عند الله وما هو من عند الله، وأنه (ليدل على أن محررى هذه الأسفار لا يرعون لأنبيائهم حرمة ولا يرجون لهم وقاراً ،ولا يتورعون عن أن ينسبوا إليهم أية نقيصة حتى خيانة الرسالة نفسها التى بعثوا من أجلها ودفع قومهم إلى الشرك بالله)[٢].

ولقد ذكر الله فى القرآن الكريم قصة عبادة اليهود للعجل، وبين أن الذى صنع العجل وأغراهم بعبادته هو السامرى وليس هارون عليه السلام، بل أخبر عز وجل أن هارون عليه السلام حذر قومه من ذلك، ولكن القوم لم يلتفتوا إلى تحذيره وعصوه، وخالفوا ما نهاهم عنه فقال عز وجل: ﴿ **وَمَا أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَا مُوسَىٰ (٨٣) قَالَ هُمْ أُولَاءِ عَلَىٰ أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ (٨٤) قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِن بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ (٨٥) فَرَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِي (٨٦) قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ (٨٧) فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَٰذَا إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ (٨٨) أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا (٨٩) وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِن قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَٰنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي (٩٠) قَالُوا لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ** ﴾. [طه : ٨٣ – ٩١].

فهذه الآيات تنطق فى وضوح ببراءة هارون عليه السلام مما نسبه إليه اليهود، وتشهد بافترائهم وكذبهم وتقولهم على الله عز وجل ورسله ألا بئس ما يزرون. ورموا نبى الله الأواب سليمان عليه السلام بأنه فى أواخر أيامه مال إلى ممالأة نسائه على

---

(١) الكتاب المقدس، العهد القديم سفر الخروج، الإصحاح ٣٢ فقرة (١ – ٦).

(٢) انظر: الأسفار المقدسة فى الأديان السابقة للإسلام للدكتور على عبد الواحد : ٤٦ .

عبادة الأوثان وبنى لآلهتهن المعابد وأن قلبه مال معهن إلى هذه الآلهة ولم يكن ذلك مخلصاً فى إيمانه بربه عز وجل، وتجد ذلك فى (سفر الملوك الأول) من كتبهم المقدسة(١).

فهذا سليمان النبى الكريم الذى لم يقر ملكة سبأ وقومها على عبادة الشمس والقمر من دون الله، وبذل ما فى وسعه لهدايتهم إلى عباة الله رب العالمين، فأظهر لها من آيات الله التى أتاه ما حدا بها إلى الهداية والإسلام فقالت: ﴿ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾. [النمل: ٤٤] ومع ذلك ينسب إليه اليهود الميل إلى عبادة الأصنام ،والإذعان لرغبة نسائه فى ذلك، سبحانك اللهم هذا بهتان عظيم.

٢ – نسبتهم لبعض الرسل والأنبياء عليهم الصلاة والسلام شرب الخمر وارتكاب فاحشة الزنى والقتل، فنسبوا إلى أبى الأنبياء نوح عليه السلام أنه شرب الخمر حتى سكر وثمل وانكشفت سوءته ذكر ذلك فى (سفر التكوين)(٢) هكذا يصور كتاب اليهود المقدس نوحاً عليه السلام الذى مكث فى قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً يدعوهم إلى الله ليلاً ونهاراً سراً وجهاراً، فى صورة فاسق لا يفيق من السكر، قاتلهم الله أنى يؤفكون.

ونسبوا إلى نبى الله لوط عليه السلام الزنى بابنتيه، فقالوا: إن ابنتيه تآمرتا عليه وأسقتاه خمراً حتى ثمل، وزنى بهما وحملتا منه ذكر ، ذلك فى سفر التكوين.(٣) وهذا نبى الله الملك الصالح داود عليه السلام تنسب إليه التوراة المزعومة الزنى بإحدى زوجات قائد من قواد جنوده ، فخشى افتضاح أمره فاحتال بقتله، وتزوج امرأته من بعده ثم ذكروا أن داود طلب عودة أوريا زوج المرأة المزعومة من المعركة ليقيم مع زوجته فى محاولة من داود لإخفاء جريمته ونسبة الحمل لأوريا، ولكن أوريا لم يدخل على أهله، ولما يئس منه داود كتب إلى قائده يأمره بأن

---

(١) انظر: سفر الملوك الأول إصحاح ١١ فقرة ٤–١٠.

(٢) وسطية أهل السنة بين الفرق: ٢٦٦.

(٣) انظر: سفر التكوين، الإصحاح ١٩ فقرة ٣٠–٣٧.

يجعل أوريا فى مقدمة الجيش والتراجع عنه عند اشتداد الخطر ليهلك، ذكر ذلك فى (سفر صموئيل الثانى)[١].

فانظر رحمك الله كيف صوروا نبياً كريماً بهذه الصورة المزرية، فلم يكفهم نسبة الزنى إليه، حتى جعلوه متآمراً على القتل، بل آمراً به [٢].

الأمر الرابع : أنهم قتلوا بعض أنبيائهم :

لقد سجل الله عليهم فى القرآن الكريم هذا الموقف المشين من أنبيائهم فى غير ما آية، مقرعاً لهم وموبخاً على هذا الصنيع القبيح، والجرم العظيم الذى ارتكبوه بحق من أرسل لهدايتهم وبعث لإرشادهم إلى صراط الله المستقيم، من أنبياء الله ورسله قال تعالى : ﴿ **وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لا تَهْوَى أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ** ﴾.[البقرة :٨٧].

وقال عز وجل : ﴿ **لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلاً كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لا تَهْوَى أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ** ﴾ [المائدة : ٧٠] فاستجلبوا بهذا الموقف المخزى غضب الله عز وجل ومقته وسخطه واستوجبوا عذابه ونقمته : ﴿ **وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ** ﴾[البقرة : ٦١] ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ** ﴾ [آل عمران : ٢١].

وعن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال : (كانت بنو إسرائيل فى اليوم تقتل ثلاثمائة نبى، ثم يقيمون سوقاً بقتلهم فى آخر الزمان) .[١] ومن أعظم الأنبياء الذين قتلوهم زكريا وابنه يحيى عليهما السلام، فقد أخرج الحاكم [٢] عن ابن عباس رضى الله عنهما فى قوله عز وجل : ﴿ **وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ** ﴾.[آل عمران : ٢١].

---

(١) سفر صموئيل الثانى : إصحاح ١١ فقرة ١٤ – ١٦ .

(٢) انظر: وسطية أهل السنة :٢٦٨ .

بعث عيسى ابن مريم فى اثنى عشر رجلاً من الحواريين يعلمون الناس، فكان ينهاهم عن نكاح ابنة الأخ، وكان ملك له ابنة أخ تعجبه فأرادها وجعل يقضى لها كل يوم حاجة فقالت لها أمها : إذا سألك عن حاجتك فقولى له : أن تقتل يحيى ابن زكريا، فقال لها الملك : حاجتك فقالت : حاجتى أن تقتل يحيى بن زكريا فقال : سلى غير ذلك فقالت : لا أسأل غير هذا، فلما أتى أمر به فذبح . . .) .

وذكر الإمام ابن جرير (٣) وغيره قتل بنى إسرائيل زكريا عليه السلام كما قتلوا ابنه يحيى، وقد أجمعوا على قتل المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام،ولكن الله حفظه من كيدهم، ورفعه إليه، وألقى شبهه على غيره فقتلوه وصلبوه، وهم يعتقدون أنهم قتلوا المسيح عليه السلام، كما ذكر ذلك عنهم الحق تبارك وتعالى : ﴿ **وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلاَّ اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا (١٥٧) بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا** ﴾ .[النساء :١٥٧، ١٥٨] .

ويبدو أن هذا الخلق ظل ملازماً لهم تجاه أنبياء الله ورسله، ولم يكن ذلك منهم مع أنبيائهم فقط، فقد حاولوا قتل نبينا محمد ﷺ، فدسوا له السم صلوات الله وسلامه بغية قتله، وحاول بنو النضير اغتياله بإلقاء الصخرة عليه (٤) جرياً على عادتهم فى الخبث والكيد لرسل الله صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، كما ثبت فى الصحيحين من حديث أنس رضى الله عنه : إن امرأة يهودية أتت رسول الله ﷺ بشاة مسمومة، فأكل منها فجيء بها إلى رسول الله ﷺ فسألها عن ذلك؟ فقالت : أردت لأقتلك، قال : « ما كان الله ليسلطك على ذاك، قال، أو قال : « » قال : قالوا : ألا تقتلها؟ قال : قال :« فمازلت أعرفها

---

(١) انظر ابن كثير فى تفسيره : ١ / ١٤٦ .

(٢) هو أبو عبد الله محمد بن عبد الله الحاكم النيسابورى توفى ٤٠٥هـ من أكبر علماء الحديث .

(٣) انظر: جامع البيان : ٦ / ٢٨٤ .

(٤) انظر: ابن هشام السيرة :٢ / ١٩٠ .

فى لهوات[١] رسول الله ﷺ .[٢]

وتشير بعض الروايات إلى أن النبى ﷺ مات وهو يجد أثر سم اليهود له، ففى حديث عائشة رضى الله عنها كان النبى ﷺ يقول فى مرضه الذى مات فيه: « **يا عائشة: ما أزال أجد ألم الطعام الذى أكلت بخيبر، فهذا أوان انقطاع أبهرى من هذا السم** »[٣].

وبعد: فهذا هو موقف يهود من رسل الله وأنبيائه صلوات الله وسلامه عليهم، إيمان ببعض وكفر ببعض، وتنقص منهم وإيذاء، وسب، وشتم، وقذف بارتكاب جرائم السكر والعربدة، والزنى والقتل، ثم تشريد ومطاردة وقتل لبعضهم وهى مواقف تدل على مبلغ تفريط القوم، وبعدهم عن الوسطية، وعن الصراط المستقيم، وعن العدل والاستقامة فى حق أنبياء الله ورسله، وعظم تقصيرهم وشدة جفائهم وعداوتهم وبما غلوا وأفرطوا فى حق بعض أنبيائهم، وأنزلوهم فوق مكانة النبوة والرسالة، كما وقع منهم فى حق العزير عليه السلام إذ قالوا إنه ابن الله كما ذكر الله عز وجل ذلك فى قوله: ﴿ **وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ** ﴾ [التوبة: ٣٠].

ومن مظاهر غلوهم: اتخاذ قبور أنبيائهم مساجد، كما أخبر المصطفى ﷺ بذلك ولعنهم لأجله فقال: «**لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد** ».[٤] وفى حديث آخر قال ﷺ: «**قاتل الله اليهود اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد**».[٥] فالقوم كان لديهم غلو فى بعض أنبيائهم، لكن لما كان الغالب عليهم الجفاء والتفريط فى هذا الجانب، ظن بعض الناس أنه لم يقع منهم غلو، لكثرة ما ورد فى القرآن من نسبة قتل الأنبياء وتكذيبهم إليهم،

---

(١) لهوات: جمع لهاة وهى اللحمة فى سقف أقصى الفم.

(٢) البخارى: كتاب الهدية، باب قبول الهدية من المشركين: ٥ / ٢٣٠ رقم الحديث: ٢٦١٧.

(٣) البخارى كتاب المغازى، باب: مرض النبى ﷺ: ٩ / ١٣١.

(٤، ٥) البخارى: كتاب الصلاة، باب النهى عن بناء المساجد على القبور: ١ / ٥٣٢.

بل ربما لهوى فى نفوس البعض، حاول التشكيك فى الأحاديث التى أشرنا إليها وأوهم أنها تعارض ما جاء فى القرآن من ذكر جفائهم للأنبياء، وغفل أو تغافل عن أن القرآن الكريم كما جاء فيه نسبة التفريط إليهم، جاء فيه أيضا نسبة الإفراط والغلو إليهم كما تقدم فى شأن العزير عليه السلام.

المبحث الثانى
موقف النصارى

إذا كان اليهود غلب عليهم التفريط والتقصير والجفاء فى حق أنبياء الله ورسله صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين مع غلوهم فى بعضهم كالعزير عليه السلام ، فإن النصارى قد ذهبوا إلى أقصى الطرف المعاكس فغلب عليهم الغلو والإفراط ولاسيما فى نبى الله عيسى عليه الصلاة والسلام، على أنهم فرطوا وقصروا أيضاً فى حق الله، بل وفى حق عيسى عليه السلام أيضاً، ويمكن إجمال مواقفهم فى هذا الباب فى الأمور التالية :

الأمر الأول : أنهم لم يؤمنوا بجميع الرسل والأنبياء، بل فرقوا بينهم فآمنوا ببعض وكفروا ببعض وغلوا فى بعض، وهم معنيون أيضاً بقوله عز وجل :﴿ **إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً (١٥٠) أُوْلَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا** ﴾. [النساء : ١٥٠، ١٥١] وقدمنا إيراد هذه الآية فى الكلام على موقف اليهود، وذكرنا ما قاله الإمام ابن جرير فى تفسيرها، وفيه : أن النصارى ممن آمن ببعض الأنبياء وكفر ببعض، حيث آمنوا بعيسى وموسى بزعمهم وكفروا بمحمد ﷺ .

الأمر الثانى : أنهم غلوا وأفرطوا فى نبى الله عيسى عليه الصلاة والسلام، ورفعوه فوق المكانة التى جعله الله فيها، وأنزلوه فوق المنزلة التى أنزله الله إياها . فلم يؤمنوا به عبداً لله ورسولاً نبياً، وإنما جعلوه هو الله أو ابن الله أو ثالث ثلاثة يشكلون منها الإله، وعبدوه من دون الله عز وجل وأضافوا إليه من الأفعال والأعمال ما لا يصح إضافته ونسبته إلا إلى الله عز وجل، فكانت عقيدتهم فيه التى أجمعوا عليها بعد(مجمع نيقية) .(١) وسموها بـ (الإمامة) على النحو

---

(١) سمى بذلك نسبة إلى مدينة نيقية من أعمال اصطنبول التى اجتمع بها عدد من علماء النصارى، وكان من أهم قراراته : القول بإلهية المسيح عليه السلام انظر: النصرانية لأبى زهرة: ١٢٤ وانظر:ابن القيم، هداية الحيارى: ٣٢٣ .

التالى : الإيمان :

١ ـ بإله واحد، أب، ضابط الكل، خالق السماء والأرض صانع ما يرى وما لا يرى.

٢ ـ وبرب واحد يسوع، الابن الوحيد المولود من الأب قبل الدهور من نور الله إله حق من إله حق، مولود غير مخلوق، مساو للأب فى الجوهر الذى به كان كل شىء الذى من أجلنا نحن البشر ومن أجل خطايانا نزل من السماء وتجسد فى روح القدس ومن مريم العذراء، وصلب حياً على عهد بيلاطس وتألم وقبر، وقام من الأموات فى اليوم الثالث على ما فى الكتب وصعد إلى السماء وجلس على يمين الرب وسيأتى ليدين الأحياء والأموات، ولا فناء لملكه ...). (١)

لقد ذكر القرآن الكريم غلوهم فى عيسى عليه السلام، وقولهم بألوهيته وبنوته لله عز وجل، وكفرهم بذلك، فقال جل وعلا: ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ﴾ [المائدة: ٧٢] ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلاَّ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [المائدة: ٧٣].

وقال: ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ [التوبة: ٣٠].

وورد فى بعض الأناجيل بعض النصوص التى اعتمد عليها النصارى فى تأليه المسيح ونبوته، ومن ذلك ما جاء فى إنجيل (يوحنا) كقوله: (فى البدء كان الكلمة، والكلمة كان عند الله، وكان الكلمة الله هذا كان فى البدء عند الله، كل به كون وبغيره لم يكون شىء مما كون). (٢)

فجعل المسيح هو الكلمة، وجعل الكلمة هى الله، فالمسيح هو الله، تعالى الله عن قولهم.

وفيه أيضا :أن المسيح عليه السلام أبرأ أعمى فرده بصيراً، وأن اليهود لما

---

(١) انظر: الأسفار المقدسة: ١١١، الملل والنحل: ٢/ ٢٨ للشهرستانى.

(٢) إنجيل يوحنا، الإصحاح الأول فقرة ١ ـ ٤.

سألوه من رد إليك بصرك؟ أخبرهم بذلك ووعظهم فطردوه، وسمع يسوع أنهم طردوه خارجاً فلقيه وقال له: أتؤمن أنت بابن الله؟ فأجاب وقال: ومن هو يا سيدى لأومن به، فقال له يسوع: قد رأيته وهو الذى يكلمك فقال له: قد آمنت يارب وسجد له).(١)

على أن فى هذا الإنجيل وغيره من الأناجيل من التناقضات فى هذا الباب الكثير، بل فيه ما يدل على بشرية المسيح وعبوديته، وأنه نبى وليس بإله، وليس من غرضنا هنا ذكر ذلك، وإنما القصد الإشارة إلى قولهم بالوهية المسيح وبنوته لله عز وجل.(٢)

الأمر الثالث: خذلانهم لنبيهم وعدم نصرته، إن من الواجب على أتباع الرسل وخاصة أصحابهم وحوارييهم، أن ينصروهم ويعزروهم ويفدوهم بأنفسهم وأموالهم كما تقدم ذكر أخذ الله ميثاق بنى إسرائيل على نصر الرسل ومؤازرتهم. ولكن قوم عيسى عليه السلام، وتلاميذه خذلوه ولم ينصروه عندما أراد أعداؤه اليهود أخذه وقتله، بل أسلمه بعضهم ودل عدوه عليه لولا أن الله رفعه وألقى شبهه على بعض تلاميذه.

وقد أثبت النصارى أن تلاميذ المسيح وأصحابه أسلموه لليهود وخلوا بينهم وبينه وقبض بعضهم ثمناً لذلك، وهذا غاية الخذلان، ذكر ذلك فى إنجيل متى.(٣)

---

(١) إنجيل يوحنا، الإصحاح التاسع فقرة ٣٥ – ٣٧.

(٢ ، ٣) متى، الإصحاح السادس والعشرون فقرة: ١٤–٥٧.

المبحث الثالث
موقف المسلمين من أنبياء الله ورسله

ينبع موقف المسلمين فى هذا الباب من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، منهما تستقى هذه الأمة مواقفها واعتقادها وسائر أمور دينها، وعنهما تصدر؛ لذلك جاء موقفهما من أنبياء الله ورسله موقفاً معتدلاً وسطاً، لا غلو فيه ولا إفراط ولا تفريط أو تقصير فيها، ولم تضل فيه كما ضلت أمم قبلها؛ لأنها لم تقل فيه بمجرد الرأى والهوى، ولم تبتدع فيه مالم يأذن به الله ولا رسوله ﷺ.

الأمر الأول: أن هذه الأمة آمنت بجميع الأنبياء والمرسلين ولم تفرق بين أحد منهم فتؤمن ببعض وتكفر ببعض كما فعل اليهود والنصارى، ذلك أن الله عز وجل أمرها فى كتابه الكريم بقوله: ﴿ **قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ** ﴾[البقرة: ١٣٦].

قال الإمام ابن كثير فى تفسير هذه الآية: (أرشد الله تعالى عباده المؤمنين إلى الإيمان بما أنزل إليهم بواسطة رسوله محمد ﷺ مفصلاً، وبما أنزل على الأنبياء المتقدمين مجملاً، ونص على أعيان من الرسل، وأجمل ذكر بقية الأنبياء، وأن لا يفرقوا بين أحد منهم، بل يؤمنوا بهم كلهم ...).(١)

وقال قتادة: (أمر الله المؤمنين أن يؤمنوا ويصدقوا بأنبيائه ورسله كلهم ولا يفرقوا بين أحد منهم).(٢)

وعد الرسول ﷺ الإيمان بالرسل أحد أركان الإيمان الستة التى لا يكون المرء مؤمنا إلا إذا استكملها، فقال ﷺ فى حديث جبريل المشهور: «**الإيمان أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره**».(٣)

---

(١) تفسير القرآن الكريم: ١ / ٢٧١.

(٢) انظر: ابن جرير فى تفسير: ٣ / ١١١.

(٣) مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان والإسلام: ١ / ٣٦، ٣٧.

فرسم القرآن الكريم لهذه الأمة طريقة الاستقامة، فاستجابت لأمر الله ورسوله وآمنت برسل الله جميعاً، وشهد الله لها بهذا الإيمان فى محكم كتابه فقال: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾. [البقرة: ٢٨٥].

وبلغ من عمق إيمانها برسل الله وتصديقها لهم، أنها تشهد لهم على أممهم بالبلاغ، كما تقدم فى حديث أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال:

قال رسول الله ﷺ: «**يدعى نوح يوم القيامة، فيقول: لبيك وسعديك يا رب، فيقول: هل بلغت؟ فيقول: نعم، فيقال لأمته، هل بلغكم؟ فيقولون: ما آتانا من نذير، فيقول من يشهد لك؟؛ فيقول: محمد وأمته، فيشهدون أنه قد بلغ، ويكون الرسول عليهم شهيداً، فذلك قوله جل ذكره، ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾**. [البقرة: ١٤٣]. (١).

الأمر الثانى: أنها لم تنتقص أحداً منهم، كما فعل غيرها من الأمم، بل وقرتهم وعزرتهم ونصرتهم، ونفت عنهم كل ما يقدح فى أشخاصهم أو نبوتهم ورسالتهم، وأثبتت عصمتهم من الكفر، وارتكاب الكبائر قبل الرسالة، وبعدها، وفى الصغائر خلاف، والجمهور على عصمتهم من تعمدها(٢). لأنهم صفوة الله من خلقه، كما أخبر الله فى غير ما آية من كتابه فقال: ﴿**إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ**﴾. [آل عمران: ٣٣] وقال عن موسى عليه السلام: ﴿**وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي**﴾. [طه: ٣٩] وقال عن عدد من رسله: ﴿**وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ**﴾. [ص: ٤٧] وقال عن جميع رسله: ﴿**اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ**﴾. [الحج: ٧٥].

فهذه الأمة تؤمن وتعتقد أن رسل الله وأنبيائه أفضل الخلق وأطهرهم وأزكاهم، وأنهم منزهون عن الدنايا مبرؤون من كل سوء صادقون فى

---

(١) أخرجه البخارى: كتاب التفسير، باب: (وكذلك جعلناكم أمة..) ٨/ ١٧١ رقم الحديث: ٤٤٨٧.

(٢) انظر لوامع الأنوار للسفارينى: ٢/ ٣٠٣-٣٠٥.

قوالهم،قدوة وأسوة فى أفعالهم وأعمالهم، لا يأتون منكراً ولا يقولون زوراً، ولا يستحقون ذماً ولا يستوجبون عقاباً، أمرنا الله بالاقتداء بهم واتباع هديهم فقال: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ ﴿٨٩﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾. [الأنعام:٨٩,٩٠].

وترى محبتهم واجبة، ونصرتهم لازمة؛ لذلك كان نبيها ورسولها محمد ﷺ، أحب إليها من النفس والمال، والولد والوالد، كما جاء فى الحديث الصحيح عن أنس رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين**».(١)

ولما أخذ رسول الله بيد عمر بن الخطاب وقال له عمر: يا رسول الله، لأنت أحب إلى من كل شىء إلا من نفسى، فقال النبى ﷺ: «**لا والذى نفسى بيده حتى أكون أحب إليك من نفسك**» فقال له عمر: فإنه الآن والله لأنت أحب إلى من نفسى، فقال النبى ﷺ: «**الآن يا عمر**»(٢).

ولقد كان الصحابة رضوان الله عليهم يفدون النبى ﷺ بأموالهم وأنفسهم، فكان منهم من يقيه بجسده وقع السهام والنبال كما صنع أبو دجانة(٣) رضي الله عنه فى غزوة أحد.(٤) ولم يخذلوه قط أو يتخلفوا عن نصره والقتال بين يديه، حتى قال قائلهم يوم بدر وهو المقداد بن عمرو رضي الله عنه(٥): يا رسول الله امضِ لما أراك الله فنحن معك، والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى:

---

(١) البخارى: كتاب الإيمان، باب حب الرسول ﷺ: ١/ ٥٨.

(٢) البخارى: الأيمان والنذور، باب كيف كانت يمين النبى ﷺ: ١١/ ٥٢٣، رقم: ٦٦٣٢.

(٣) أبو دجانة هو: سماك بن خرشة، متفق على شهوده بدراً، وكان ممن ذب عن النبى ﷺ يوم أحد استشهد باليمامة، انظر الإصابة: ٤/ ٥٨.

(٤) انظر سيرة ابن هشام: ٢/ ٨٢.

(٥) هو المقداد بن عمرو الكندى، شهد بدراً والمشاهد بعدها، وكان فارساً يوم بدر مات سنة ٣٣هـ فى خلافة عثمان، انظر ابن حجر، الإصابة: ٣/ ٤٥٤.

﴿ فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ ﴾[المائدة : ٢٤] ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون، فوالذى بعثك بالحق، لو سرت بنا إلى برك الغماد(١) لجالدنا معك من دونه حتى نبلغه . . . »(٢)

يرى الصحابى الجليل عبد الله بن مسعود رضي الله عنه هذا الموقف العظيم من المقداد رضي الله عنه مشيداً به متمنياً أن يكون هو صاحبه فيقول : (شهدت من المقداد بن الأسود مشهداً؛ لأن أكون صاحبه أحب إلى مما عدل به (٣) أتى النبى ﷺ وهو يدعو على المشركين فقال : لا نقول كما قال قوم موسى : ﴿ فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا ﴾ لكنا نقاتل عن يمينك وعن شمالك وبين يديك وخلفك فرأيت النبى ﷺ أشرق وجهه وسره، يعنى قوله) .(٤)

وقال سعد بن معاذ (٥) رضى الله عنه فى هذا المقام : (. . . فامض يا رسول الله لما أردت فنحن معك فوالذى بعثك بالحق، لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ما تخلف منا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غداً، إنا لصبر فى الحرب، صدق فى اللقاء لعل الله يريك منا ما تقر به عينك، فسر بنا على بركة الله، فسر رسول الله بقول سعد ونَشَّطَه ذلك . . .) .(٦)

فتأمل موقف هذه الأمة من نبيها، وانظر أى بون بينه وبين موقف قوم موسى عليه السلام فى قولهم : ﴿ فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ ﴾[المائدة : ٢٤] أو موقف النصارى الذى أسلموا نبيهم لأعدائهم ليقتلوه ويصلبوه بزعمهم،

---

(١) هو موضع وراء مكة بخمس ليال مما يلى البحر، وقيل : بلد باليمن، وقيل : موضع فى أقصى أرض هجر، وقيل : أقصى حجر باليمن . الحموى معجم البلدان : ١ / ٣٩٩، ٤٠٠ .

(٢) ابن هشام السيرة : ١ / ٦١٥ .

(٣) عدل به : أى وزن به والمراد المبالغة فى عظمة ذلك المشهد انظر : فتح البارى : ١ / ٢٨٧ .

(٤) البخارى : كتاب المغازى، باب قوله : ﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ ﴾ ٧ / ٢٨٧ .

(٥) هو سعد بن معاذ بن النعمان سيد الأوس، شهد بدراً، ورمى بسهم يوم الخندق فعاش بعد ذلك شهراً حتى حكم فى بنى قريظة ثم انتفض جرحه فمات وذلك سنة خمس انظر : ابن حجر الإصابة : ٢ / ٣٧ .

(٦) ابن هشام السيرة : ١ / ٦١٥ .

وتآمر بعض تلاميذه وحوارييه عليه، كما تقدم بيان ذلك فى فعل القوم من أنبيائهم.

الأمر الثالث: أنهم لم يغلوا فيهم أو يفرطوا فى مدحهم بالباطل؛ وإنما قدروهم حق قدرهم، وعزروهم ونصروهم، وأحبوهم، وعظموهم وأجلوهم غاية التعظيم والإجلال، ولم يفرطوا فى مدحهم ولم يبالغوا فى إطرائهم والثناء عليهم ولم يجاوزوا الحد فى ذلك، ولم ينزلوهم فوق المنزلة التى أنزلهم الله إياها، ولم يرفعوهم فوق المقام الذى لهم، فلم يجاوزوا بهم منزلة الرسالة والنبوة ومقام العبودية لله، وهما المقام والمنزلة التى أنزلهم الله إياها وأقامهم فيها، وخاطبهم وذكرهم بها فى كتابه العزيز (١) فقال عن نوح: ﴿ **ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا** ﴾. [الإسراء: ٣]. وقال عن داود عليه السلام: ﴿ **اصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ** ﴾. [ص: ١٧] وقال عن سليمان: ﴿ **وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ** ﴾. [ص: ٣٠].

وقال عن سليمان عليه السلام: ﴿ **وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ** ﴾. [ص: ٣٠] وقال عن أيوب عليه السلام: ﴿ **وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ** ﴾. [ص: ٤١] وقال فى إبراهيم وإسحاق ويعقوب عليهم السلام: ﴿ **وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ** ﴾. [ص: ٤٥] ثم قال عن عيسى عليه السلام: ﴿ **لَن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ** ﴾. [النساء: ١٧٢].

وقال عن خاتم الأنبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين: ﴿ **سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ...** ﴾ [الإسراء: ١] وقال: ﴿ **فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ (١٠) مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ** ﴾. [النجم: ١٠، ١١].

فمقام الرسالة والعبودية هو المقام الذى شرف به عباده المرسلين، ومَنَّ عليهم

---

١ - وسطية أهل السنة بين الفرق: ٢٨٢، ٢٨٣.

به، وهم صلوات الله وسلامه عليهم يأبون أن يرفعوا فوق ذلك، وينهون أممهم به ويحذرونهم من مجاوزة هذا المقام، ويقول فى هذا المصطفى ﷺ : «**لا تطرونى كما أطرت النصارى ابن مريم فإنما أنا عبده، فقولوا :عبد الله ورسوله**».(١)

فالأنبياء والمرسلون بشر يأكلون الطعام ويمشون فى الأسواق، ويتزوجون النساء، ولكثير منهم بنون وحفدة وليسوا بآلهة ولا أبناء الله، كما ضل النصارى فى عيسى عليه السلام، يقول الحق تبارك وتعالى مقرراً هذه الحقيقة :﴿ **قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ** ﴾[الكهف : ١١٠]﴿ **وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً** ﴾[الرعد :٣٨]﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الأَسْوَاقِ** ﴾[الفرقان : ٢٠].

فهذه منزلة الرسل والأنبياء كما جاءت فى القرآن لا إفراط ولا تفريط، ولا غلو ولا تقصير ،فآمنت بها أمة الإسلام، فرسل الله عبيد لا يعبدون، ورسل لا يكذبون، بل يطاعون ويتبعون.

١ – البخارى: أحاديث الأنبياء باب قول الله: ﴿ **وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ..** ﴾: ٦ / ٤٧٨.

الفصل السادس

وسطية القرآن فى اليوم الآخر

الفصل السادس
وسطية القرآن فى اليوم الآخر

المبحث الأول
أنواع المكذبين بالبعث

كذب كثير من الناس قديماً وحديثاً بالبعث والنشور، وبعض الذين قالوا بإثباته صوروه على غير الصورة التى أخبرت بها الرسل، وقد بين الله سبحانه وتعالى قول المكذبين وذمهم وكفرهم وتهددهم وتوعدهم، قال تعالى :﴿ وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُوْلَئِكَ الأَغْلاَلُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ .[الرعد :٥] ﴿ وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ (٢٩) وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ .[الأنعام:٢٩] وقال تعالى : ﴿ وَقَالُوا أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا (٤٩) قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا (٥٠) أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ . [الإسراء:٤٩-٥١].

وقد تعرض شيخ الإسلام ابن تيمية لبيان أنواع المكذبين بالبعث والنشور من اليهود والنصارى والصابئة والفلاسفة ومنافقى هذه الأمة فقال :(وإنما المخالف فى ذلك أحد رجلين إما كافر ، وإما منافق :

أما الكافر فإن اليهود والنصارى ينكرون الأكل والشرب والنكاح فى الجنة، يزعمون أن أهل الجنة إنما يتمتعون بالأصوات المطربة ، والأرواح الطيبة مع نعيم الأرواح ، وهم يقرون مع ذلك بحشر الأجساد مع الأرواح ونعيمهما وعذابهما، وأما طوائف من الكفار وغيرهم من الصابئة والفلاسفة ومن وافقهم فيقرون بحشر الأرواح فقط، وأن النعيم والعذاب للأرواح فقط .

وطوائف من الكفار والمشركين وغيرهم ينكرون المعاد بالكلية، فلا يقرون لا بمعاد الأرواح، ولا الأجساد، وقد بين الله تعالى فى كتابه على لسان رسوله أمر معاد الأرواح والأجساد، ورد على الكافرين والمنكرين لشيء من ذلك، بياناً تاماً غاية التمام والكمال.

وأما المنافقون من هذه الأمة الذين لا يقرون بألفاظ القرآن والسنة المشهورة فإنهم يحرفون الكلام عن مواضعه، ويقولون: هذه أمثال ضربت لنفهم المعاد الروحانى، وهؤلاء مثل القرامطة الباطنية الذين قولهم مؤلف من قول المجوس والصابئة، ومثل المتفلسفة الصابئة المنتسبين إلى الإسلام وطائفة ممن ضاهوهم: من كاتب أو متطبب أو متكلم، أو متصوف، كأصحاب رسائل (إخوان الصفا) وغيرهم، أو منافق وهؤلاء كلهم كفار يجب قتلهم باتفاق أهل الإيمان).(١)

وذكر رحمه الله تعالى فى موضع فى الآخرة بأمثال مضروبة لتفهيم ما يقوم بالنفس بعد الموت من اللذة والألم، لا بإثبات حقائق منفصلة يتنعم بها، ويتالم بها)(٢).

وحقيقة قول هؤلاء: أن الله لم يكن صادقاً فى إخباره عن حقائق ما فى المعاد، وكذلك رسوله ﷺ؛ ولذلك سمى شيخ الإسلام ابن تيمية هذا الصنف من المتفلسفة المخالف لما عليه المسلمون فى أمر المعاد (بأهل التخييل) وقال فيهم: (فأهل التخييل هم المتفلسفة ومن سلك سبيلهم، ومن متكلم ومتصوف، ومتفقه، فإنهم يقولون إن ما ذكره الرسول من أمر الإيمان بالله والآخرة إنما هو تخييل للحقائق لينتفع به الجمهور، لا أنه بين به الحق، ولا هدى الخلق، ولا أوضح الحقائق).(٣)

وقد صنف الدكتور عمر الأشقر المكذبين بالبعث والنشور إلى ثلاثة أصناف(٤):

الأول: الملاحدة الذين أنكروا وجود الخالق، ومن هؤلاء كثير من الفلاسفة

---

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية: ٤/٣١٣.
(٢) المرجع السابق: ١٣/٢٣٨.
(٣) مجموع الفتاوى: ٥/٣١.
(٤) اليوم الآخر القيامة الكبرى لعمر الأشقر: ٧٢.

الدهرية الطبائعية، ومنهم الشيوعيون فى عصرنا، وهؤلاء ينكرون صدور الخلق عن خالق، فهم منكرون للنشأة الأولى والثانية، ومنكرون لوجود الخالق أصلاً. ولا يحسن مناقشة هؤلاء فى أمر المعاد، بل يناقشون فى وجود الخالق ووحدانيته أولاً، ثم يأتى إثبات المعاد بعد ذلك؛ لأن الإيمان بالمعاد فرع عن الإيمان بالله.

الثانى: الذين يعترفون بوجود الخالق، ولكنهم يكذبون بالبعث والنشور، ومن هؤلاء العرب الذين قال الله فيهم: ﴿ **وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ** ﴾. [لقمان: ٢٥]وهم القائلون فيما حكاه الله عنهم: ﴿ **أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا وَآبَاؤُنَا أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ (٦٧) لَقَدْ وُعِدْنَا هَذَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ** ﴾. [النمل: ٦٧، ٦٨]. وهؤلاء يدعون أنهم يؤمنون بالله، ولكنهم يدعون أن قدرة الله عاجزة عن إحيائهم بعد إماتتهم، وهؤلاء هم الذين ضرب الله لهم الأمثال، وساق لهم الحجج والبراهين لبيان قدرته على البعث والنشور، وأنه لا يعجزه شيء ومن هؤلاء طائفة من اليهود يسمون بالصادقين، يزعمون أنهم لا يؤمنون إلا بتوراة موسى، وهم يكذبون بالبعث والنشور والجنة والنار.

الثالث: الذين يؤمنون بالمعاد على غير الصفة التى جاءت بها الشرائع.(١)

(١) نفس المصدر السابق ص ٧٢.

المبحث الثانى
نظرة فى نصوص اليوم الآخر عند أهل الكتاب

لا شك أن الكتب السماوية التى أنزلها الحق تبارك وتعالى كانت تزخر نصوصها بذكر اليوم الآخر، والتخويف منه، والتبشير بما أعده الله للمؤمنين به فى جنات النعيم، والتحذير من النار وأهوال القيامة، إلا أن هذه الكتب طرأ عليها تحريف كثير، وذهب كثير من نصوصها التى تتعرض لليوم الآخر(١).

ففى التوراة التى تنسب إلى موسى لا نجد إلا نصاً واحداً يصرح بيوم القيامة، وهو فى التوراة السامرية صريح للغاية، ولكنه فى التوراة العبرية يحتمل معنيين.

ففى التوراة السامرية(أليس هو مجموعاً عندى مختوماً فى خزائنى إلى يوم الانتقام والمكافأة وقت تزل أقدامهم).(٢)

وفى التوراة العبرانية هكذا: (أليس ذلك مكنوزاً عندى مختوماً عليه فى خزائنى، لى النقمة والجزاء فى وقت تزل أقدامهم).(٣)

فنص السامرية يدل على أن الفصل إنما يكون فى يوم القيامة الذى سماه يوم الانتقام والمكافأة، أما نص العبرانية فإنه يجيز أن يكون الانتقام فى الدنيا، ويجيز أن يكون فى الآخرة، ولذلك فإن الصادقين من اليهود الذين لا يؤمنون بتوراة موسى العبرية لا يؤمنون بالبعث والنشور؛ لعدم وجود دلالة تدل على البعث والنشور. أما أسفار الأنبياء الأخرى فى التوراة ففيها بعض النصوص التى تصرح بالبعث والنشور، وكذلك الأناجيل.

١ - ففى سفر دانيال (كثيرون من الراقدين تحت التراب يستيقظون، هؤلاء إلى الحياة الأبدية، وهؤلاء إلى العار والازدراء الأبدى).(٤)

---

(١) المرجع السابق: ٩٢. (٢) سفر التثنية الاشتراع، الإصحاح (٣٢) ٣٤، ٣٥ من التوراة السامرية.

(٣) التوراة العبرانية نقلاً عن اليوم الآخر القيامة الكبرى: ٩٢.

(٤) سفر دانيال الإصحاح: ١٢.

٢ – وفى سفر المزامير يذكر الحشر إلى النار فيقول :(مثل الغنم إلى النار يساقون، الموت يرعاهم، ويسودهم المستقيمون غداة، وصورتهم تبلى، والهاوية مسكن لهم)[١] .

٣ – وفى إنجيل لوقا إشارة إلى عذاب القبر، فقد جاء فيه :(ومات الغنى ودفن، فرفع عينيه فى الهاوية وهو فى العذاب)[٢] . فالمقبور من أهل الفجور يكون فى العذاب ويرى مقعده من النار، والهاوية : هى النار .

٤ – وفى إنجيل متى (فإن أعثرتك يدك أو رجلك فاقطعها وألقها عنك خير لك أن تدخل الحياة أعرج أو أقطع من أن تلقى فى النار الأبدية ولك يدان أو رجلان)[٣] .

٥ – ومن أكثر الكتب التى تحدثت عن الجنة والنار إنجيل برناباً، فقد تحدث عن أهل الجنة، وأنهم يأكلون ويشربون، ولكنهم لا يتبولون، ولا يتغوطون؛ لأن طعامهم وشرابهم ليس فيه خبث ولا فساد، ولكن النصارى يكذبون بهذا الإنجيل الذى ظهر أخيراً فى عصرنا هذا. النصارى يعتقدون أن الذى ينعم أو يعذب فى القيامة هو الروح فحسب، وقال بقولهم بعض الذين ينتسبون إلى الإسلام من الفلاسفة والفرق الباطنية الضالة [٤] .

---

(١) سفر المزامير الخامس والخمسين الفقرة : ٥ .

(٢) إنجيل لوقا الإصحاح السادس عشر الفقرة : ٢٢ .

(٣) إنجيل متى الإصحاح الثامن عشر الفقرة : ٨ .

(٤) اليوم الآخر القيامة الكبرى : ٩٤ .

المبحث الثالث
أدلة البعث والنشور

الإيمان بالمعاد دل عليه القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، والقرآن كله من فاتحته إلى خاتمته مملوء بذكر أحوال اليوم الآخر وتفاصيل ما فيه، وتقرير ذلك بالأخبار الصادقة والأمثال المضروبة للاعتبار والإرشاد، وكما ذكر القرآن الأدلة عليه، ورد على منكريه، وبين كذبهم وافتراءهم.

والفطرة السليمة تدل عليه وتهدى إليه، ولا صحة لما يزعمه الضالون من أن العقول تنفى وقوع البعث والنشور، فإن العقول لا تمنع وقوعه، والأنبياء لا يأتون بما تحيل العقول وقوعه، وإن جاؤوا بما يحير العقول (١) ومن وسطية القرآن، وحكمته واستقامته على الصراط المستقيم، جاءت الأدلة التى تكلمت على البعض بأساليب متنوعة ومتعددة تخاطب الفطرة والعقل السليم، وتؤثر فى أعماق القلوب، فإذا تأملت وتفكرت فى كتاب الله اتضح لك أدلة كثيرة منها:

أولاً: إخبار العليم الخبير بوقوع القيامة:

ومن أعظم الأدلة الدالة على وقوع المعاد: إخبار الحق تبارك وتعالى بذلك، فمن آمن بالله وصدق برسوله الذى أرسل، وكتابه الذى أنزل فلا مناص له من الإيمان بما أخبرنا به من البعث والنشور، والجزاء والحساب، والجنة والنار، وقد نوع الحق تبارك وتعالى أساليب الإخبار ليكون أوقع فى النفوس وآكد فى القلوب:

١ ـ ففى بعض المواضع يخبرنا بوقوع ذلك اليوم إخبارا مؤكدا (بأن) أو (بإن واللام) كقوله تعالى: ﴿إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾ [طه: ١٥] وقوله: ﴿إِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ﴾ [الحجر: ٨٥] وقوله: ﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ﴾ [الأنعام: ١٣٤] وقوله: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ﴾ [المرسلات: ٧].

٢ ـ وفى موضع آخر يقسم الله تعالى على وقوعه ومجيئه كقوله

---

(١) اليوم الآخر: ٧٣.

تعالى : ﴿ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لا رَيْبَ فِيهِ ﴾ .[النساء : ٨٦] .

ويقسم على تحقيق ذلك بما شاء من مخلوقاته كقوله :﴿ وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا (١) فَالْحَامِلاتِ وِقْرًا (٢) فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا (٣) فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا (٤) إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ (٥) وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ ﴾ .[الذاريات : ١-٦]وقوله : ﴿ وَالطُّورِ (١) وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ (٢) فِي رَقٍّ مَنْشُورٍ (٣) وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ (٤) وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ (٥) وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ (٦) إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ (٧) مَا لَهُ مِن دَافِعٍ ﴾ .[الطور : ١-٨] .

٣ - وفى بعض المواقع يأمر رسله بالإقسام على وقوع البعث وتحقيقه، وذلك فى معرض الرد على المكذبين به المنكرين له، كقوله : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُم ﴾ .[سبأ : ٣]وقوله : ﴿ وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ ﴾ .[يونس : ٥٣] وقوله :﴿ زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ﴾ .[التغابن : ٧] .

٤ - وفى مواضع أخرى يذم المكذبين بالمعاد كقوله :﴿ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴾ .[يونس : ٤٥] وقوله : ﴿ أَلا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلالٍ بَعِيدٍ ﴾ [الشورى : ١٨]وقوله : ﴿ بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ ﴾[النمل : ٦٦] .

٥ - وأحياناً يمدح المؤمنين بالمعاد :﴿ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُوا الأَلْبَابِ (٧) رَبَّنَا لا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ (٨) رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لاَّ رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللَّهَ لا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴾ .[آل عمران : ٧-٩] .

٦ - وأحياناً يخبر أنه وعد صادق، وخبر لازم، وأجل لا شك فيه : ﴿ ذَلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ (١٠٣) وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلاَّ لأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴾ .[هود : ١٠٣ ، ١٠٤] وقوله :﴿ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ﴾ .[الذاريات : ٥] .

٧ - وفى بعض الأحيان يخبر عن مجيئه واقترابه كقوله :﴿ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا (٦) وَنَرَاهُ قَرِيبًا ﴾ .[المعارج : ٦، ٧]وقوله :﴿ أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ ﴾ .[النحل : ١] .

٨ – وفى مواضع أخرى يمدح نفسه تبارك وتعالى بإعادة الخلق بعد موتهم، ويذم الآلهة التى يعبدها المشركون بعدم قدرتها على الخلق وإعادته كقوله: ﴿ وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلا يَمْلِكُونَ لأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلا نَفْعًا وَلا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلا حَيَاةً وَلا نُشُورًا ﴾ .[الفرقان: ٣].

٩ – وبين فى مواضع أخرى أن هذا الخلق وذاك البعث وبعثكم ﴿ إِلاَّ كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾ .[لقمان: ٦٤].

وقال: ﴿ أَيَحْسَبُ الإِنسَانُ أَن لَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُ (٣) بَلَىٰ قَادِرِينَ عَلَىٰ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُ ﴾ .[القيامة: ٣، ٤].

ثانياً :ومن وسطية القرآن فى إقناع الناس بالإيمان باليوم الآخر: الاستدلال على النشأة الأولى:

استدل القرآن على الخلق الثانى بالخلق الأول، فنحن نشاهد فى كل يوم حياة جديدة تخلق، أطفال يولدون، وطيور تخرج من بيضها، وحيوانات تلدها أمهاتها، وأسماك تملأ البحر والنهر، يرى الإنسان ذلك كله بأم عينيه، ثم ينكر أن يقع مثل ذلك مرة أخرى بعد أن يبيد الله هذه الحياة.

إن الذين يطلبون دليلاً على البعث بعد الموت يغفلون عن أن خلقهم على هذا النحو أعظم دليل، فالقادر على خلقه، قادر على إعادة خلقهم، وقد أكثر القرآن من الاستدلال على النشأة الآخرة بالنشأة الأولى، وتذكير العباد المستبعدين لذلك بهذه الحقيقة: ﴿ وَيَقُولُ الإِنسَانُ أَئِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا (٦٦) أَوَلا يَذْكُرُ الإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا ﴾ .[مريم: ٦٦–٦٧].

ويذكرنا القرآن فى موضع آخر بالخلق الأول للإنسان، فأبونا آدم خلقه الله من تراب، فالقادر على جعل التراب بشراً سوياً، لا يعجزه أن يعيده بشراً سوياً مرة أخرى بعد موته، ويذكرنا أيضاً بخلقنا نحن – ذرية آدم – فإنه خلقنا من سلالة من ماء مهين، تحول هذا الماء فأصبح نطفة، ثم صارت النطفة علقة، ثم تحولت إلى مضغة .. إلى أن نفخ فيها الروح، وجعلها إنساناً سوياً. فالقادر على هذا الخلق المشاهد المعلوم، قادر على إحياء الخلق وإحياء الموتى.(١)

---

(١) انظر : اليوم الآخر: ٧٧.

قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي الْقُبُورِ من فى الْقُبُورِ ﴾ .[الحج: ٥-٧].

وقد أمر الله عباده بالسير فى الأرض، والنظر فى كيفية بدء الخلق ليستدلوا بذلك على قدرته على الإعادة: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ .[العنكبوت: ١٩، ٢٠].

ثالثاً: ومن الأدلة التى ذكرت فى القرآن فى الاستدلال على البعث: القادر على خلق الأعظم قادر على خلق ما دونه قبيح فى نظر البشر أن يرمى بالعجز عن حمل الشيء الحقير من يستطيع حمل العظيم، ومثله إذا غلب إنسان رجلاً شديد البأس قوياً لا يقال له: إنك لا تستطيع أن تصرع هذا الهزيل الضعيف، ومن استطاع أن يبنى قصراً لا يعجزه بناء بيت صغير. ولله المثل الأعلى، فإن جملة خلقه ما هو أعظم من خلق الناس، فكيف يقال للذى خلق السموات والأرض أنت لا تستطيع أن تخلق ما دونها.(١)

قال تعالى: ﴿ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴾ .[يس: ٨١] وقال تعالى: ﴿ لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ ﴾ .[غافر: ٥٧].

قال ابن تيمية رحمه الله: (فإنه من المعلوم ببداهة العقول أن خلق السموات

---

(١) المرجع السابق: ٧٨ .

والأرض أعظم من خلق أمثال بنى آدم، والقدرة عليه أبلغ، وأن هذا الأيسر أولى بالإمكان والقدرة من ذلك) (١).

وقال شارح الطحاوية: (أخبر تعالى أن الذى أبدع السموات والأرض على جلالتهما قادر أن يحيى عظاماً قد صارت رميماً، فيردها إلى حالتها الأولى) (٢).

رابعاً: قدرته تبارك وتعالى على تحويل الخلق من حال إلى حال: الذين يكذبون بالبعث يرون هلاك العباد، ثم فناءهم فى التراب، فيظنون أن إعادتهم بعد ذلك مستحيلة: ﴿ وَقَالُوا أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الأَرْضِ أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾. [السجدة: ١٠].

والمراد بالضلال فى الأرض: تحلل أجسادهم، ثم اختلاطها بتراب الأرض، تقول: ضل السمن فى الطعام إذا ذاب وانماع فيه (٤).

وقد بين الحق تبارك وتعالى فى أكثر من موضع أن من تمام ألوهيته وربوبيته قدرته على تحويل الخلق من حال إلى حال، ولذا فإنه يميت ويحيى ويخلق ويفنى، ويخرج الحى من الميت، والميت من الحى قال تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ (٩٥) فَالِقُ الإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾. [الأنعام: ٩٥، ٩٦].

ومن الحبة الجامدة الصماء يخرج نبتة غضة خضراء تزهر وتثمر ثم تعطى هذه النبتة الحية حبوباً جامدة ميتة، ومن الطيور الحية يخرج البيض الميت، ومن البيض الميت تخرج الطيور المتحركة المغردة التى تنطلق فى أجواء الفضاء.

إن تقليب العباد، موت فحياة، ثم موت فحياة، دليل عظيم على قدرة الله تجعل النفوس تخضع لعظمته وسلطانه: ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾. [البقرة: ٢٨].

---

(١) مجموع الفتاوى لابن تيمية: ٣ / ٢٩٩.

(٢) اليوم الآخر: ٧٩.

(٣) اليوم الآخر: ٧٩.

وقد ذكرت الأدلة التى ذكرتها فى الاحتجاج على البعث من الاستدلال على النشأة الأخرى بالنشأة الأولى، ومن كون القادر على خلق الأعظم قادر على خلق ما دونه، وتحويل الخلق من حال إلى حال فى سورة يس فى موضع واحد من كتاب الله، وهذا يدل على وسطية القرآن واستقامته على الصراط المستقيم، واعتداله وقوة حجته فى إقناع الناس بإقامة الحجج والبراهين.

قال تعالى: ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ (٧٨) قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ (٧٩) الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ (٨٠) أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلاَّقُ الْعَلِيمُ (٨١) إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ (٨٢) فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ .[يس: ٧٨-٨٣].

ونزلت هذه الآيات فى أبى بن خلف أتى رسول الله ﷺ بعظم ثم قال: يامحمد من يحيى هذا وهو رميم؟ قال: « **الله يحيه ثم يميته ثم يدخلك النار** » ، فقتله رسول الله يوم أحد وقيل: نزلت فى العاص بن وائل.(١).

ولو كان صاحب المقولة المذكورة فى أسباب النزول لبيباً عاقلاً لم يسأل هذا السؤال؛ لأن وجوده وخلقه فى هذه الحياة يجيب على السؤال، وقد وضح النص هذا المعنى الذى أجمله فى البداية فقال: ﴿ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾ .[يس: ٧٩] فاحتج بالإبداء على الإعادة، وبالنشأة الأولى على النشأة الأخرى، إذ كل عاقل يعلم ضرورياً أن من قدر على هذه قدر على هذه وأنه لو كان عاجزاً عن الثانية لكان عن الأولى أعجز وأعجز.

ولما كان الخلق يستلزم قدرة الخالق على المخلوق، وعلمه بتفاصيل خلقه أتبع ذلك بقوله: ﴿ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾ .[يس: ٨٠] فهو عليم بتفاصيل الخلق الأول وجزئياته، مواده وصورته، فكذلك الثانى، فإذا كان تام العلم، كامل القدرة كيف يتعذر عليه أن يحيى العظام وهى رميم؟.(٢)

---

(١) انظر: جامع البيان لتفسير الطبرى: ١٢ / ٣٠.

(١) شرح العقيدة الطحاوية: ٤٦.

٢ – ثم أكد الأمر بحجة قاهرة وبرهان ظاهر، يتضمن جواباً عن سؤال ملحد آخر يقول: العظام إذا صارت رميماً عادت طبيعتها باردة يابسة، والحياة لابد أن تكون مادتها وحاملها طبيعة حارة رطبة بما يدل على أمر البعث، ففيه الدليل والجواب معاً، فقال: ﴿ الَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الأَخْضَرِ نَارًا فَإِذا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴾. [يس: ٨٠] فأخبر سبحانه بإخراج هذا العنصر، الذى هو فى غاية الحرارة واليبوسة من الشجر الأخضر الممتلئ بالرطوبة والبرودة، فالذى يخرج الشيء من ضده، تنقاد له مواد المخلوقات وعناصرها، ولا يستعصى عليه، هو الذى يفعل ما أنكره الملحد ودفعه من إحياء العظام وهى رميم.(١)

٣ – ثم أكد هذا بأخذ الدلالة من الشيء الأجل الأعظم، على الأيسر الأصغر فإن كل عاقل يعلم أن من قدر على العظيم الجليل فهو قادر على ما دونه بكثير قال تعالى: ﴿ أَوَلَيْسَ الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ﴾. [يس: ٨١].

فأخبر أن الذى أبدع السموات والأرض على جلالتهما، وعظم شانهما، وكبر أجسامهما، وسعتهما، وعجيب خلقهما، أقدر عليه أن يحيى عظاماً قد صارت رميماً، فيردها إلى حالتها الأولى.(٢)

٤ – ثم أكد تبارك وتعالى ذلك وبينه ببيان آخر، وهو أن فعله ليس بمنزلة غيره، الذى يفعل بالآلات والكلفة، والنصب والمشقة، ولا يمكنه الاستقلال بالفعل، بل لابد معه من إله ومعين بل يكفى فى خلقه لما يريد أن يخلقه ويكونه نفس إرادته وقوله للمكون: ﴿ كُن ﴾ فإذا هو كائن كما شاء وأراده ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾. [يس: ٨٢] ثم ختم هذه الحجة بإخباره أن ملكوت كل شيء بيده، فيفرق فيه بفعله وقوله: ﴿ فَسُبْحَانَ الَّذِى بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾. [يس: ٨٣].

خامساً: ومن أدلة البعث التى جاءت فى القرآن الكريم ما ذكر الله فى كتابه

---

(١) اليوم الآخر القيامة الكبرى: ٨٢.

(٢) شرح العقيدة الطحاوية: ٤٦٠.

من إحياء بعض الأموات فى هذه الحياة:

ومن ذلك ما أخبر الله تعالى عن قوم موسى قال تعالى: ﴿ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً ﴾ .[البقرة: ٥٥]فأخذتهم الصاعقة وهم ينظرون، ثم بعثهم بعد موتهم ﴿ فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ (٥٥) ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّن بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ .[البقرة: ٥٥، ٥٦] وقتيل بنى إسرائيل الذى اختلفوا فى قاتله فأمرهم نبيهم أن يذبحوا بقرة ويضربوا القتيل بجزء منها، فأحياه الله، وأخبر عمن قتله: ﴿ فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَٰلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ .[البقرة: ٧٣].

وأخبر المولى عز وجل عن الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف خشية الموت، فأماتهم الله ثم أحياهم قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ .[البقرة: ٢٤٣]

وأخبرنا المولى عز وجل عن قصة الذى مر على قرية وهى خاوية على عروشها، فتعجب من إحياء الله لها بعد موتها، فأماته الله مائة عام ثم بعثه حتى يوقن أن الله على كل شىء قدير قال تعالى: ﴿ أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ .[البقرة: ٢٥٩]

وإبراهيم عليه السلام دعا ربه أن يريه كيف يحيى الموتى، فكان هذا المشهد الذى حدثنا الحق تبارك وتعالى عنه: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ .[البقرة: ٢٦٠].

أمره الله أن يأخذ أربعة من الطيور فيذبحها، ثم يفرق أجزاءها على عدة جبال، ثم ناداها آمراً إياها بالاجتماع، فكان كل عضو يأتى ويقع فى مكانه، فلما تكامل اجتماعها نفخ الله فيها الروح وانطلقت محلقة فى الفضاء.

وعيسى عليه السلام كان يصنع من الطين كهيئة الطير ثم ينفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله، وكان يحيى الموتى بإذن الله، فقد قال لقومه: ﴿ وَرَسُولاً إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ .[آل عمران: ٤٩].

وأصحاب الكهف ضرب الله على آذانهم فى الكهف ثلاثمائة وتسع سنين ثم قاموا من رقدتهم بعد تلك الأزمان المتطاولة: ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا ﴾ .[الكهف: ١٢] ﴿ وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ ﴾ .[الكهف: ١٩] ﴿ وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا ﴾ .[الكهف: ٢٥].

وكانت آية موسى الكبرى عصا جامدة يلقيها على الأرض فتتحول بقدرة الله إلى ثعبان مبين: ﴿ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴾ .[الشعراء: ٣٢]، وعندما ألقى السحرة حبالهم وعصيهم ألقى موسى عصاه فإذا هى تبتلع تلك العصى والحبال على كثرتها ﴿ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴾ .[الشعراء: ٤٥].

سادساً: ومن أدلة القرآن على إثبات البعث، ضربه المثل بإحياء الأرض بالنبات، وقد ضرب الله المثل لإعادة الحياة إلى الجثث الهامدة والعظام البالية بإحيائه الأرض بعد موتها بالنبات: ﴿ فَانظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ .[الروم: ٥٠] وقال: ﴿ وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَٰلِكَ النُّشُورُ ﴾ .[فاطر: ٩].

سابعاً: والدليل السابع الذى ذكر فى القرآن: الاستدلال بحكمة الله حيث إن حكمته تقتضى بعث العباد للجزاء والحساب. فإن الله خلق الخلق لعبادته وأرسل الرسل، وأنزل الكتب؛ لبيان الطريق الذى يعبدونه ويطيعونه ويتبعون أمره ويجتنبون نهيه، فمن العباد من استقام على طاعة الله، وبذل نفسه وماله فى

سبيل ذلك، ومنهم من رفض الاستقامة على طاعة الله، وطغى وبغى، أفليس بعد ذلك أن يموت الصالح والطالح، ولا بد أن يجزى الله المحسن بإحسانه والمسىء بإساءته، قال تعالى: ﴿ أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ (٣٥) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (٣٦) أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴾ .[القلم: ٣٥-٣٧].

إن الملاحدة الذين ظلموا أنفسهم هم الذين يظنون الكون خلق عبثاً وباطلاً لا لحكمة، وأنه لا فرق بين مصير المؤمن المصلح والكافر المفسد، ولا بين التقى والفاجر، قال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ (٢٧) أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ﴾ .[ص: ٢٧، ٢٨].

فهذه أساليب القرآن فى إقناع الناس بالبعث اعتمدت على خطاب العقل والانسجام مع الفطرة، والتجاوب مع القلوب، ونجد فى القرآن الكريم وصف لأهوال يوم القيامة، ويصور القرآن الكريم بعض معالم أهوال يوم القيامة، من قبض الأرض وطى السماء، ودك الأرض ،ونسف الجبال، وتفجير البحار وتسجيرها، وموران السماء وانفطارها، وتكوير الشمس، وخسوف القمر، وتناثر النجوم، ويصور لنا القرآن الكريم حال الكفار وذلتهم وهوانهم وحسرتهم وياسهم وإحباط أعمالهم، وتخاصم العابدين والمعبودين وتخاصم الأتباع وقادة الضلالة، وتخاصم الضعفاء والسادة، وتخاصم الكافر وقرينه الشيطان، ومخاصمة الكافر أعضاءه وتخاصم الروح والجسد، وتكلم القرآن عن الشفاعة وبين شروطها والمقبول منها والمرفوض، والمراد بالحساب والجزاء، وعن مشهد الحساب، وهل يسأل الكفار؟ ولماذا يسألون؟ وحدثنا القرآن الكريم عن اقتصاص المظالم بين الخلق، وكيف يكون الاقتصاص فى يوم القيامة، وبَيَّنَ المولى عز وجل فى القرآن عظم شأن الدماء، وبين أن هناك يوم القيامة توضع الموازين التى توزن بها الأعمال، وأخبرنا النبى ﷺ عن الحوض ومن الذين يردون عن الحوض والذين يذادون عنه.

وصور القرآن الكريم حشر الكفار إلى النار، ومرور المؤمنين على الصراط، وخلاص المؤمنين من المنافقين، وهذا الذى ذكرنا كله من وسطية القرآن فى باب الإيمان باليوم الآخر، وحكمته البالغة فى إخباره بما ينفع الناس وترغيبهم وترهيبهم منه، حتى يستعدوا لذلك اليوم بالأعمال الصالحة ويبتعدوا عن الأعمال المحرمة.

المبحث الرابع
طعام أهل النار وشرابهم ولباسهم

تكلم القرآن الكريم عن طعام أهل النار وبين أنه الضريع والزقوم، وأن شرابهم الحميم والغسلين، والغساق قال تعالى: ﴿ لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلاَّ مِن ضَرِيعٍ (٦) لا يُسْمِنُ وَلا يُغْنِي مِن جُوعٍ ﴾ .[الغاشية: ٦، ٧]والضريع: شوك بارض الحجاز يقال له: الشبرق.

وعن ابن عباس: الشبرق: (نبت ذو شوك لا طئ بالأرض، فإذا هاج سمى ضريعاً).(١)

وقال قتادة: (من أضرع الطعام وأبشعه)(٢).

وهذا الطعام أكلهم له نوع من أنواع العذاب، لا يتلذذون به ولا تنتفع به أجسادهم.

أما الزقوم فقال تعالى فيه: ﴿ إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ (٤٣) طَعَامُ الأَثِيمِ (٤٤) كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ (٤٥) كَغَلْيِ الْحَمِيمِ ﴾، وقد وصف الله شجرة الزقوم فى آية أخرى فقال: ﴿ أَذَلِكَ خَيْرٌ نُزُلاً أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ (٦٢) إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ (٦٣) إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ (٦٤) طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ (٦٥) فَإِنَّهُمْ لآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ (٦٦) ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ (٦٧) ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لإِلَى الْجَحِيمِ ﴾ .[الصافات: ٦٢- ٦٨]

وقال فى موضع آخر: ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ (٥١) لآكِلُونَ من شجر مِّن زَقُّومٍ (٥٢) فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ (٥٣) فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ (٥٤) فشاربون شُرْبَ الْهِيمِ (٥٥) هَذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ ﴾ .[الواقعة: ٥١ – ٥٦].

ويؤخذ من هذه الآيات أن هذه الشجرة خبيثة، جذورها تضرب فى قعر النار، وفروعها تمتد فى أرجائها، وثمر هذه الشجرة قبيح المنظر؛ لذلك شبهت

(١، ٢) التخويف من النار لابن رجب: ١١٥.

برؤوس الشياطين، وقد استقر فى النفوس قبح رؤوسهم وإن كانوا لا يرونهم، ومع خبث هذه الشجرة وخبث طلعها، إلا أن أهل النار يلقى عليهم الجوع بحيث لا يجدون مفراً من الأكل منها إلى درجة ملء البطون، فإذا امتلأت بطونهم أخذت تغلى فى أجوافهم كما يغلى دردى الزيت، فيجدون لذلك آلاماً مبرحة، فإذا بلغت الحال بهم هذا المبلغ اندفعوا إلى الحميم وهو الماء الحار الذى تناهى حره، فشربوا منه كشرب الإبل التى تشرب وتشرب ولا تروى لمرض أصابها، وعند ذلك يقطع الحميم أمعاءهم ﴿ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ ﴾ .[محمد : ١٥] هذه هى ضيافتهم فى ذلك اليوم العظيم(١) .

وإذا أكل أهل النار هذا الطعام الخبيث من الضريع والزقوم غصوا به لقبحه وخبثه وفساده : ﴿ إِنَّ لَدَيْنَا أَنكَالاً وَجَحِيمًا (١٢) وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ﴾ .[المزمل : ١٢ ، ١٣] .

ومن طعام أهل النار الغسلين، قال تعالى : ﴿ فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ (٣٥) وَلا طَعَامٌ إِلاَّ مِنْ غِسْلِينٍ (٣٦) لا يَأْكُلُهُ إِلاَّ الْخَاطِئُونَ ﴾ .[الحاقة : ٣٥-٣٧] وقال تعالى : ﴿ هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ (٥٧) وَآخَرُ مِن شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ ﴾ [ص : ٥٧ ، ٥٨] .

والغسلين والغساق بمعنى واحد، وهو ما سال من جلود أهل النار من القيح والصديد، وقيل : ما يسيل من فروج النساء الزوانى ومن نتن لحوم الكفرة وجلودهم، وقال القرطبى : (هو عصارة أهل النار)(٢) .

أما شرابهم فهو الحميم قال تعالى : ﴿ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ ﴾ .[محمد : ١٥] وقال : ﴿ وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِى الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا ﴾ .[الكهف : ٢٩] وقال : ﴿ وَيُسْقَىٰ مِن مَّاءٍ صَدِيدٍ (١٦) يَتَجَرَّعُهُ وَلا يَكَادُ يُسِيغُهُ ﴾ .[إبراهيم : ١٦ ، ١٧] وقال : ﴿ هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴾ .[ص : ٥٧]وقد ذكرت هذه الآيات أربعة أنواع من شراب أهل النار :

الأول : الحميم، وهو الماء الحار الذى تناهى حره .

---

(١) اليوم الآخر الجنة والنار لعمر الأشقر : ٨٨ .

(٢) يقظة أولى الاعتبار مما ورد فى ذكر الجنة والنار صديق حسن : ٨٦ .

الثانى: الغساق، وقد مضى الحديث عنه، فإنه يذكر فى ماكول أهل النار ومشروبهم.

الثالث: الصديد، وهو ما يسيل من لحم الكافر وجلده.

الرابع: المهل وهو كعكر الزيت، فإذا قرب وجهه سقطت فروة وجهه فيه.(١)

أكلهم النار:

ومن أصحاب الذنوب من يطعمه الله جمر جهنم جزاء وفاقاً، قال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا ﴾. [النساء: ١٠].

وقال: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ ﴾. [البقرة: ١٧٤].

لباس أهل النار:

أما لباس أهل النار فقد أخبرنا تبارك وتعالى أنه يفصِّل لأهل النار حلل من النار، كما قال تعالى: ﴿ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ ﴾. [الحج: ١٩] وكان إبراهيم التيمى إذ تلا هذه الآية يقول: (سبحان من خلق من النار ثياباً).(٢)

وقال تعالى: ﴿ وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ (٤٩) سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ النَّارُ ﴾. [إبراهيم: ٤٩ ، ٥٠] والقطران: هو النحاس المذاب.

---

(١) اليوم الآخر الجنة والنار: ٩٠.

(٢) التخويف من النار لابن الجورى: ١١٦.

المبحث الخامس
صور من عذاب أهل النار

أولاً: تفاوت عذاب أهل النار.

إن الآيات القرآنية قد بينت تفاوت أصحاب النار فى العذاب كقوله تعالى: ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِى الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ ﴾ .[النساء: ١٤٥]وقوله: ﴿ ويوم تقوم السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴾ .[غافر: ٤٦] وقوله: ﴿ الَّذين كفروا وصدُّوا عن سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ ﴾ . [النحل: ٨٨].

وقد بين النبى ﷺ ذلك فى قوله: «**إن منهم من تأخذه النار إلى كعبيه، ومنهم من تأخذه إلى ركبتيه، ومنهم من تأخذه إلى حجزته، ومنهم من تأخذه إلى ترقوته**» . وفى رواية :«**إلى عنقه**» .(١) وفى صحيح البخارى: حدثنا رسول الله ﷺ عن أخف الناس عذاباً فقال: «**إن أهون أهل النار عذاباً يوم القيامة لرجل توضع فى أخمص قدميه جمرة تغلى منها دماغه**» .(٢)

وعن تفاوت أصحاب النار فى العذاب يقول القرطبى: (هذا الباب يدلك على أن كفر من كفر فقط، ليس ككفر من طغى وكفر وتمرد وعصى، ولا شك أن الكفار فى عذاب جهنم متفاوتون، كما قد علم من الكتاب والسنة، ولأنا نعلم على القطع والثبات أنه ليس عذاب من قتل الأنبياء والمسلمين، وفتك فيهم، وأفسد فى الأرض وكفر مساويا لعذاب من كفر فقط، وأحسن للأنبياء والمسلمين، ألا ترى أبا طالب كيف أخرجه النبى ﷺ إلى ضحضاح لنصرته إياه وذبه عنه وإحسانه إليه).(٣)

وقال ابن رجب: (واعلم أن تفاوت أهل النار فى العذاب هو بحسب تفاوت

---

(١) رواه مسلم فى كتاب الجنة وصفة نعيمها، باب: شدة حر النار: ٤ / ٢١٨٥ .

(٢) البخارى مع الفتح ،كتاب الرقاق، باب: صفة الجنة والنار: ١١ / ٤٢٤ .

(٣) التذكرة للقرطبى: ٤٠٩

أعمالهم التى أدخلوا بها النار) إلى أن قال : (وكذلك تفاوت عذاب عصاة الموحدين فى النار بحسب أعمالهم، فليس عقوبة أهل الكبائر كعقوبة أصحاب الصغائر، وقد يخفف عن بعضهم بحسنات أخر له أو بما شاء الله من الأسباب، ولهذا يموت بعضهم فى النار) .(١)

ثانياً : إنضاج الجلود :

إن نار الله يوم القيامة تحرق جلود أهل النار، والجلد موضع الإحساس بالم الاحتراق، ولذلك فإن الله يبدل لهم جلوداً أخرى غير تلك التى احترقت لتحترق من جديد قال تعالى : ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا** ﴾ . [النساء : ٥٦] .

ثالثاً : الصهر :

من ألوان العذاب التى ذكرت فى القرآن : صب الحميم فوق رؤوسهم، والحميم هو ذلك الماء الذى انتهى حره، فلشدة حره تذوب أمعاؤهم وما حوته بطونهم : ﴿ **فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ (١٩) يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ** ﴾ .[الحج : ١٩] .

أخرج الترمذى من حديث أبى هريرة عن النبى ﷺ قال : « **إن الحميم ليصب على رؤوسهم فينفذ حتى يخلص إلى جوفه فيسلت ما فى جوفه، حتى يمرق من قدميه، وهو الصهر، ثم يعود كما كان** » . وقال : حسن غريب صحيح .(٢)

رابعاً : اللفح :

ومن إهانة الله لأهل النار : أنهم يحشرون فى يوم القيامة على وجوههم عمياً وصماً وبكماً . قال تعالى : ﴿ **وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَّأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا** ﴾ .[الإسراء : ٩٧] ويلقون فى النار على وجوههم : ﴿ **وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ** ﴾ .[النمل : ٩٠] .

---

(١) التخويف من النار : ١٤٢-١٤٣ .

(٢) جامع الأصول لابن الاثير : ١٠ / ٥٤٠ والترمذى كتاب صفة جهنم، باب : ما جاء فى شراب اهل النار رقم : ٢٥٨، ٥ / ٦٠٧ .

ثم إن النار تلفح وجوههم وتغشاها أبداً لا يجدون حائلاً يحول بينهم وبينها: ﴿ لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلا عَن ظُهُورِهِمْ وَلا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾.[الأنبياء: ٣٩] ﴿ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ ﴾.[المؤمنون: ١٠٤] ﴿ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ النَّارُ ﴾ [إبراهيم: ٥٠] ﴿ أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾[الزمر: ٢٤].

وانظر إلى هذا المنظر الذى تقشعر لهوله الأبدان: ﴿ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولاْ ﴾.[الأحزاب: ٦٦].

خامساً: السحب:

ومن أنواع العذاب الأليم: سحب الكفار فى النار على وجوههم: ﴿ إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِى ضَلالٍ وَسُعُرٍ (٤٧) يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ ﴾.[القمر: ٤٧، ٤٨] ويزيد من آلامهم حال سحبهم فى النار أنهم مقيدون بالقيود والأغلال والسلاسل: ﴿ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٧٠) إِذِ الأَغْلالُ فِى أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلاسِلُ يُسْحَبُونَ (٧١) فِى الْحَمِيمِ ثُمَّ فِى النَّارِ يُسْجَرُونَ ﴾.[غافر: ٧٠-٧٢].

سادساً: تسويد الوجوه:

يسود الله فى الدار الآخرة وجوه أهل النار: ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾.[آل عمران: ١٠٦]وهو سواد شديد، كأنما حلت ظلمة الليل فى وجوههم: ﴿ وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَّا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾.[يونس: ٢٧].

سابعاً: إحاطة النار بالكفار:

قال تعالى: ﴿ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾.[البقرة: ٨١] ولا يكون المرء كذلك إلا إذا كان كافراً مشركاً، يقول صديق حسن خان[١]: (المراد بالسيئة هنا الجنس، ولابد أن يكون سببها محيطا به من جميع جوانبه، فلا تبقى له حسنة، وسدت عليه مسالك النجاة، والخلود

فى النار هو للكفار والمشركين، فيتعين تفسير السيئة والخطيئة فى هذه الآية بالكفر والشرك، وبهذا يبطل تشبث المعتزلة والخوارج، لما ثبت فى السنة متواتراً من خروج عصاة الموحدين من النار).(٢)

ولما كانت الخطايا والذنوب تحيط بالكافر إحاطة السوار بالمعصم، فإن الجزاء من جنس العمل ، ولذا فإن النار تحيط بالكفار من كل جهة، كما قال تعالى : ﴿ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ﴾.[الأعراف : ٤١]

والمهاد : ما يكون من تحتهم، والغواش : جمع غاشية وهى التى تغشاهم من فوقهم، والمراد أن النيران تحيط بهم من فوقهم ومن تحتهم، قال تعالى : ﴿ يوم يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ من فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ ﴾.[العنكبوت : ٥٥]وقال فى موضع آخر : ﴿ لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ﴾.[الزمر : ١٦]وقد صرح بالإحاطة فى موضع آخر : ﴿ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكافرين ﴾.[التوبة : ٤٩] وقد فسر بعض السلف المهاد بالفراش، والغواش باللحف .(٣)

وتأتى الإحاطة من ناحية أخرى، وذلك أن للنار سُوراً يحيط بالكفار ، فلا يستطيع الكفار مغادرتها أو الخروج منها، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّا أَعْتَدْنَا للظَّالمين نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِى الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا ﴾.[الكهف : ٢٩].

وسرادق النار سورها وحائطها الذى يحيط بها(٤).

ثامنا : اطلاع النار على الأفئدة :

قال تعالى : ﴿ كَلاَّ لَيُنْبَذَنَّ فِى الْحُطَمَةِ ﴿٤﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ ﴿٥﴾ نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ

---

(١) أحد علماء الهند المجددين والسالكين سبيل السلف الصالح، محمد صديق خان بن حسن بن على ابن لطف الله الحسينى البخارى القنوجى أبو الطيب، ولد ونشأ فى قنوج بالهند، وتزوج بملكة بهوبال، وأخذ عليه مداراته للإنجليز وتولى بعض الأمور لهم توفى سنة ١٣٠٧ . انظر الأعلام : ٦ / ١٦٧ .

(٢) يقظه أولى الاعتبار : ٦٧ .

(٣) تفسير ابن كثير : ٣ / ١٦٨ .

(٤) اليوم الآخر الجنة والنار : ١٠٢ .

﴿ ٦ ﴾ الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الأَفْئِدَةِ ﴾ .[الهمزة : ٤-٧] قال محمد بن كعب(١) القرظى :(تأكله النار إلى فؤاده، فإذا بلغت فؤاده أنشئ خلقه)، وعن ثابت البنانى(٢) أنه قرأ هذه الآية، ثم قال : (تحرقهم النار إلى الأفئدة وهم أحياء لقد بلغ منهم العذاب، ثم يبكى) .(٣)

تاسعاً : قيود أهل النار وأغلالهم وسلاسلهم ومطارقهم :

أعد الله لأهل النار سلاسلاً وأغلالاً وقيوداً ومطارقا : ﴿ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلاسِلَ وَأَغْلالاً وَسَعِيراً ﴾ .[الإنسان : ٤] ﴿ إِنَّ لَدَيْنَا أَنكَالاً وَجَحِيماً (١٢) وطَعَاماً ذا غُصَّةٍ وَعَذَاباً أَلِيماً ﴾ .[المزمل : ١٢، ١٣] والأغلال توضع فى الأعناق، ﴿ وجعلنا الأغلال فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ .[سبأ : ٣٣] ﴿ إِذِ الأَغْلالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلاسِلُ يُسْحَبُونَ ﴾ . [غافر : ٧١] .

والأنكال : القيود؛ سميت أنكالا لأنه يعذبهم ويُنكل بهم بها ﴿ لدينا أَنكَالاً ... ﴾ [المزمل : ١٢] والسلاسل نوع آخر من ألوان العذاب التى يقيد بها المجرمون كما يقيد المجرمون فى الدنيا، وانظر إلى هذه الصورة التى أخبرنا بها الكتاب الكريم : ﴿ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ (٣٠) ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ (٣١) ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ ﴾ .[الحاقة : ٣٠-٣٢] وأعد الله لأهل النار مقامع من حديد وهى المطارق التى تهوى على المجرمين وهم يحاولون الخروج من النار، فإذا بها تعلوح بهم مرة أخرى إلى سواء الجحيم ﴿ وَلَهُم مَّقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ (٢١) كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴾ . [الحج : ٢١، ٢٢] .

عاشراً : قرن معبوداتهم وشياطينهم فى النار :

---

(١) هو محمد بن كعب بن سليم القرظى المدنى من حلفاء الأوس كان أبوه من سبى بنى قريظة إمام علامة صادق توفى ١٠٨هـ. سير أعلام النبلاء : ٥ / ٦٥ شذرات الذهب : ١ / ١٣٦، وتهذيب التهذيب : ٩ / ٤٢٠ .

(٢) هو الإمام الزاهد التابعى الفاضل، ثابت بن أسلم البنانى أبو محمد أنس بن مالك وهو أثبت الناس فى أنس وهو من الثقات الأثبات توفى سنة ١٢٧هـ، وقيل :١٢٣هـ، انظر: تهذيب التهذيب : ٢ / ٢ .

(٣) التخويف من النار، لابن رجب : ١٤٦ .

قال تعالى: ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ (٩٨) لَوْ كَانَ هَؤُلَاءِ آلِهَةً مَّا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ .[الأنبياء: ٩٨-٩٩] يقول ابن رجب: (لما عبد الكفار الآلهة من دون الله، واعتقدوا أنها تشفع لهم عند الله، وتقربهم إليه، عوقبوا بأن جُعِلَتْ معهم فى النار إهانة لهم وإذلالاً، ونكاية لهم وإبلاغاً فى حسرتهم وندامتهم، فإن الإنسان إذا قرن فى العذاب بمن كان سبب عذابه كان أشد فى ألمه وحسرته).(١)

قال القرطبي: (وإنما يجمعان فى جهنم، لأنهما قد عبدا من دون الله، لا تكون النار عذاباً لهما، لأنهما جماد، وإنما يفعل ذلك بهما زيادة فى تبكيت الكافرين وحسرتهم، وهكذا قال بعض أهل العلم).(٢) ولهذا المعنى يقرن الكفار بشياطينهم ليكون أشد لعذابهم ﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ (٣٦) وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ (٣٧) حَتَّىٰ إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ (٣٨) وَلَن يَنفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴾ .[الزخرف: ٣٦-٣٩].

الحادى عشر: حسرتهم وندمهم ودعاؤهم:

عندما يرى الكفار النار يندمون أشد الندم، ولات ساعة مندم ﴿ وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ .[يونس: ٥٤] وعندما يطلع الكافر على صحيفة أعماله، فيرى كفره وشركه الذى يؤهله للخلود فى النار، فإنه يدعو بالثبور والهلاك، ﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ (١٠) فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا (١١) وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ﴾ .[الانشقاق: ١٠-١٢].

ويتكرر دعاؤهم بالويل والهلاك عندما يلقون فى النار، ويصلون حرها ﴿ وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا (١٣) لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا ﴾ .[الفرقان: ١٣، ١٤] وهناك يعلو صراخهم ويشتد عويلهم، ويدعون ربهم آملين أن يخرجهم من النار ﴿ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ

---

(١) التخويف من النار لابن رجب: ١٠٥.

(٢) التذكرة للقرطبى: ٣٩٢.

الَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ﴾ .[فاطر:٣٧] وهم يعترفون فى ذلك الوقت بضلالهم وكفرهم وقله عقولهم: ﴿ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِى أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ .[الملك: ١٠] ولكن طلبهم يرفض بشدة، ويجابون بما يستحق أن تجاب به الأنعام﴿ قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ (١٠٦) رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ (١٠٧) قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴾ . [المؤمنون:١٠٦-١٠٨].

لقد حق عليهم القول، وصاروا إلى المصير الذى لا ينفع معه دعاء ولا يقبل فيه رجاء ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ (١٢) وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (١٣) فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ . [السجدة:١٢-١٤]

ويتوجه أهل النار بعد ذلك النداء إلى خزنة النار، يطلبون منهم أن يشفعوا لهم كى يخفف الله عنهم شيئاً مما يعانونه: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ فِى النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ (٤٩) قَالُوا أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَىٰ قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَالٍ ﴾ .[غافر:٤٩، ٥٠] وعند ذلك يسألون الشفاعة كى يهلكهم ربهم: ﴿ وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ ﴾ .[الزخرف:٧].

لقد خسر هؤلاء الظالمون أنفسهم وأهليهم عندما استحبوا الكفر على الإيمان، واستمع إلى عويلهم وهم يرددون حال العذاب ﴿ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَا (٦٦) وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا (٦٧) رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴾ .[الأحزاب:٦٦-٦٨] ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِى النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ (١٠٦) خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ ﴾.[هود:١٠٦، ١٠٧].

قال الليث [١] رحمه لله: (الزفير أن يملأ الرجل صدره حال كونه فى الغم الشديد من النفس ويخرجه، والشهيق أن يخرج ذلك النفس). [٢]

وما ذكرت من صور العذاب فى القرآن الكريم يدل على أن العذاب حسى ومعنوى وفيه من الوضوح والبيان ما يجعل الإنسان صاحب الفطرة السوية من أن يستجيب لأوامر الله ويجتنب نواهيه، وهذه الصور الحية لا توجد فى التوراة ولا فى الإنجيل ولا فى غيرها من الكتب المقدسة، وهذا يدل على وسطية القرآن وحكمته فى عرض اليوم الآخر بمشاهده الحية فى الترهيب بدون إفراط أو تفريط أو زيادة أو نقصان. وبإذن الله سنتكلم فى الصفحات القادمة عن جانب الترغيب والله الهادى إلى سواء السبيل.

(١) الليث بن سعد هو شيخ الديار المصرية الليث بن سعد بن عبد الرحمن الفهمى ويكنى ابا الحارث ولد سنة ٩٤هـ بقرقشند، كان غنياً سخياً يزيد دخله عن عشرين الف دينار سنوياً ومع ذلك لم تجب الزكاة فى ماله لأنه من شدة سخائه ما كان يبقى عنده نصاب الزكاة قال الشافعى فيه: الليث افقه من مالك، إلا أنه ضيعه أصحابه. توفى عام ١٧٥هـ. انظر ترجمته فى تاريخ بغداد: ١٣/ ٣، تذكرة الحفاظ: ١/ ٣٠٧.

(٢) يقظة أولى الاعتبار، لصديق حسن خان: ٧٢.

المبحث السادس
صفة الجنة

أولاً: الجنة لا مثل لها:

إن نعيم الجنة شيء أعده الله لعباده المتقين نابع من كرم الله وجوده وفضله، ووصف لنا المولى عز وجل شيئاً من نعيمها إلا أنه ما أخفاه الله عنا من نعيم شيء عظيم لا تدركه العقول، ولا تصل إلى كنهه الأفكار، قال تعالى: ﴿ فلا تَعْلَمُ ﴾. [السجدة: ١٧].

وقد جاء فى الصحيح عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**قال الله: أعددت لعبادى الصالحين مالا عين رأت، ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، فاقرؤا إن شئتم ﴿ فلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾** [السجدة: ١٧]»[١].

وقد بين الله سبحانه وتعالى سبب هذا الجزاء بما وفقهم إليه من أعمال عظيمة من قيام ليل، وإنفاق فى سبيله قال تعالى: ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (١٦) فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾. [السجدة: ١٦، ١٧].

ثانياً: أبواب الجنة:

وصف الله سبحانه وتعالى فى كتابه الجنة بأن لها أبواباً يدخل منها المؤمنون كما تدخل منها الملائكة قال تعالى: ﴿ جَنَّاتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ الأَبْوَابُ ﴾. [ص: ٥٠] ﴿ وَالْمَلائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ (٢٣) سَلامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴾ [الرعد: ٢٣، ٢٤].

وأخبر الحق تبارك وتعالى أن هذه الأبواب تفتح عندما يصل المؤمنون إليها، وتستقبلهم الملائكة محيية بسلامة الوصول: ﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ

---

(١) البخارى مع الفتح، كتاب بدء الخلق، باب صفة الجنة: ٦/ ٣٦٦ رقم: ٣٢٤٤.

لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ ﴾.[الزمر:٧٣].

وعدد أبواب الجنة: ثمانية، وأحد هذه الأبواب يسمى: الريان: وهو خاص بالصائمين كما فى حديث البخارى عن النبى ﷺ قال: «**فى الجنة ثمانية أبواب فيها باب يسمى الريان لا يدخله إلا الصائمون**».(١) وقد بين العلماء أن هناك باب للمكثرين من الصلاة، وبابا للمتصدقين وبابا للمجاهدين، فمن كان من أهل الجهاد دعى من باب الجهاد، ومن كان من أهل الصلاة دعى من باب الصلاة وهكذا.(٢)

ثالثاً: درجات الجنة:

إن أهل الجنة متفاوتون فيما بينهم على حسب أعمالهم وتوفيق الله لهم وكذلك درجاتهم فى الآخرة، بعضها فوق بعض قال تعالى: ﴿ **وَمَن يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُوْلَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَىٰ** ﴾.[طه:٧٥]

وأولياء الله المؤمنون المتقون فى تلك الدرجات بحسب إيمانهم وتقواهم قال تعالى: ﴿ **مَن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا (١٨) وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا (١٩) كُلاًّ نُّمِدُّ هَؤُلاءِ وَهَؤُلاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا (٢٠) انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَلَلآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً** ﴾.[الإسراء:١٨-٢١]

فبين سبحانه أن أهل الآخرة يتفاضلون فيها أكثر ما يتفاضل الناس فى الدنيا وأن درجات الآخرة أكبر من درجات الدنيا. قال تعالى: ﴿ **لا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُوْلَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلاًّ وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ** ﴾.[الحديد:١٠].

وقال تعالى: ﴿ **لا يَسْتَوِى الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِى الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِى سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً**

---

(١) البخارى مع الفتح، كتاب بدء الخلق باب صفة أبواب الجنة: (٦/٣٦٦) رقم٣٢٤٤.

(٢) انظر فتح البارى: ٦/٣٧٨.

وَكُلاً وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا (٩٥) درجات مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ .[النساء: ٩٥، ٩٦].

وقد روى البخارى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال النبى ﷺ: «**من آمن بالله وبرسوله وأقام الصلاة وصام رمضان كان حقاً على الله أن يدخله الجنة، جاهد فى سبيل الله، أو جلس فى أرضه التى ولد فيها**»، فقالوا: يا رسول الله، أفلا نبشر الناس؟! قال: «**إن فى الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين فى سبيل الله ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض، فإذا سألتم الله، فاسألوه الفردوس، فإنه أوسط الجنة، وأعلى الجنة**، أراه قال: «**وفوقه عرش الرحمن منه تفجر أنهار الجنة**». (١)

رابعاً: أنهار الجنة:

ذكر القرآن الكريم أنهار الجنة فى آيات عديدة قال تعالى: ﴿ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾.

قال تعالى: ﴿ مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ﴾ .[محمد: ١٥].

ومن الأنهار التى ذكرها النبى ﷺ فى أحاديثه فى الجنة ما رواه البخارى عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «**رفعت لى السدرة، فاذا أربعة أنهار نهران ظاهران، ونهران باطنان، فأما الظاهران فالنيل والفرات، وأما الباطنان: فنهران فى الجنة**». (٢)

وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**سيحان وجيحان والفرات والنيل كل من أنهار الجنة**». (٣) ومن أنهار الجنة: الكوثر الذى أعطاها الله لرسوله ﷺ، ففى صحيح البخارى عن أنس بن مالك عن النبى

---

(١) البخارى مع الفتح، كتاب الجهاد، باب درجات المجاهدين: ٦ / ١٤.

(٢) صحيح البخارى مع الفتح، كتاب الأشربة، باب شرب اللبن: ١٠ / ٧٣.

(٣) صحيح مسلم، كتاب الجنة، باب ما فى الدنيا من أنهار الجنة: ٤ / ٢١٨٣.

ﷺ قال: «**بينما أنا أسير فى الجنة، إذ أنا بنهر حافتاه قباب الدر المجوف، قلت: ما هذا يا جبريل؟ قال: هذا الكوثر الذى أعطاك ربك، فإذا طيبة أوطينه مسك أذفر**» شك الراوى(هدبة).(١) وقد فسر ابن عباس الكوثر بالخير الكثير الذى أعطاه الله لرسوله ﷺ وبين سعيد بن جبير أن النهر الذى فى الجنة من الخير الذى أعطاه الله إياه.(٢)

خامساً: عيون الجنة:

فى الجنة عيون كثيرة مختلفة الطعوم والمشارب قال تعالى: ﴿ **إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِى جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ** ﴾.[الحجر: ٤٥] : ﴿ **إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِى ظِلَالٍ وَعُيُونٍ** ﴾.[المرسلات: ٤١] وقال فى وصف الجنتين اللتين أعدهما لمن خاف ربه ﴿ **فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ** ﴾.[الرحمن: ٥٠]وقال فى وصف الجنتين اللتين دونهما ﴿ **فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ** ﴾.[الرحمن: ٦٦].

وفى الجنة عينان يشرب المقربون ماءهما صرفاً غير مخلوط، ويشرب منهما الأبرار الشراب مخلوطاً ممزوجابغيره، العين الأولى: عين الكافور قال تعالى: ﴿ **إِنَّ الأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ۝ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا** ﴾.[الإنسان: ٥، ٦] فقد أخبر أن الأبرار يشربون–شرابهم ممزوجاً من عين الكافور– بينما عباد الله يشربونها خالصاً.

العين الثانية: عين التسنيم، قال تعالى: ﴿ **إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ (٢٢) عَلَى الأَرَائِكِ يَنظُرُونَ (٢٣) تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ (٢٤) يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ (٢٥) خِتَامُهُ مِسْكٌ وَفِى ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ (٢٦) وَمِزَاجُهُ مِن تَسْنِيمٍ (٢٧) عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ** ﴾ [المطففين: ٢٢ – ٢٨] ومن عيون الجنة عين تسمى السلسبيل، قال تعالى: ﴿ **وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلاً (١٧) عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلاً** ﴾. [الإنسان: ١٧، ١٨].

---

(١) صحيح البخارى البخارى مع الفتح، كتاب الرقاق، باب فى الحوض: ١١ / ٤٧٢.

(٢) صحيح البخارى مع الفتح، كتاب الرقاق، باب فى الحوض: ١١ / ٤٧٥.

سادساً : قصور الجنة وخيامها :

يبنى الله لأهل الجنة مساكن طيبة حسنة كما قال تعالى : ﴿ **وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ** ﴾[التوبة : ٧٢]وقال تعالى : ﴿ **وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ** ﴾[سبأ : ٣٧]وقال فى جزاء عباد الرحمن : ﴿ **أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا** ﴾[الفرقان : ٧٥] وقال تعالى واصفاً هذه الغرفات : ﴿ **لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَعْدَ اللَّهِ لا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ** ﴾[الزمر : ٢٠]

وقد أخبرنا المولى عز وجل أن فى الجنة خياماً قال تعالى : ﴿ **حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِى الْخِيَامِ** ﴾[الرحمن : ٧٢] وهذه الخيام عجيبة، فهى من لؤلؤ بل هى من لؤلؤة واحدة مجوفة طولها فى السماء ستون ميلاً وفى بعض الروايات عرضها ستون ميلاً ففى صحيح البخارى عن النبى ﷺ قال : « **الخيمة درة مجوفة طولها فى السماء ثلاثون ميلاً، فى كل زاوية منها للمؤمن أهل لا يراهم الآخرون** »(١)

سابعاً : نور الجنة :

قال ابن كثير فى تفسير قوله تعالى : ﴿ **وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا (٦٢) تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِى نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا** ﴾[مريم : ٦٢، ٦٣] أى فى وقت البكرات ووقت العشيات، لا أن هناك ليلاً ونهاراً، ولكنهم فى أوقات تتعاقب يعرفون مضيها بأضواء وأنوار)(٢). ويقول ابن تيمية فى هذا الموضوع : (والجنة ليس فيها شمس ولا قمر، ولا ليل، ولا نهار، لكن تعرف البكرة والعشية بنور يظهر من قبل العرش).(٣)

ثامناً : وصف بعض شجر الجنة :

سدرة المنتهى :وهذه الشجرة ذكرها المولى عز وجل فى كتابه العزيز وأخبر سبحانه أن رسولنا ﷺ رأى جبريل على صورته التى خلقه الله عليها عندها، وأن

---

(١) صحيح البخارى مع الفتح . كتاب بدء الخلق، باب صفة الجنة : ٦ / ٣٦٦ .

(٢) تفسير ابن كثير : ٤ / ٤٧١ .

(٣) مجموع فتاوى ابن تيمية : ٤ / ٣١٢ .

هذه الشجرة عند جنة المأوى التى غشيها ما غشيها مما لا يعلمه إلا الله عندما رآها الرسول ﷺ قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ (١٣) عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ (١٤) عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ (١٥) إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ (١٦) مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴾ .[النجم: ١٤-١٧].

شجرة طوبى: وهذه شجرة عظيمة كبيرة تصنع ثياب أهل الجنة عن أبى سعيد الخدرى رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**طوبى شجرة فى الجنة مسيرة مائة عام، ثياب أهل الجنة تخرج من أكمامها**» .(١)

الشجرة التى يسير الراكب فى ظلها مائة عام: هذه شجرة هائلة لا يقدر قدرها إلا الذى خلقها، وقد بين الرسول ﷺ عظم هذه الشجرة بأن أخبر أن الراكب لفرس من الخيل التى تعد للسباق يحتاج إلى مائة عام حتى يقطعها إذا سار بأقصى ما يمكنه. ففى صحيح البخارى عن أبى هريرة رضي الله عنه عن النبى ﷺ قال: «**إن فى الجنة لشجرة يسير الراكب فى ظلها مائة سنة، واقرؤوا إن شئتم: ﴿ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴾** .[الواقعة: ٣٠]» .(٢).

وهذا يدل عن خلق بديع وقدرة الصانع البديع سبحانه وتعالى.

تاسعاً: نعيم أهل الجنة:

لقد مدح القرآن الكريم نعيم الآخرة وذم الدنيا الفانية ورغب فى ما عند الله على متاع الدنيا القريب العاجل فى مواضع كثيرة، كقوله تعالى: ﴿ **لكن الذين اتقوا ربهم لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها نزلاً من عند الله وما عند الله خير للأبرار** ﴾ .[آل عمران: ١٩٨] وقوله: ﴿ **ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجا منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه ورزق ربك خير وأبقى** ﴾ .[طه: ١٣١]

وقوله: ﴿ **قل أؤنبئكم بخير من ذلكم للذين اتقوا عند ربهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها وأزواج مطهرة ورضوان من الله والله بصير بالعباد** ﴾ .[آل عمران: ١٤، ١٥] والآيات فى هذا الباب كثيرة.

---

(١) سلسلة الأحاديث الصحيحة للألبانى: ٤/ ٦٣٩، رقم الحديث: ١٩٨٥.

(٢) البخارى مع الفتح، كتاب بدء الخلق. باب ما جاء فى صفة الجنة: ٦/ ٣٦٨

عاشراً: طعام أهل الجنة وشرابهم:

ذكر الله سبحانه وتعالى أن فى الجنة ما تشتهيه الأنفس من المآكل والمشارب: ﴿ وَفَاكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ (٢٠) وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴾ .[الواقعة: ٢٠، ٢١] ﴿ وفيها ما تشتهيه الأنفسُ وتلذُّ الأعْيُنُ ﴾ .[الزخرف: ٧١] وقد أباح الله لهم أن يتناولوا من خيراتها وألوان طعامها وشرابها ما يشتهون: ﴿ كُلُوا واشْرَبُوا هنيئًا بما أسْلفْتُمْ فى الأيام الْخالية ﴾ .[الحاقة: ٢٤]

الحادى عشر: خمر أهل الجنة:

من الشراب الذى يتفضل الله به على أهل الجنة: الخمر، وخمر الجنة خالى من العيوب والآفات التى تتصف بها خمر الدنيا، فخمر الدنيا تذهب العقول، وتصدع الرؤوس، وتوجع البطون، وتمرض الأبدان، وتجلب الأسقام، وقد تكون معيبة فى صنعها أو لونها أو غير ذلك، أما خمر الجنة فإنها خالية من ذلك كله، وجميلة صافية رائعة.(١) قال تعالى: ﴿ يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ (٤٥) بَيْضاء لذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ (٤٦) لا فيها غَوْلٌ وَلا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴾ .[الصافات: ٤٥-٤٧] فقد وصف الله جمال لونها(بيضاء) ثم بين أنها تلذ شاربها لا يمل من شربها ﴿ ولا هُمْ عنها يُنزفُونَ ﴾ .[الصافات: ٤٧] وقال فى موضع آخر يصف خمر الجنة: ﴿ يطُوفُ عليهم ولْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ (١٧) بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ (١٨) لا يُصَدَّعُونَ عنها ولا يُنْزِفُونَ ﴾ .[الواقعة: ١٧-١٩].

قال ابن كثير فى تفسير هذه الآيات: (لا تصدع رؤوسهم، ولا تنزف عقولهم، بل هى ثابتة مع الشدة المطربة واللذة الحاصلة، وروى الضحاك عن ابن عباس أنه قال: فى الخمر أربع خصال: السكر، والصداع، والقىء والبول، فذكر الله خمر الجنة، ونزهها عن هذه الخصال).(٢)

وقال تعالى فى موضع آخر: ﴿ يُسْقَوْنَ من رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ (٢٥) خِتَامُهُ مِسْكٌ ﴾ .[المطففين: ٢٥، ٢٦] .والرحيق: الخمر، ووصف هذا الخمر بوصفين: الأول:

---

(١) انظر: اليوم الآخر الجنة والنار عمر الاشقر: ٢٣٠ . (٢) تفسير ابن كثير: ٦ / ٥١٤ .

أنه مختوم أى موضوع عليه خاتم،الأمر الثانى : أنهم إذا شربوه وجدوه فى ختام شرابهم له رائحة المسك .(١)

الثانى عشر : طعام أهل الجنة وشرابهم لا دنس معه :

الجنة دار خالصة من الأذى، وأهلها مطهرون من أوساخ أهل الدنيا، ففى البخارى عن أبى هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ :« **أول زمرة تلج الجنة صورتهم على صورة القمر ليلة البدر، لا يبصقون فيها، ولا يمتخطون، ولا يتغوّطون** » .(٢)

وليس هذا خاص بأول زمرة تدخل الجنة، وإنما هو عام فى كل ما يدخل الجنة، ففى رواية عند مسلم عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ :« **أول زمرة تدخل الجنة من أمتى على صورة القمر ليلة البدر، ثم الذين يلونهم على أشد نجم فى السماء إضاءة ثم هم بعد ذلك منازل، لا يتغوطون، ولا يتبولون، ولا يمتخطون، ولا يبزقون** » .(٣)

فالذى يتفاوت فيه أهل الجنة مما نص عليه فى الحديث قوة نور كل منهم، أما خلوصهم من الأذى فإنهم يشتركون فيه جميعاً، فهم لا يتغوطون ولا يتبولون، ولا يتفلون، ولا يبزقون، ولا يمتخطون. وفضلات الطعام والشراب تتحول إلى رشح كرشح المسك يفيض من أجسادهم، كما يتحول بعض منه إلى جشاء ولكنه جشاء تنبعث منه روائح طيبة عبقة عطرة، ففى صحيح مسلم عن جابر بن عبد الله، قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول :« **إن أهل الجنة يأكلون فيها ويشربون، ولا يتفلون، ولا يتبولون ولا يتغوطون، ولا يمتخطون** » . قالوا: فما بال الطعام؟ قال« **جشاء كجشاء المسك** » .(٤)

---

(١) المرجع السابق : ٢٣٠ .

(٢) رواه البخارى : كتاب بدء الخلق، باب ما جاء فى صفة الجنة : ٦ / ٣٦٧ .

(٣) رواه مسلم، كتاب الجنة، باب أول زمرة تدخل الجنة : ٤ / ٢١٨٨، رقم الحديث : ٢٨٣٤ .

(٤) المرجع السابق : ٤ / ٢١٨٠، رقم الحديث : ٢٨٣٥ .

الثالث عشر : آنية طعام أهل الجنة وشرابهم :

آنية طعام أهل الجنة التى يأكلون ويشربون بها من الذهب والفضة قال تعالى : ﴿ يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ ﴾ .[الزخرف : ٧١] أى وأكواب من ذهب ، وقال : ﴿ وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِآنِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا (١٥) قَوَارِيرَ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴾ .[الإنسان : ١٥ ، ١٦] أى اجتمع فيها صفاء القوارير وبياض الفضة .

ومن الآنية التى يشربون بها : الأكواب والأباريق والكؤوس : ﴿ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ (١٧) بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴾ .[الواقعة : ١٧ ، ١٨] والكوب ما لا أذن له ولا عروة ولا خرطوم ، والأباريق : ذوات الأذان والعرى ، والكاس : القدح الذى فيه الشراب .

الرابع عشر : لباس أهل الجنة وحليهم ومباخرهم :

أهل الجنة يلبسون فيها الفاخر من اللباس ، ويتزينون فيها بأنواع الحلى من الذهب والفضة واللؤلؤ ، فمن لباسهم الحرير ، ومن حلالهم أساور الذهب والفضة واللؤلؤ قال تعالى : ﴿ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴾ .[فاطر : ٣٣] ﴿ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴾ .[الإنسان : ٢١] وملابسهم ذات ألوان ، ومن ألوان الثياب التى يلبسون الخضر من السندس والاستبرق : ﴿ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴾ . [الكهف : ٣١] .

ولباسهم أرقى من أى ثياب صنعها الإنسان ، فقد روى البخارى فى صحيحه عن البراء بن عازب (١) رضي الله عنه قال : « أتى الرسول ﷺ بثوب من حرير ، فجعلوا يعجبون من حسنه ولينه ، فقال رسول الله ﷺ : « لمناديل سعد بن

---

(١) هو البراء بن عازب بن الحارث الأنصارى الأوسى ، أبو عمارة وقيل : أبو عمرو هو وأبوه صحابيان ، شهد أحد وما بعدها واستصغر يوم بدر وشهد مع على رضي الله عنه الجمل وصفين وحرب الخوارج مات سنة اثنتين وسبعين من الهجرة : انظر الإصابة : ١ / ١٤٦ ، ١٤٧ .

معاذ(١) **فى الجنة أفضل من هذا**». (٢)

وقد أخبر الرسول ﷺ أن لأهل الجنة أمشاطاً من الذهب والفضة، وأنهم يتبخرون بعود الطيب، مع أن روح المسك تفوح من أبدانهم الزاكية، ففى صحيح البخارى عن أبى هريرة عن الرسول ﷺ فى صفة الذين يدخلون الجنة: «**آنيتهم الذهب والفضة، وأمشاطهم الذهب، ووقود مجامرهم الألوة عود الطيب-ورشحهم المسك**». (٣)

وثياب أهل الجنة وحليهم لا تبلى ولا تفنى، ففى صحيح مسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه، عن النبى ﷺ قال: «**من يدخل الجنة ينعم لا يبأس، لا تبلى ثيابه، ولا يفنى شبابه**». (٤)

الخامس عشر: فرش أهل الجنة:

فرش أهل الجنة عظيمة القدر، بطائنها من الإستبرق، فما بالك بظاهرها؟ وهناك ترى النمارق مصفوفة على نحو يسر الخاطر ويبهج النفس والزرابى مبثوثة على شكل منسق متكامل قال تعالى: ﴿ **فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ** (١٣) **وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ** (١٤) **وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ** (١٥) **وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ** ﴾. [الغاشية: ١٣-١٦] ﴿ **مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ** ﴾. [الرحمن: ٥٤]. ﴿ **مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ** ﴾. [الرحمن: ٧٦] والمراد بالنمارق: المخادّ والوسائد والمساند، والزرابى: البسط، والعبقرى: البسط الجياد، والرفرف، رياض الجنة، وقيل: نوع من الثياب، والأرائك: السرر.

---

(١) هو أبو عمر سعد بن معاذ بن النعمان بن امرئ القيس بن زيد بن عبد الأشهل الأوسى الانصارى سيد الأوس رمى يوم الخندق بسهم فعاش بعد ذلك شهر حتى حكم فى بنى قريظة حكمه المشهور الذى وافق فيه حكم الله من فوق سبع سموات وبعد ذلك مات بسبب انتفاض جرحه وذلك سنة خمس للهجرة: انظر الإصابة: ٢ / ٣٥.

(٢) صحيح البخارى مع الفتح، كتاب بدء الخلق، باب: ما جاء فى صفة الجنة: ٦ / ٣٦٧ رقم الحديث: ٣٢٤٨.

(٣) صحيح البخارى، كتاب بدء الخلق، باب: فى صفة الجنة، رقم ٣٢٤٦.

(٤) صحيح مسلم، كتاب الجنة، باب: فى دوام نعيم الجنة: ٤ / ٢١٨١، رقم الحديث: ٢٨٣٦.

السادس عشر : خدم أهل الجنة :

يخدم أهل الجنة ولدان ينشئهم الله لخدمتهم، يكونون فى غاية الجمال والكمال، كما قال تعالى : ﴿ **يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ (١٧) بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ** ﴾ .[الواقعة :١٧ ، ١٨] .

قال ابن كثير رحمه الله : (يطوف على أهل الجنة للخدمة ولدان من ولدان أهل الجنة(مخلدون)أى على حالة مخلدون عليها، لا يتغيرون عنها لا تزيد أعمارهم عن تلك السن، ومن فسرهم بأنهم مخرصون، فى آذانهم الأقرطة، فإنما عبر عن المعنى، لأن الصغير هو الذى يليق له ذلك دون الكبير وقوله تعالى : ﴿ **إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا** ﴾ .[الإنسان :١٩] أى إذا رأيتهم فى انتشارهم فى قضاء حوائج السادة وكثرتهم وصباحة وجوههم وحسن ألوانهم وثيابهم وحليهم، حسبتهم لؤلؤاً منثوراً، ولا يكون فى التشبيه أحسن من هذا، ولا فى المنظر أحسن من اللؤلؤ المنثور على المكان الحسن) .(١)

السابع عشر : اجتماع أهل الجنة وأحاديثهم :

أهل الجنة يزور بعضهم بعضاً، ويجتمعون فى مجالس طيبة يتحدثون ويذكرون ما كان منهم فى الدنيا، وما مَنَّ الله به عليهم من دخول الجنان، قال تعالى فى وصف اجتماع أهل الجنة : ﴿ **وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ** ﴾ .[الحجر :٤٧] .

وحدثنا القرآن عن أصناف الأحاديث التى يتكلمون بها فى مجتمعاتهم : ﴿ **وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ (٢٥) قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِى أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ (٢٦) فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ (٢٧) إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ** ﴾ .[الطور : ٢٥ – ٢٨] ومن ذلك تذكرهم أهل الشر الذين كانوا يشككون أهل الإيمان ويدعونهم إلى الكفران : ﴿ **فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ (٥٠) قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّى كَانَ لِى قَرِينٌ (٥١) يَقُولُ أَئِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ (٥٢) أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَدِينُونَ (٥٣)**

---

(١) تفسير ابن كثير : ٧ / ١٨٤ .

قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ (٥٤) فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ (٥٥) قَالَ تَاللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ (٥٦) وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ (٥٧) أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ (٥٨) إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (٥٩) إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٦٠) لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ ﴾. [الصافات: ٥٠-٦١].

الثامن عشر: نساء أهل الجنة:

زوجة المؤمن فى الدنيا زوجته فى الآخرة إذا كانت مؤمنة قال تعالى: ﴿ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ ﴾. [الرعد: ٢٣] وهم فى الجنات منعمون مع الأزواج، يتكئون فى ظلال الجنة مسرورين فرحين: ﴿ هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ ﴾. [يس: ٥٦] ﴿ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴾. [الزخرف: ٧٠].

التاسع عشر: الحور العين:

قال تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴾. [الدخان: ٥٤] والحور: جمع حوراء، وهى التى يكون بياض عينها شديد البياض، وسواده شديد السواد، والعين: جمع عيناء، والعيناء: هى واسعة العين. وقد وصف الله فى القرآن الحور العين بأنهن كواعب أتراب قال تعالى: ﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا (٣١) حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا (٣٢) وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴾. [النبأ: ٣١-٣٣] والكاعب: المرأة الجميلة التى برز ثديها، والأتراب: المتقاربات فى السن، والحور العين من خلق الله فى الجنة، أنشاهن الله إنشاء فجعلهن أبكاراً، عرباً أتراباً: ﴿ إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَاءً (٣٥) فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا (٣٦) عُرُبًا أَتْرَابًا ﴾. [الواقعة: ٣٥-٣٧] وكونهن أبكاراً يقضى أنه لم ينكحهن قبلهم أحد، كما قال تعالى: ﴿ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ ﴾. [الرحمن: ٥٦].

وقد حدثنا القرآن عن جمال نساء الجنة فقال: ﴿ وَحُورٌ عِينٌ (٢٢) كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ ﴾. [الواقعة: ٢٢، ٢٣] والمراد بالمكنون: المخفى المصان، الذى لم يغير صفاء لونه ضوء الشمس، ولا عبث الأيدى، وشبههن فى موضع آخر بالياقوت والمرجان: ﴿ فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ (٥٦) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥٧) كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ ﴾. [الرحمن: ٥٦-٥٨].

والياقوت والمرجان: حجران كريمان فيهما جمال، ولهما منظر حسن بديع، وقد وصف الحور بأنهن قاصرات الطرف، وهن اللواتى قصرن بصرهن على أزواجهن، فلم تطمح أنظارهن لغير أزواجهن وقد شهد الله لحور الجنة بالحسن والجمال، وحسبك أن شهد الله بهذا ليكون قد بلغ غاية الحسن والجمال﴿ فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ (٧٠) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٧١) حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ﴾ .[الرحمن: ٧٠-٧٢]. ونساء الجنة لسن كنساء الدنيا، فإنهن مطهرات من الحيض والنفاس، والبصاق والمخاط والبول والغائط، وهذا مقتضى قوله تعالى: ﴿ وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ .[البقرة: ٢٥].

وقد حدثنا الرسول ﷺ عن جمال نساء أهل الجنة، ففى الحديث الذى يرويه البخارى عن أبى هريرة رضي الله عنه قال: قال ﷺ :«**أول زمرة تلج الجنة صورتهم على صورة القمر ليلة البدر، لا يبصقون ولا يمتخطون، ولا يتغوطون، وآنيتهم فيها الذهب، أمشاطهم من الذهب والفضة، ومجامرهم الألوه، ورشحهم من وراء اللحم من الحسن**» .(١)

وانظر إلى هذا الجمال الذى يحدث عنه الرسول ﷺ هل تجد له نظيراً مما تعرف؟«**ولو أن امرأة من أهل الجنة اطلعت إلى أهل الأرض لأضاءت ما بينهما، ولملأته ريحاً، ولنصيفها على رأسها خير من الدنيا وما فيها**» .(٢)

العشرون: أفضل ما يعطاه أهل الجنة: (النظر إلى وجهه الكريم رضوان الله):

قال الطحاوى: (والرؤية حق لأهل الجنة، بغير إحاطة ولا كيفية، كما نطق به كتاب ربنا:﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ (٢٢) إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ . [القيامة: ٢٢، ٢٣] .

وتفسيره على ما أراد الله تعالى وعلمه، وكل ما جاء فى ذلك الحديث الصحيح عن رسول الله ﷺ فهو كما قال ومعناه على أنه أراد أن لا ندخل فى ذلك متأولين بآرائنا ولا متوهمين بأهوائنا، فإنه ما سلم فى دينه إلا من سلم لله

---

(١) رواه البخارى، كتاب الخلق، صفة الجنة، فتح البارى: ٦/ ٣٦٧ .

(٢) البخارى مع الفتح، كتاب الجهاد، باب: وزوجناهم بحور عين: ٦/ ١٩ .

عز وجل ولرسوله ﷺ ورد علم ما اشتبه عليه إلى عالمه(١).

وقد صرح الحق تبارك وتعالى برؤية العباد لربهم فى جنات النعيم: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ (٢٢) إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾. [القيامة: ٢٢].

والكفار والمشركون يحرمون من هذا النعيم العظيم، والتكرمة الباهرة: ﴿ كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴾. [المطففين: ١٥].

قال رسول الله ﷺ: «**إذا دخل أهل الجنة الجنة، يقول تبارك وتعالى: تريدون شيئاً أزيدكم ؟ فيقولون: ألم تبيض وجوهنا ؟ ألم تدخلنا الجنة، وتنجنا من النار؟ قال: فيكشف الحجاب، فما أعطوا شيئاً أحب إليهم من النظر إلي ربهم تبارك وتعالى**»، زاد فى رواية: « ثم تلا هذه الآية: ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾. [يونس: ٢٦]وأما عن رضوان الله الذى يعطى لأهل الجنة فعن أبى سعيد الخدرى قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الله تعالى يقول يا أهل الجنة، فيقولون: لبيك ربنا وسعديك، والخير كله فى يديك، فيقول هل رضيتم؟ فيقولون: وما لنا لا نرضى يارب وقد أعطيتنا ما لم تعط أحدا من خلقك؟ فيقول: ألا أعطيكم أفضل من ذلك؟ فيقولون: يارب وأى شىء أفضل من ذلك؟ فيقول: أحل عليكم رضوانى فلا أسخط عليكم بعده أبداً**». (٢)

الحادى والعشرون: آخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين:

يمر المؤمنون فى الموقف العظيم بأهوال عظام، ثم يمرون على الصراط فيشاهدون هولاً ورعباً، ثم يدخلهم الله جنات النعيم بعد أن أذهب عنهم الحزن، فيرون ما أعد الله لهم فيها من خيرات عظام، فترتفع ألسنتهم تسبح ربهم وتقدسه، فقد أذهب عنهم الحزن، وصدقهم وعده وأورثهم الجنة: ﴿ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ (٣٤) الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِ لَا

---

(١) الطحاوية: ٢٠٣.

(٢) مشكاة المصابيح للبغوى: ٣/ ٨٨.

يمسنا فيها نصب ولا يمسنا فيها لغوب ﴾ .[فاطر: ٣٤، ٣٥].

وآخر دعواهم فى الجنات النعيم الحمد لله رب العالمين: ﴿ دعواهم فيها سبحانك اللهم وتحيتهم فيها سلام وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين ﴾ .[يونس: ١٠].

وإلى هنا أرجو أن أكون قد بينت قضية الإيمان باليوم الآخر من خلال القرآن الكريم وهدى سيد المرسلين ﷺ ، وقد لمست من خلال بحثى ملامح الوسطية من حكمة قرآنية واستقامة ربانية واعتدال وعدل فى الأحكام ووضع طالب الحقيقة على صراط مستقيم.

الفصل السابع

وسطية القرآن

في

القضاء والقدر

الفصل السابع
وسطية القرآن فى القضاء والقدر

تمهيد: هذه مباحث فى باب القضاء والقدر، ذلك الباب العظيم، الذى لا شك فى أنه من أعظم أبواب العقيدة وأهمها، فهو أحد أركان الإيمان الستة التى وردت فى حديث جبريل-عليه السلام-ولا يؤمن إنسان على الحقيقة حتى يؤمن به، فالإيمان به تمام التوحيد، كما قال ابن عباس رضي الله عنهما: (القدر نظام التوحيد، فمن وحد الله وآمن بالقدر تم توحيده، ومن وحد الله وكذب بالقدر نقض توحيده).(١)

(والقدر هو قدرة الله، كما قال الإمام أحمد رحمه الله).(٢) فالذى يكذب به مكذب لقدرة الله - عز وجل-ومما يدل على أهميته ما يترتب على الإيمان به من عظيم الثمرات على الأفراد والمجتمعات فى الدنيا وفى الآخرة، ومما يدل على أهميته أن كتب العقيدة اهتمت به أيما اهتمام، وأطالت فى ذكره، والحديث عنه كالإبانة لابن بطة، والشريعةللآجرى، وشرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة للالكائى، والحجة فى بيان المحجة للأصبهانى وغيرها.

ففهم هذا الباب على الوجه الصحيح والإلمام به - ولو على سبيل الإجمال - من الأهمية بمكان، وقد جاء هذا الباب فى القرآن الكريم واضحاً وشرحه النبى ﷺ أتم الشرح، وتلقاه الصحابة عنه فكانوا رضوان الله عليهم أعظم الناس فهماً لحقيقة الإيمان بالقدر، فأثر ذلك فيهم أيما تأثير، فكانوا أشجع الناس، وأكرمهم، وأتقاهم، ثم دب فى هذه الأمة داء الأمم، وقد ركبت سنن من كان قبلها، فدخلت الفلسفات اليونانية والهندية وعقائد اليهود المحرفة والنصارى الزائغة إلى بلاد المسلمين، وظهرت بدعة القدرية فى البصرة ودمشق، فوقع أول

---

(١) مجموع الفتاوى لابن تيمية: ٣/ ١١٣.

(٢) المسائل والرسائل المروية عن الإمام أحمد ١ / ١٣٥.

شرك فى الأمة وهو نفى القدر، فتصدى علماء السنة لتلك البدعة وبينوا عوارها ودحضوا باطلها وأظهروا الحق ونشروه.

ومما لا شك فيه أن باب القدر – أعوص أبواب العقيدة، فلقد حار النظار والعقلاء قديماً وحديثاً – فى شأنه وفى فهم حقيقته، فلم يصلوا إلى اليقين والصواب، ذلك لأنهم التمسوا الهدى فى غير مظانه، فحاروا وحيروا، وتعبوا وأتعبوا. وقد وفق الله سبحانه وتعالى أهل السنة والجماعة لفهم هذا الباب وذلك لاتباع ما جاء فى الكتاب والسنة وآثار السلف الصالح، إذ لا يمكن لأحد أن يفهم هذا الباب على وجه التفصيل فهماً صحيحاً – إلا كما فهمه أهل السنة والجماعة – سلف هذه الأمة الصالح وإذا نظرت إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ انتظم العقد فى هذا الباب وظهرت ملامح الوسطية فيه وسلمت من الإفراط والتفريط والغلو والجفا والبعد عن الصراط المستقيم، وتجد القرآن الكريم والسنة المطهرة ترشدنا إلى أبواب يستطيع العقل البشرى أن يجول فيها فى هذا الباب وتنهانا عن أمور يستحيل العقل أن يصل إليها.

فالأمور التى يستطيع العقل البشرى أن يجول فيها ويفهمها من منطق النصوص، كالبحث فى مراتب القدر وأقسام التقدير، وخلق أفعال العباد إلى غير ذلك من مباحث القدر.

والأمور التى نهانا الشرع عن الخوض فيها مثل: الخوض فى القدر بالباطل وبلا علم ولا دليل، والاعتماد فى معرفة القدر على العقل البشرى القاصر بعيداً عن هدى الكتاب والسنة؛ لأن العقل البشرى لا يستقل بمعرفة ذلك على وجه التفصيل، وكذلك البحث عن الجانب الخفى فى القدر الذى هو سر الله فى خلقه، وكذلك التنازع فى القدر الذى يؤدى إلى اختلاف الناس فيه وافتراقهم، فهذا مما نهينا عنه. وبذلك يتضح للباحث منهج الوسطية فى هذا الباب إذا ألم بأطراف الموضوع، معتمداً على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

المبحث الأول

تعريف القضاء والقدر، والعلاقة بينهما

أولاً: القدر فى اللغة: (مصدر قدر يقدر قدراً وقد تسكن داله).(١)

قال ابن فارس: (قدر: القاف والدال والراء أصل صحيح يدل على مبلغ الشيء وكنهه ونهايته، فالقدر مبلغ كل شيء، يقال: قدره كذا أى مبلغه، وكذلك القدر ، وقدرت الشيء أقدره وأقدر من التقدير).(٢)

والقدر: محركة: القضاء والحكم، وهو ما يقدره - عز وجل - من القضاء، ويحكم به من الأمور.

والتقدير: التروية والتفكير فى تسوية أمر، والقدر كالقدر، وجميعها جمعها أقدار.(٣)

والقدر فى الاصطلاح: (تقدير الله للكائنات حسبما سبق به علمه، واقتضته حكمته).(٤)

أو هو: (ما سبق به العلم وجرى به القلم، مما هو كائن وأنه - عز وجل - قدر مقادير الخلائق، وما يكون من الأشياء قبل أن تكون فى الأزل، وعلم - سبحانه وتعالى - أنها ستقع فى أوقات معلومة عنده - تعالى - وعلى صفات مخصوصة، فهى تقع على حسب ما قدرها).(٥)

ثانياً: القضاء فى اللغة:

أ - القضاء فى اللغة: (هو الحكم والصنع، والختم، والبيان، وأصله القطع، والفصل، وقضاء الشيء، وإحكامه، وإمضاؤه، والفراغ منه فيكون بمعنى

---

(١) النهاية فى غريب الحديث لابن الأثير، : ٤ / ٢٢ .

(٢) معجم مقاييس اللغة، كتاب القاف، باب القاف والدال: ٥ / ٦٢ .

(٣) القاموس المحيط فصل القاف مادة قدر : ٥٩١ .

(٤) رسائل فى العقيدة للشيخ ابن عثيمين: ٣٧ .

(٥) لوامع الأنوار البهية للسفارينى: ١ / ٣٤٨ .

الخلق).(١)

ب - العلاقة بين القضاء والقدر:

١ - قيل: (المراد بالقدر: التقدير، وبالقضاء: الخلق، كقوله تعالى: ﴿ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ ﴾ [فصلت: ١٢] أى خلقهن، فالقضاء والقدر أمران متلازمان، لا ينفك أحدهما عن الآخر؛ لأن أحدهما بمنزلة الأساس وهو القدر، والآخر بمنزلة البناء وهو القضاء، فمن رام الفصل بينهما فقد رام هدم البناء ونقضه).(٢)

٢ - وقيل العكس: (فالقضاء هو العلم السابق الذى حكم الله به فى الأزل، والقدر هو وقوع الخلق على وزن الأمر المقضى السابق).(٣)

قال ابن حجر العسقلانى: (وقالوا أى العلماء: القضاء هو الحكم الكلى الإجمالى فى الأزل، والقدر: جزئيات ذلك الحكم وتفاصيله).(٤)

٣ - قيل: إذا اجتمعا افترقا بحيث يصبح لكل منهما مدلول بحسب ما مر فى القولين السابقين، وإذا افترقا اجتمعا، بحيث إذا أفرد أحدهما دخل فيه الآخر.(٥) وقوله تعالى: ﴿ وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴾ [التوبة: ٤٦] وقوله تعالى: ﴿ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾. [الأنعام: ٢٨] وروى البخارى فى صحيحه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: سئل النبى ﷺ عن أبناء المشركين، فقال: «**الله أعلم بما كانوا عاملين**».(٦) وقال ﷺ: «**ما منكم من نفس إلا وقد علم منزلها من الجنة والنار**».(٧)

---

(١) انظر: معجم مقاييس اللغة، كتاب القاف، باب القاف والضاد: ٥ / ٩٩.

(٢) النهاية فى غريب الحديث: ٤ / ٧٨.

(٣) البخارى مع الفتح، كتاب القدر: ١١ / ٤٨٦.

(٤) انظر: الدرر السنية فى الأجوبة النجدية: ١ / ٥١٢ ، ٥١٣.

(٥) البخارى مع الفتح، كتاب القدر، باب الله أعلم بما كانوا عاملين: ١١ / ٥٠٢، رقم الحديث: ٦٥٩٧.

(٦) أخرجه مسلم، كتاب القدر، باب كيفية الخلق الآدمى: ٤ / ٢٠٣٧، رقم الحديث: ٢٦٤٧.

(٧) مسلم، كتاب القدر، باب حجاج آدم موسى: ٤ / ٢٤٤، رقم: ٢٦٥٣.

المبحث الثانى
الإفراط والتفريط فى باب القدر

قد ضل فى باب القدر فرق شتى من الناس، ومنشأ ضلالهم اتباعهم للهوى ونظرهم إلى النصوص بعين عوراء، فيأخذون ما وافق أهواءهم، ويعمون، أو يتعامون عن غيره ومن أشهر الفرق التى ضلت فى هذا الباب ما يلى:

١ الفلاسفة:

الذين أنكروا (علمه تعالى بالجزئيات، وقالوا: إنه يعلم الأشياء على وجه كلى ثابت، وحقيقة قولهم أنه لا يعلم شيئاً، فإن كل ما فى الخارج هو جزئى).(١) وقد تأثر اليهود والنصارى بالفلسفة القديمة وتجد فى كتبهم المحرفة ما يفيد إنكار علم الله تعالى كما فى سفر التكوين(٢) حيث زعم اليهود أن الله تعالى :(لا يعلم الغيب ويحتاج علامات يميز بها بنى إسرائيل من غيرهم، فوضع الدم علامة على بيوت بنى إسرائيل ليميزها عن بيوت المصريين حتى لا يهلكهم).(٣) وأما النصارى جعلوا المخلوق إلهاً ونفوا عن إلههم أن تكون له إرادة ومشيئة وعلم بما يحصل له أو لمخلوقاته تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً (٤) وهذا بسبب بعدهم عن الكتب المقدسة الصحيحة وتأثرهم بالفلسفات الباطلة ويكفى فى الرد عليهم قوله تعالى: ﴿وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما فى البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة فى ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين﴾.[الأنعام:٥٩].

٢ من يعتقدون تأثير الكواكب والأسماء والأبراج:

كحال الذين ينظرون فى النجوم والأسماء، ليستطلعوا من خلالها أسرار

---

(١) درء تعارض العقل والنقل:٩/٣٩٧.
(٢) سفر التكوين إصحاح ١٢ فقرة: ١٢، ١٣.
(٣) وسطية أهل السنة بين الفرق: ٢٤٩.
(٤) الحكمة فى الدعوة إلى الله: ٤٤٤.

القدر، فتجدهم يقولون: إذا ولد فلان فى البرج الفلانى أو كان يحمل الاسم الفلانى فسيصيبه كذا وكذا فى يوم كذا وكذا، ومما يقولون – أيضاً – من اسمك تعرف حظك، ومن شهر ميلادك تعرف حظك، ونحو ذلك من هذا الهذيان والتخرص والرجم بالغيب، فهذا ضلال فى باب القدر؛ لأن القدر غيب والغيب لا يعلمه إلا الله عز وجل.

٣ – غلاة الصوفية:

الذين غلوا فى الجبر: (ممن يزعمون الترقى فى مقام الشهود للحقيقة الكونية، والربوبية الشاملة، فيرون كل ما يصدر من العبد من ظلم، وكفر، وفسوق هو طاعة محضة؛ لأنها تجرى وفق ما قضاه وقدره الله وقدره، وكل ما قضاه وقدره فهو محبوب لديه، مرضى عنده، فإذا كان قد خالف أمر الشارع بارتكابه هذه المحظورات – فقد أطاع إرادة الله، ونفذ مشيئته، فمن أطاع الله فى قضائه وقدره هو كمن أطاعه فى أمره ونهيه كلاهما قد قام بحق العبودية لله).[١] (ومن ثم فلا لوم، ولا تثريب، بل الكل مطيع بفعله لإرادة ربه، فصححوا بذلك إيمان فرعون وعبدة العجل، واليهود والنصارى والمجوس).[٢]

كما صرح بذلك ابن عربى[٣] الصوفى بقوله:

لقد كنت قبل اليوم أنكر صاحبى ... إذا لم يكن دينى إلى دينه دان
لقد صار قلبى قابلاً كل صورة ... فمرعى لغزلان ودير لرهبان
أدين بدين الحب أنى توجهت ... وألواح توراة ومصحف قرآن
وبيت لأوثان وكعبة طائف[٣] ... ركائبه فالحب دينى وإيمان[٤]

---

(١) شرح نونية ابن القيم، للهراس: ١/ ٣٧٢.

(٢) المعتزلة بين القديم والحديث، لمحمد العبده، طارق عبد الحكيم: ٥٨.

(٣) هو أبو بكر محمد بن على بن محمد العربى الحاتمى الطائى المعروف بمحيى الدين بن عربى شيعى سوء كذاب من أهل وحدة الوجود قال أشياء منكرة عدها المحققون مروقاً وزندقة، مات سنة ٦٣٨هـ، انظر: ميزان الاعتدال: ٣/ ٦٥٩، رقم ترجمته: ٦٦٠.

(٤) رسائل وفتاوى فى ذم ابن عربى الصوفى، د/ موسى الدويش: ٧٤.

وكقول عبد الكريم الجيلى [١]، وهو من أهل وحدة الوجود:

وأسلمت نفسى حيث أسلمنى الهوى ... ومالى عن حكم الحبيب تنازع
فطوراً ترانى فى المساجد راكعاً ... وإنى طوراً فى الكنائس راتع
ذا كنت فى حكم الشريعة عاصياً ... فإنى علم الحقيقة طائع [٢]

وكما قال أحدهم:

أصبحت منفصلاً بما يختاره ... منى ففعلى كله طاعات

وهذا المذهب من أخبث المذاهب، ولا يشك بكفر أصحابه، بل هو من أقبح أنواع الكفر، قال ابن تيمية رحمه الله: (فإن من احتج بالقدر وشهود الربوبية العامة لجميع المخلوقات، ولم يفرق بين المأمور، والمحظور، والمؤمنين والكفار، وأهل الطاعة، وأهل المعصية، لم يؤمن بأحد من الرسل، ولا بشىء من الكتب، وكان عنده إبليس وآدم سواء، ونوح وقومه سواء، وفرعون وموسى سواء، والسابقون الأولون وكفار مكة سواء).[٣] فلا يشك عاقل فى كفره.

٤ - الجبرية:

(وهم الذين غلوا فى إثبات القدر حتى أنكروا أن يكون للعبد فعل - حقيقة لا بل هو فى زعمهم لا حرية له ولا فعل، كالريشة فى مهب الريح، وإنما تسند إليه الأفعال مجازاً، فيقال: صلى وصام، وقتل، وسرق، كما يقال: طلعت الشمس، وجرت الريح، ونزل المطر، فاتهموا ربهم بالظلم، وتكليف العباد بما لا قدرة لهم

---

(١) هو عبد الكريم بن إبراهيم بن عبد الكريم الجيلى، ابن سبط عبد القادر الجيلانى، من علماء المتصوفة له كتب كثيرة، منها الإنسان الكامل، والمناظرة الإلهية، توفى عام ٨٣٢هـ انظر: الأعلام للزركلى: ٤/ ١٧٥، ١٧٦.

(٢) هذه هى الصوفية عبد الرحمن الوكيل: ٩٦.

(٣) مجموع الفتاوى: ٨/ ١٠٠.

عليه ومجاراتهم على ما ليس من فعلهم، واتهموه بالعبث فى تكليف العباد، وأبطلوا الحكمة فى الأمر والنهى ألا ساء ما يحكمون) (١).

وهؤلاء فى الحقيقة يزعمون أن الله هو الفاعل الحقيقى لأفعالهم، بخلاف ما عليه أهل السنة، الذين يقولون: إن الله هو الخالق والعبد هو الفاعل، ولذا ترتب على فعله الثواب والعقاب، وهؤلاء – الجبرية – يسمون بالقدرية المشركية؛ لانهم شابهوا المشركين فى قولهم: ﴿ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا ﴾.[الأنعام:١٤٨] وهذا كلام ظاهر البطلان.

٥ – القدرية:

وهم أتباع معبد الجهنى (٢) وغيلان الدمشقى (٣)، وأتباع واصل بن عطاء(٤)، وعمرو بن عبيد (٥) من المعتزلة، ومن وافقهم، هؤلاء هم القدرية، وقولهم فى القدر: إن العبد مستقل بعمله فى الإرادة والقدرة، وليس لمشيئة الله تعالى، وقدرته فى ذلك أثر، ويقولون: إن أفعال العباد ليست مخلوقة لله، وإنما

---

(١) انظر: شرح نونية ابن القيم للهراس: ١ / ٣٧٢.

(٢) هو المبتدع القدرى معبد بن عبد الله بن على الجهنى البصرى اول من قال بالقدر وكان ممن سمع الحديث عن ابن عباس وعمران بن حصين وانتقل إلى المدينة ونشر مذهبه فيها، وكان قد تلقاه من رجل نصرانى يسمى سوسن، واخذ عن معبد غيلان الدمشقى قتله عبد الملك بن مروان وصلبه سنة ٨٠هـ الكامل لابن الاثير: ٤ / ٧٥.

(٣) هو غيلان بن مسلم الدمشقى أبو مروان من البلغاء الذين اضلوا الناس، ثانى من تكلم فى القدر ودعا إليه، وإليه تنتسب فرقة الغيلانية من القدرية، افتى الإمام الاوزاعى بقتله فصلب على باب كيسان بدمشق بعد سنة ١٠٥هـ البداية والنهاية: ٩ / ٣٤، ٣٥.

(٤) واصل بن عطاء البصرى، الغزال المتكلم البليغ المتشدق، الذى كان يلثغ بالراء فلبلاغته هجر الراء وتجنبها فى خطابه، قال عنه أبو الفتح الازدى: رجل سوء كافر كان من أجلاء المعتزلة مات ١٣١هـ انظر: ميزان الاعتدال: ٤ / ٣٢٩.

(٥) عمرو بن عبيد بن باب، أبو عثمان البصرى المعتزلى القدرى، اعتزل مجلس الحسن هو وجماعة معه، سموا المعتزلة وكان يشتم الصحابة ويكذب فى الحديث وهما لا تعمدا، مات سنة ١٤٣هـ انظر: ميزان الاعتدال: ٣ / ٢٧٣.

العباد هم الخالقون لها ويقولون: (إن الذنوب الواقعة ليست واقعة بمشيئته الشاملة،وغلاتهم ينكرون أن يكون الله قد علمها، فيجحدون بمشيئته الشاملة، وقدرته النافذة؛ ولهذا سموا مجوس هذه الأمة؛ لأنهم شابهوا المجوس الذين قالوا: إن للكون إلهين: إله النور: وهو خالق الخير، وإله الظلمة: وهو خالق الشر.

والقدرية جعلوا لله شريكاً، بل شركاء فى خلقه فزعموا أن العباد يخلقون أفعالهم، واستدلوا استدلالاً أعوراً ببعض الآيات، كما فى قوله – تعالى : ﴿ **لمن شَاءَ منكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ** ﴾[التكوير:٢٨].

وقوله: ﴿ **فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ** ﴾[الكهف:٢٩].

وأوّلوا ما عدا ذلك مما يخالف مذهبهم كما فى قوله تعالى : ﴿ **وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ** ﴾[التكوير:٢٩] ومنشأ ضلال هؤلاء فى البداية أنهم أرادوا تنزيه الله – عز وجل – عن الشر فوقعوا فى نفى القدر، ويكفى فى الرد عليهم قوله – تعالى : ﴿ **وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ** ﴾[الصافات:٩٦].

المبحث الثالث
ظهور بدعتى نفى القدر والقول بالجبر

فى أواخر عصر الصحابة رضوان الله عليهم، كانت البداية الحقيقية لنشأة الاختلاف والكلام فى القدر، إذ نبغ فى وقتهم معبد الجهنى الذى قال بنفى القدر، كما روى الإمام مسلم عن يحيى بن يعمر (١). قال: (كان أول من قال فى القدر بالبصرة: معبد الجهنى، ثم ذكر يحيى أنه لقى عبد الله بن عمر بن الخطاب رضى الله عنهما فقال: يا أبا عبد الرحمن إنه قد ظهر قبلنا ناس يقرؤون القرآن ويتقفرون العلم (٢) ... وإنهم يزعمون أن لا قدر، وأن الأمر أنف (٣).

فقال ابن عمر منكراً عليهم ذلك: فإذا لقيت ذلك فأخبرهم أنى برىء منهم، وأنهم براء منى، والذى يحلف به عبد الله بن عمر :لو أن لأحدهم مثل أحد ذهباً فأنفقه، ما قبل الله منه حتى يؤمن بالقدر (٤).

ومعبد إنما تلقى هذه المقالة عن رجل نصرانى كان قد أسلم ثم تنصر مرة أخرى، فكان معبد أول من نشر ذلك ونادى به وأظهره، ولاسيما بالبصرة قال الإمام الأوزاعى (٥) رحمه الله: (أول من نطق فى القدر رجل تنصر، فأخذ عنه معبد الجهنى وأخذ غيلان عن معبد). (٦)

---

(١) يحيى بن يعمر البصرى نزيل مرو وقاضيها ثقة فصيح، وكان يرسل، مات قبل المائة انظر: ابن حجر التقريب: ٢/ ٣٦١.

(٢) يطلبونه ويتتبعونه.

(٣) أنف: أى مستانف، لم يسبق به قدر ولا علم من الله وإنما يعلمه بعد وقوعه انظر صحيح مسلم شرح النووى: ١/ ١٥٦.

(٤) رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان الإسلام والإيمان: ١/ ٣٦.

(٥) هو الإمام العابد الحجة الثقه عبد الرحمن بن عمرو الأوزاعى الفقيه روى عن كثير من التابعين وكان رأساً فى العلم والعمل والاتباع، بارعاً فى الكتابة، كان يكثر من الصلاة والعبادة وقيام الليل توفى فى بيروت سنة ١٥٨هـ انظر: تهذيب التهذيب: ٦/ ٢٣٨ ،شذرات الذهب: ٤/ ٣٤١.

(٦) الآجرى الشريعة: ٣٣٤٣، اللالكائى: ١/ ٣٤١.

فهؤلاء هم أقطاب القدرية الأوائل، وكان مذهبهم فى القدر يدور على أمرين: أحدهما: نفى علم الله سبحانه بالأشياء قبل وقوعها. والثانى: نفى خلقه لأفعال العباد، وأنها ليست واقعة بقدره، وهؤلاء هم غلاة القدرية الأوائل، وقد انقرض مذهبهم، والمتأخرون منهم يثبتون علم الله سبحانه بالأشياء قبل وقوعها ونفوا خلقه لأفعال العباد.

قال القرطبى رحمه الله: (قد انقرض هذا المذهب، أى مذهب غلاة القدرية ولا نعرف أحداً ينسب إليه من المتأخرين، قال: والقدرية اليوم مطبقون على أن الله عالم بأفعال العباد قبل وقوعها، وإنما خالفوا السلف فى زعمهم بان أفعال العباد مقدورة لهم واقعة منهم على جهة الاستقلال، وهو مع كونه مذهب باطل أخف من الأول).(١)

وهذا المذهب هو الذى تبنته المعتزلة وجعلته أصلاً من أصولها التى قام عليها كيان الاعتزال، وبسبب قولهم به عرفوا بالقدرية لنفيهم القدر، وفى مقابل القول بنفى القدر، ظهر قول مضاد ومعاكس له وهو القول بالجبر، ومضمونه: أن الإنسان مجبور على أفعاله ،وأنه لا يقدر منها على شىء فهو كالريشة فى مهب الريح. وأول من عرف عنه القول بذلك فى الإسلام الجهم بن صفوان (٢)، الذى كان من مقالته: (أنه لا حد فى الحقيقة إلا لله وحده، وأنه هو الفاعل وأن الناس إنما تنسب إليهم أفعالهم على المجاز كما يقال: تحركت الشجرة ودار الفلك، وزالت الشمس وإنما فعل ذلك بالشجرة والفلك والشمس الله – سبحانه ...).

ومن خلال مقالتى الطائفتين، يتبين لنا أن القدرية النفاة مفرطون فى هذا الباب، مقتصرون فيه بما سلبوا الله قدرته، وقولهم: إن العباد هم الخالقون لأفعالهم، كما يتضح لنا مدى غلو الجهمية الجبرية فى إثبات القدر حتى سلبوا الإنسان مشيئته وإرادته وعدوه بمنزلة الجماد، وأنه لا فعل له فى الحقيقة، وأنه

---

(١) وسطية أهل السنة بين الفرق: ٣٧١.

(٢) جهم بن صفوان السمرقندى أبو محرز من موالى بنى راسب رأس الجهمية الضال المبتدع هلك فى زمن صغار التابعين وقد زرع شراً عظيماً. انظر: ميزان الاعتدال: ١/٤٤٦.

مجبور على أفعاله غير مختار فيها، وكلا الفريقين من الإفراط والتفريط على شفا جرف هار، والطريق المستقيم القصد. فكل منهما قد أخطأ، وضل فى هذا الباب، وإن كان هذا لا يمنع أن يكون مع كل منهما بعض الحق والصواب، لكن الحق المحض والصواب المحض ليس هو فى قول واحد منهما، وإنما هو فى قول خارج عن قولهما جمع ما عند كل من الفريقين من حق وصواب، وخلا مما وقع فيه الفريقان من خطأ وضلال، ذلك هو قول أهل السنة والجماعة فى هذا الباب، الذى هو حق بين الباطلين، وهدى بين الضلالتين، به كانوا وسطاً بين إفراط وتفريط الفريقين فى هذا الباب، كما سنوضح ذلك فى الصفحات القادمة.

المبحث الرابع
مجمل اعتقاد أهل السنة والجماعة فى باب القدر

سئل شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله – سؤالاً عن القدر فأجاب عنه إجابة مطولة ضمنها مجمل اعتقاد أهل السنة والجماعة فى هذا الباب ومما قاله:

(مذهب أهل السنة والجماعة فى هذا الباب وغيره ما دل عليه الكتاب والسنة، وكان عليه السابقون الأولون من المهاجرين والنصار والذين اتبعوهم بإحسان، وهو أن الله خالق كل شيء، وربه ومليكه، وقد دخل فى ذلك جميع الأعيان القائمة بها، من أفعال العباد، وغير أفعال العباد. وأنه – سبحانه – ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، فلا يكون فى الوجود شيء إلا بمشيئته، وقدرته، لا يمتنع عليه شيء شاءه، بل هو قادر على كل شيء ولا يشاء شيئاً إلا وهو قادر عليه، وأنه – سبحانه – يعلم ما كان، وما يكون وما لم يكن لو كان كيف يكون.

وقد دخل فى ذلك أفعال العباد وغيرها، وقدر الله مقادير الخلائق قبل أن يخلقهم، قدر آجالهم، وأرزاقهم، وأعمالهم، وكتب ذلك، وكتب ما يصيرون إليه من سعادة، وشقاوة، فهم يؤمنون بخلقه لكل شيء، وقدرته على كل شيء، ومشيئته لكل ما كان، وعلمه بالأشياء قبل أن تكون، وتقديره لها، وكتابته إياها قبل أن تكون).[١]

إلى أن قال: (وسلف الأمة وأئمتها متفقون أيضاً على أن العباد مأمورون بما أمرهم الله به منتهيون عما نهاهم عنه، ومتفقون على الإيمان بوعده، ووعيده الذى نطق به الكتاب والسنة، ومتفقون على أنه لا حجة لأحد على الله فى واجب تركه، ولا محرم فعله، بل لله الحجة البالغة على عباده)[٢].

وقال: (ومما اتفق عليه سلف الأمة وأئمتها – مع إيمانهم بالقضاء والقدر، وأن الله خالق كل شيء، وأنه ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، وأنه يضل من يشاء، ويهدى من يشاء – أن العباد لهم مشيئة وقدرة، يفعلون بمشيئتهم وقدرتهم ما أقدرهم الله عليه، مع قولهم: إن العباد لا يشاؤون إلا إن يشاء الله[٣] كما قال تعالى: ﴿ **كَلاَّ إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ (٥٤) فَمَن شَاءَ ذَكَرَهُ (٥٥) وَمَا يَذْكُرُونَ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ** ﴾. [المدثر: ٥٤–٥٦].

---

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية: ٨/ ٤٤٩ ، ٤٥٠. (٢) المرجع السابق: ٨/ ٤٥٢. (٣) المرجع السابق: ٨/ ٤٥٩.

المبحث الخامس
الأدلة من الكتاب والسنة والإجماع والفطرة والعقل فى باب القدر

دل على هذا الركن العظيم من أركان الإيمان: الكتاب، والسنة، والإجماع، والفطرة، والعقل، والحس.

أولاً: من القرآن: أما الأدلة من القرآن العظيم: فكثيرة جداً منها قوله تعالى: ﴿ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴾.[الأحزاب: ٣٨] وقال تعالى: ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴾.[القمر: ٤٩] وقال تعالى: ﴿ وخلق كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا ﴾.[الفرقان: ٢].

ثانياً: السنة: أما الأدلة من السنة: فكما قال عليه الصلاة والسلام، كما فى حديث جبرائيل عليه السلام: «**وتؤمن بالقدر خيره وشره**».(١)

وروى مسلم فى الصحيح عن طاووس (٢) قال: (أدركت ناسا من أصحاب رسول الله ﷺ يقولون: كل شيء بقدر، قال: وسمعت عبد الله بن عمر يقول: كل شيء بقدر حتى العجز والكيس أو الكيس والعجز. (٣)

وقال ﷺ: «**وإن أصابك شيء فلا تقل لو أنى فعلت كذا كان كذا وكذا ولكن قل قدر الله وما شاء مقل**»(٤)

ثالثاً: الإجماع: أما الإجماع: (فقد أجمع المسلمون على وجوب الإيمان بالقدر خيره وشره من الله).(٥)

---

(١) مسلم، كتاب الإيمان، باب: ما جاء فى القدر: ١ / ٣٨ رقم ٨.

(٢) هو الإمام التابعى طاووس بن كيسان اليمانى أبو عبد الرحمن الجندى، أحد الأعلام علما وادبا وعملا أخذ عن جماعة من الصحابة وأخذ عنه جماعة توفى سنة ١٠٦هـ العبر: ١/ ٩٩ انظر: تهذيب التهذيب: ٥ / ٨.

(٣) مسلم، كتاب القدر، باب: كل شيء بقدر: ٤ / ٢٠٤٥ رقم: ٢٦٥٥.

(٤) مسلم، كتاب القدر، باب: الأمر بالقوة وترك العجز: ٤ / ٢٠٥٢ رقم ٢٦٦٤.

(٥) انظر: الإيمان بالقضاء والقدر لمحمد إبراهيم الحمد: ٣٦

ف**رابعاً**: الفطرة: أما الفطرة: فإن الإيمان بالقدر أمر معلوم بالفطرة قديماً وحديثاً ولم ينكره إلا الشواذ من الأمم، ولم يقع الخطأ فى نفى القدر وإنكاره، وإنما وقع فى همه على الوجه الصحيح؛ ولهذا قال سبحانه عن المشركين: ﴿ **سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا** ﴾ .[الأنعام: ١٤٨].

فهم أثبتوا المشيئة لله لكنهم احتجوا بها على الشرك، ثم بين سبحانه أن هذا هو شأن من كان قبلهم، كما فى قوله: ﴿ **كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ** ﴾ .[الأنعام: ١٤٨] وكانت العرب فى الجاهلية تعرف القدر ولا تنكره، ولم يكن هناك من يرى أن الأمر مستأنف، وهذا ما نجده مثبوتا فى أشعارهم، كما فى قول عنترة (١):

يا عبل أين من المنية مهربى ... إن كان ربى فى السماء قضاها (٢)

وكما فى قول طرفة (٣):

فلو شاء ربى كنت قيس بن خالد (٤) ... ولو شاء ربى كنت عمرو بن مرثد (٥)

وقول لبيد (٦):

صادفن منها غرة فأصبنها ... إن المنايا لا تطيش سهامها (٧)

خامساً: العقل: أما دلالة العقل فهى: أن العقل الصحيح يقطع أن الله هو خالق هذا الكون، ومدبره، ومالكه، ولا يمكن أن يوجد على هذا النظام البديع والتناسق المتآلف، والارتباط الملتحم بين الأسباب والمسببات هكذا صدفة، إذ الموجود صدفة ليس له نظام فى أصل وجوده، فكيف يكون منتظماً حال بقائه وتطوره؟ فإذا تقرر عقلاً أن الله هو الخالق لزم ألا يقع شىء فى ملكه إلا وقد شاءه وقدره.

---

(١) هو عنترة بن شداد العبسى من شعراء الجاهلية من أصحاب المعلقات اشتهر بشجاعة فائقة واشعار نادرة انظر: شرح المعلقات للزوزنى: ١١٨ (٢) ديوان عنتره: ٧٤.

(٣) هو طرفة بن العبد بن سفيان من شعراء الجاهلية ومن أصحاب المعلقات قتل وهو ابن عشرين عاما انظر: شرح المعلقات: ٧٨.

(٤) سيد من سادات العرب شريف النسب عظيم الحسب كثير الآل والاولاد.

(٥) سيد من سادات العرب اشتهر بكثر المال ونجابة الاولاد وشرف النسب.

(٦) هو لبيد بن ربيعة بن مالك العامرى مخضرم من المعمرين، ومات فى خلافة معاوية وله معلقة مشهورة، انظر: شرح المعلقات: ٢٢٦. (٧) ديوان لبيد بن ربيعة العامرى: ١٧١.

المبحث السادس
مراتب القدر وأركانه

ومن وسطية القرآن الكريم وحكمته وإرشاده إلى الصراط المستقيم: بيانه مراتب القدر والتى تسمى عند العلماء أحياناً بأركانه، وضبطها وفهمها يعين المسلم على فهم باب القدر، ولا يتم الإيمان بالقدر إلا بتحقيقها كلها؛ لأن بعضها مرتبط ببعض فمن أقر بها جميعاً اكتمل إيمانه بالقدر، ومن انتقص واحداً منها أو أكثر اختل إيمانه بالقدر وهذه الأركان هى:

١ ـ العلم.
٢ ـ الكتابة.
٣ ـ المشيئة.
٤ ـ الخلق.

المرتبة الأولى:

وهو الإيمان بأن الله عالم بكل شىء جملة وتفصيلاً، أزلاً، وأبداً، سواء كان ذلك مما يتعلق بأفعاله، أو بأفعال عباده، فعلمه محيط بما كان، وما سيكون، وما لم يكن لو كان كيف يكون عن علمه الموجود، والمعدوم، والممكن، والمستحيل، ولا يعزب عن علمه مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض، وقد علم جميع خلقه قبل أن يخلقهم، فعلمهم وأرزاقهم، وآجالهم وأقوالهم، وأعمالهم، وجميع حركاتهم، وسكناتهم، وأهل الجنة.

وهذه المرتبة ـ وهى العلم السابق ـ اتفق عليها الرسل من أولهم إلى آخرهم، واتفق عليها جميع الصحابة، ومن تبعهم من هذه الأمة، وخالفهم مجوس هذه الأمة ـ القدرية الغلاة ـ والأدلة على هذه المرتبة كثيرة جداً منها قوله تعالى: ﴿ **هُوَ اللَّهُ الَّذى لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَة** ﴾ [الحشر: ٢٢]. وقوله: ﴿ **يعْلَمُ ما بَيْنَ أَيْديهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ** ﴾. [البقرة: ٢٢٥] وقوله: ﴿ **عَالِمِ الْغَيْبِ لا يعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فى السَّمَوَاتِ وَلا فى الأَرْضِ وَلا أَصْغَرُ مِن ذَلِكَ وَلا أَكْبَرُ إِلاَّ فى كِتَابٍ مُّبِينٍ** ﴾. [سبا: ٣].

المرتبة الثانية الكتابة :

وهى الإيمان بأن الله كتب ما سبق علمه من مقادير الخلائق إلى يوم القيامة فى اللوح المحفوظ، وقد أجمع الصحابة، والتابعون، وجميع أهل السنة والحديث على أن كل ما هو كائن إلى يوم القيامة فهو مكتوب فى أم الكتاب التى هى اللوح المحفوظ، والذكر، والإمام المبين، والكتاب المبين، والأدلة على هذه المرتبة كثيرة من الكتاب والسنة، منها قوله تعالى: ﴿ **أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ** ﴾ .[الحج : ٧٠]. وقوله: ﴿ **قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا** ﴾ .[التوبة : ٥١].

وقال عن محاجة موسى عليه السلام لفرعون: ﴿ **قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الأُولَىٰ (٥١) قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لاَّ يَضِلُّ رَبِّي وَلا يَنسَى** ﴾ .[طه : ٥١ ، ٥٢].

وروى مسلم فى صحيحه عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: « **كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة، قال، وعرشه على الماء** » وقال النبى ﷺ : « **ما من نفس منفوسة إلا وقد كتب الله مكانها من الجنة أو النار، إلا وقد كتبت شقية أو سعيدة** » .(١)

المرتبة الثالثة : المشيئة :

وهذه المرتبة تقتضى الإيمان بمشيئة الله النافذة ، وقدرته الشاملة ، فما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن ، وأنه لا حركة ، ولا سكون ، ولا هداية ، ولا إضلال إلا بمشيئته ، وهذه المرتبة قد دل عليها إجماع الرسل من أولهم إلى آخرهم، وجميع الكتب المنزلة من عند الله ، والفطرة التى فطر الله الناس عليها ، وأدلة العقل ، والنصوص الدالة على هذا الأصل كثيرة جداً ، من الكتاب والسنة ، منها قوله تعالى : ﴿ **وربُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ** ﴾ [القصص : ٦٨] وقوله : ﴿ **وَلا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا (٢٣) إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ** ﴾ [الكهف : ٢٣ ، ٢٤] .

---

(١) مسلم ، كتاب القدر ، باب كيفية الخلق الآدمى : ٤/٢٠٣٨، رقم : ٢٦٤٦ .

وقال ﷺ : « **إن قلوب بنى آدم كلها بين صبعين من أصابع الرحمن كقلب واحد يصرفه حيث يشاء** » ، ومشيئة الله النافذة ، وقدرته الشاملة يجتمعان فيما كان ، وسيكون يفترقان فيما لم يكن ، ولا هو كائن ، فما شاء الله كونه فهو كائن بقدرته لا محالة ، وما لم يشأ كونه فإنه لا يكن لعدم مشيئته ، لا لعدم قدرته عليه ، وقال تعالى : ﴿ **وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ** ﴾ [البقرة : ٢٥٣] فعدم اقتتالهم ليس لعدم قدرة الله ، ولكن لعدم مشيئته ذلك مثاله قوله تعالى : ﴿ **وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَىٰ** ﴾ [الأنعام : ٣٥] وقوله تعالى : ﴿ **وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا** ﴾ [الأنعام : ١٠٧] .

مرتبة الخلق :

وهذه المرتبة تقتضى الإيمان بأن جميع الكائنات مخلوقة لله بذواتها ، وصفاتها ، وحركاتها ، وبأن كل من سوى الله مخلوق موجد من العدم ، كائن بعد أن لم يكن ، وهذه المرتبة دلت عليها الكتب السماوية ، وأجمع عليها الرسل عليهم الصلاة والسلام ، واتفقت عليها الفطر ، والعقول السليمة ، والأدلة على هذه المرتبة كثيرة منها قوله تعالى : ﴿ **اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ** ﴾ [الزمر : ٦٢] وقوله : ﴿ **الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا** ﴾ [تبارك : ٢] .

وأخرج البخارى فى خلق أفعال العباد عن حذيفة (١) رضي الله عنه قال : قال النبى ﷺ : « **إن الله يصنع كل صانع وصنعته** » (٢) هذه هى مراتب القدر الأربع التى لا يتم الإيمان بالقدر إلا بها .

وأفعال العباد داخلة فى عموم خلقه تعالى ، ولا يخرجها شىء من عموم قوله تعالى : ﴿ **اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ** ﴾ فالأفعال هى من الله خلقاً وإيجاداً وتقديراً ، وهى من العباد فعلاً وكسباً ، فالله هو الخالق لأفعالهم ، وهم الفاعلون لها ، فنؤمن

---

(١) هو حذيفة بن اليمان العبسى من نجباء الصحابة ، وهو صاحب سر النبى ﷺ فى المنافقين كان يسأل رسول الله عن الشر ليتجنبه ، شهد مع النبى أحد وشهد فتوح العراق توفى بالمدائن : ٣٦هـ. انظر : أسد الغابة : ١ / ٤٦٨ ، سير أعلام النبلاء : ٢ / ٣٦١ .

(٢) أخرجه البخارى فى خلق أفعال العباد والرد على الجهمية وأهل التعطيل : ٢٥ باب أفعال العباد .

بجميع نصوص الكتاب والسنة الدالة على شمول خلق الله ، وقدرته لكل شيء من الأعمال والأوصاف ، كما نؤمن بنصوص الكتاب والسنة الدالة على أن العباد هم الفاعلون حقيقة للخير والشر ، وعلى هذا اتفق أهل السنة والجماعة (١).

ومن الأدلة الصريحة على ذلك قوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [الصافات : ٩٦] قال المفسرون في معنى (ما) في الآية وجهان :

أحدهما : أن تكون بمعنى المصدر ، فيكون المعنى : والله خلقكم وعملكم .

والثاني : بمعنى الذي ، فيكون المعنى ، والله خلقكم وخلق الذي تعملونه بأيديكم من الأصنام ، وفي هذه الآية دليل على أن أفعال العباد مخلوقة لله) (٢) .

(١) انظر : المسائل والرسائل ، للإمام أحمد : (١/١٤٧ - ١٥٠) .

(٢) زاد المسير لابن الجوزي : ٧/ ٧٠ وانظر : جامع البيان للطبري : ١٢ / ٧٥ وتفسير القرآن العظيم لابن كثير : (٤/ ١٥) .

المبحث السابع
وسطية أهل السنة فى مسألة أفعال العباد

هذه المسألة من أخطر مسائل القدر، ولقد زلت فيها أقدام، وحارت عقول وأفهام، فقد اختلف الناس هل الأفعال والأعمال الصادرة عن العباد مخلوقة لله عز وجل مقدورة له، أم لا؟ وافترقوا فى ذلك إلى طرفين وواسطة.

الطرف الأول (الجبرية): سموا بذلك نسبة إلى الجبر لقولهم به فى باب القدر. والجبر هو: إسناد فعل العبد إلى الله (١) أو نفى الفعل حقيقة عن العبد وإضافته إلى الرب تعالى.(٢)

الطرف الثانى القدرية: وقولهم فى أفعال العباد أنها غير مخلوقة لله عز وجل، وأنهم هم المحدثون لها دونه وهذا أصل من أصول مذهب المعتزلة(٣).

الواسطة بين الطرفين (وهم أهل السنة):

قولهم فى أفعال العباد هو:

١ـ أنها مخلوقة لله عز وجل على الحقيقة.

٢ـ وهى فعل للعباد على الحقيقة.

٣ـ وأنهم قادرون على أفعالهم بقدرة حقيقية مؤثرة فى وقوع الفعل منهم، والله هو الذى أقدرهم على ذلك، هذا هو مجمل قول أهل السنة، فى هذه المسألة، والذى عليه سلف الأمة وأئمتهم، قال محرر مذهب أهل السنة، وضابط أصوله وقواعده بحق شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: (وأما جمهور أهل السنة المتبعون للسلف والأئمة فيقولون: إن فعل العبد فعل له حقيقة، ولكنه مخلوق لله مفعول لله، لا يقولون هو نفس فعل الله، ويفرقون بين الخلق والمخلوق والفعل والمفعول).(٤)

---

(١) التعريفات للجرجانى: ٧٤.
(٢) انظر: الملل والنحل: ١/ ٨٥.
(٣) انظر: شرح الأصول الخمسة للقاضى عبد الجبار: ٧٧٢.
(٤) انظر: منهاج السنة ٢/ ٢٩٨.

إن الجبرية محقون فى قولهم : إن الله خالق أفعال العباد ومخطئون فى قولهم : إن العبد ليس بفاعل لأفعاله فى الحقيقة وإنما الفاعل هو الله .

والقدرية : محقون فى إثباتهم قدرة العبد على أفعاله ، وفعله لها ومسؤوليته عنها .

ومخطئون فى قولهم : إن العبد خالق أفعاله ، وإن الله ليس بخالق لأفعال العبيد ، فأثبتوا خالقين مع الله (١) .

وأهل السنة قالوا بما مع الطائفتين من حق فقالوا : الله خالق أفعال العباد على الحقيقة ؛ لأن العباد خلق له وأفعال المخلوقين مخلوقة ، لقوله : ﴿ **وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ** ﴾ [الصافات : ٩٦] وقول النبى ﷺ : « **الله يصنع كل صانع وصنعته** » (٢) .

وقالوا : العبد فعال لفعله حقيقة ، وقادر عليه بإقدار الله له عليه ، والله أثبت للعبيد فعلاً فقال : ﴿ **وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ** ﴾ [البقرة : ١٩٧] وقال : ﴿ **فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ** ﴾ [هود : ٣٦] ونحو ذلك فلم ينفوا فعل العبد أصلاً كما قالت الجبرية، ولم يجعلوا العباد خالقين لأفعالهم من دون الله عز وجل كما قالت القدرية .

فهدى الله أهل السنة لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه ، وعملوا بجميع النصوص الواردة فى الباب ، ولم يضربوا بعضها ببعض ، فإن الجبرية عملوا بالنصوص الدالة على أنه خالق كل شىء وأن كل شىء ، بقدر الله وقضائه ومشيئته ، وأغفلوا ما دل منها على أن للعبد فعلاً وقدرة وإرادة .

والقدرية أخذوا بالنصوص الدالة على أن العبد هو الفاعل لفعله على الحقيقة وأن له قدرة وإرادة ومشيئة ، واختياراً ، وأهملوا مادل منها على خلق الله لأفعال عبيده ، وعموم قدرته عليها ، ومشيئته لها والحق هو إعمال جميع النصوص كل فيما دل عليه ، وهو ما هدى له أهل السنة ، فليس فى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ تضارب أو تناقض ، والجمع بين ما فى ظاهره شىء من ذلك ممكن عند أهل

---

(١) وسطية أهل السنة بين الفرق : ٣٨١ .

(٢) الإمام البخارى ، خلق أفعال العباد : ٢٥ .

العلم والحق (١).

وهذا ما فعله أهل السنة ، فكانوا بذلك وسطاً بين الطائفتين ، وجاء قولهم هدى بين الضلالتين ، ضلالة الجبر المفضى إلى تعطيل الأمر والنهى وإبطال الثواب والعقاب ، وضلالة نفى القدر الذى حاصله وجود خالقين من دون الله وتجويز أن يكون فى ملكه ما لا يقدر عليه ولا يريده . (٢)

---

(١) انظر : وسطية أهل السنة بين الفرق : ٣٨٢ .

(٢) انظر : المرجع السابق : ٣٨٣ .

المبحث الثامن
وسطية أهل السنة فى معنى إرادة الله ومشيئته ومحبته ورضاه

تباينت مواقف الفرق ، واختلفت أقوالها فى باب إرادة الله ومشيئته، فضل فى ذلك طوائف وهدى الله المعتصمين بكتابه ، وسنة نبيه لما اختلفوا فيه من الحق .

١ – فقالت المعتزلة : كل ما أراده الله وشاءه فقد أحبه ورضيه ، فسووا بين إرادته ومشيئته وبين محبته وجعلوهما باباً واحداً، ثم قالوا : الكفر والفسوق والعصيان لا يحبهما ولا يرضاهما ، فلا يريدها ولا يشاؤها فأخرجوها من محيط إرادته وعموم مشيئته (١) .

٢ – وقالت الجبرية : الكون كله بقضاء الله وقدره ، والله هو الخالق الفاعل فى الحقيقة ، وإن الإنسان مجبور على أفعاله لا قدرة له ولا إرادة ، فكل ما وقع فى الكون يكون محبوباً مرضياً له (٢) ، سواء فى ذلك الإيمان والكفر والطاعات والمعاصى؛ إذ كل ذلك وقع بإرادته ومشيئته ، فسووا بين الإرادة والمحبة والرضى(٣) لذلك احتجوا بالقدر على المعاصى ، وقال قائلهم : ﴿ **لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا** ﴾ [الأنعام : ١٤٨] .

٣ – وقال أهل السنة : ليس معنى إرادة الله ومشيئته هو معنى محبته ورضاه، بل بينهما فرق لابد من التنبه له ، فإن الإرادة فى كتاب الله نوعان :

أ – إرادة شرعية دينية : وهى تتضمن معنى المحبة والرضى ، كقوله تعالى : ﴿ **يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ** ﴾ [البقرة : ١٨٥] وقوله : ﴿ **وَاللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَن تَمِيلُوا مَيْلاً عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفًا** ﴾ [النساء : ٢٧ ، ٢٨] .

---

(١) انظر : شرح الأصول الخمسة : ٤٦٤ .

(٢) انظر : شرح الطحاوية : ٢٧٩ .

(٣) نفس المصدر : ٢٧٩ .

ب – إرادة قدرية كونية خلقية : وهى التى بمعنى المشيئة الشاملة لجميع الموجودات وذلك مثل الإرادة فى قوله تعالى : ﴿ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴾ [البقرة : ٢٥٣] وقوله : ﴿ وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ ﴾ [هود : ٣٤] وقالوا : وإن كان يريد المعاصى إرادة كونية قدرية فهو لا يحبها ولا يرضاها ولا يأمر بها ، بل يبغضها ويسخطها ، ويكرهها وينهى عنها ، هذا قول السلف والأئمة قاطبة فيفرقون بين إرادته التى تتضمن محبته ورضاه، وبين إرادته ومشيئته الكونية القدرية التى لا يلزم منها المحبة والرضى (١).

وبهذا التمييز بين الإرادتين يمتاز قول أهل السنة عن قول كل من فريقى القدرية والمعتزلة ، والجبرية ، الذين سووا بين الإرادة والمشيئة وبين المحبة والرضى ، فضل المعتزلة إذ ذهبوا إلى القول بأنه يقع فى ملك الله ما لا يريد ولا يشاء ، وهلك أهل الجبر بقولهم : إن الكفر والشرك والعصيان محبوبة لله مرضية عنده ومنشأ ضلال الفريقين إنما هو تسويتهم بين الإرادة والمشيئة، وبين المحبة والرضى وجعلهم معنى إرادته هو معنى محبته ورضاه .

وهدى الله أهل السنة لأحسن القول فميزوا وفرقوا بين الأمرين ، وخلصوا بالحق من بين الضلالتين ، وهذا عنوان وسطيتهم المستمدة من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وآية اعتدالهم واتزانهم . (٢) .

---

(١) وسطية أهل السنة بين الفرق : ٣٨٧ .

(٢) وسطية أهل السنة بين الفرق : ٣٨٧ .

المبحث التاسع
أقسام التقدير التى جاءت فى القرآن الكريم وسنة سيد المرسلين

١ - التقدير العام : وهو تقدير الرب لجميع الكائنات ، بمعنى علمه بها ، وكتابته لها ومشيئته ، وخلقه لها ، ويدل على هذا النوع أدلة كثيرة منها قوله تعالى : ﴿ **أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ** ﴾ [الحج : ٧٠].

وفى صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو - رضى الله عنهما - أن النبى ﷺ قال : « **كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة ، قال : وعرشه على الماء** » (١) .

٢ - التقدير البشرى : وهو التقدير الذى أخذ الله فيه الميثاق على جميع البشر بأنه ربهم وأشهدهم على أنفسهم بذلك ، والذى قدر الله فيه أهل السعادة وأهل الشقاوة .

قال تعالى : ﴿ **وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ** ﴾ [الأعراف : ١٧٢].

٣ - وعن هشام بن حكيم (٢) أن رجلاً أتى النبى ﷺ فقال : أتبتدأ الأعمال أم قضى القضاء ؟ قال رسول الله ﷺ : « **إن الله أخذ ذرية آدم من ظهورهم ثم أشهدهم على أنفسهم ثم أفاض بهم فى كفيه فقال هؤلاء فى الجنة ، وهؤلاء فى النار ، فأهل الجنة ميسرون لعمل أهل الجنة ، وأهل النار ميسرون**

---

(١) رواه مسلم ،كتاب القدر ، باب: حجاج آدم وموسى : ٤ / ٢٠٤٤ رقم الحديث : ٢٦٥٣ .

(٢) هو هشام بن حكيم بن حزام بن خويلد الأسدى، له صحبة ورواية، كان يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، فكان عمر إذا رأى منكرا قال : أما ما عشت أنا وهشام بن حكيم فلا يكون هذا توفى فى أول خلافة معاوية ، انظر : سير أعلام النبلاء : ٣ / ٥٢ .

لعمل أهل النار » (١) .

٤ - **التقدير العمرى** : وهو تقدير كل ما يجرى على العبد فى حياته إلى نهاية أجله ، وكتابه شقاوته ، أو سعادته ، وقد دل على ذلك حديث الصادق المصدوق فى الصحيحين عن ابن مسعود مرفوعاً : « **إن أحدكم يجمع خلقه فى بطن أمة أربعين يوماً ، ثم يكون علقة مثل ذلك ، ثم يكون مضغة مثل ذلك ، ثم يرسل الملك ، فينفخ فيه الروح ، ويؤمر بأربع كلمات ، يكتب رزقه ، وأجله وشقى أو سعيد** » . (٢)

٥ - **التقدير السنوى** : وذلك فى ليلة القدر فى كل سنة ويدل عليه قوله تعالى : ﴿ **فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ** ﴾ [الدخان : ٤] وقوله : ﴿ **تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ (٤) سَلَامٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ** ﴾ [القدر : ٤ ، ٥] قيل : يكتب فيها - أى هذه الليلة - ما يحدث فى السنة من موت وحياة ، وعز وذل ، ورزق ومطر ، حتى الحجاج يقال : يحج فلان ، يحج فلان ، روى هذا عن ابن عمر ، وابن عباس ، وكذا الحسن وسعيد بن جبير .

٦ - **التقدير اليومى** : ويدل عليه قوله تعالى : ﴿ **كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ** ﴾ [الرحمن : ٢٩] قيل فى تفسيرها : (شأنه أن يعز ويذل ، ويرفع ويخفض ، ويعطى ويمنع ، ويغنى ويفقر ، ويضحك ويبكى ، ويميت ويحيى (٤) إلى غير ذلك .

---

(١) أخرجه ابن أبى عاصم فى كتاب السنة بتحقيق الألبانى : ١ / ٧٣ ، قال الألبانى : إسناده صحيح ورجاله كلهم ثقات .

(٢) البخارى ، كتاب القدر ، باب ١ : ٧ / ٢٦٧ رقم الحديث : ٦٥٩٤ .

(٣) الإيمان بالقضاء والقدر : ٥٥ .

(٤) المرجع السابق : ٢٩ .

المبحث العاشر
ثمرات الإيمان بالقضاء والقدر

نسأل الله تعالى أن نكون قد وفقنا لإظهار ملامح الوسطية فى قضية الإيمان بالقضاء والقدر من خلال القرآن والسنة النبوية وأقوال العلماء، حتى يكون المؤمن قد وضع نفسه على الصراط المستقيم والاستقامة على شرع الله فى كل مسائله وأموره الدينية والدنيوية. ولا شك أن الفهم الصحيح والاعتقاد الراسخ بمفهوم أهل السنة والجماعة فى قضية القضاء والقدر ليترتب عليه ثمار نافعة ومفيدة تعود على الأفراد والمجتمعات فى الدنيا والآخرة ، فمن تلك الثمرات ما يلى :

١ - **أداء عبادة الله عز وجل** : فالقدر مما تعبدنا الله سحانه وتعالى بالإيمان به.

٢ - **الإيمان بالقدر طريق الخلاص من الشرك** : فالمجوس زعموا أن النور خالق الخير ، والظلمة خالقة الشر ، والقدرية قالوا : إن الله لم يخلق أفعال العباد ، فهم أثبتوا خالقين مع الله جل وعلا وهذا شرك ، والإيمان بالقدر على الوجه الصحيح توحيد لله .

٣ - **الشجاعة والإقدام** : فالذى يؤمن بالقدر يعلم أنه لن يموت إلا إذا جاء أجله ، ولا يناله إلا ما كتب له ، فيقدم غير هياب ولا مبال بما يناله من الأذى والمصائب فى سبيل الله . كما قال أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضي الله عنه :

أى يومى من الموت أفر ... يوم لا يقدر أو يوم قدر
يوم ما قدر لا أرهبه ... وإذ قدر لا ينجى الحذر (١)

٤ - **قوة الإيمان** : فالذى يؤمن بالقدر يقوى إيمانه ، فلا يتخلى عنه ولا يتزعزع أو يتضعضع مهما ناله فى ذلك السبيل .

٥ - **الصبر والاحتساب ومواجهة الصعاب** : فالذين لا يؤمنون بالقدر ربما يؤدى الجزع ببعضهم إلى أن يكفروا بالله ، وبعضهم يجن ، وبعضهم يصبح

---

(١) ديوان الإمام على : ٧٩ ، ٨٠.

موسوساً ، وبعضهم يلجأ إلى المخدرات ، وبعضهم يقتل نفسه ، ولذلك يكثر الانتحار فى البلاد التى لا يؤمن أهلها بالقدر كأمريكا ، والسويد ، والنرويج ، بل إن الأمر وصل بالسويد إلى أن يفتحوا مستشفيات للانتحار ، وأسباب ذلك ترجع لأمور تافهة ، فبعضهم ينتحر بسبب تخلى خطيبته عنه ، وبعضهم بسبب رسوبه فى الامتحان؛ وبعضهم بسبب وفاة المطرب الذى يحبه ، وقد يكون الانتحار جماعياً .

والعجيب فى الأمر أن غالبية المنتحرين ليسوا من الفقراء ، بل هم من الطبقة الغنية، بل ويقع الانتحار فى الأطباء النفسيين الذين يظن أنهم يجلبون السعادة للناس (١).

٦ – الهداية كما قال تعالى : ﴿ **مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَن يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ** ﴾ [التغابن : ١١] .

٧ – **الكرم** : فالذى يؤمن بالقدر ، وأن الفقر والغنى بيد الله ، وأنه لا يفتقر إلا إذا قدر الله له ذلك فإنه ينفق ولا يبالى .

٨ – **الإخلاص** : فالذى يؤمن بالقدر لا يعمل لأجل الناس ، لعلمه أنهم لن ينفعوه إلا بشىء قد كتبه الله له .

٩ – **إحسان الظن بالله وقوة الرجاء** : فالمؤمن بالقدر حسن الظن بالله ، قوى الرجاء به فى كل أحواله .

١٠ – **الخوف والحذر من الله** : فالمؤمن بالقدر على حذر من الله ، إذ لا يامن مكر الله إلا القوم الخاسرون ، فلا يغتر بعمله مهما كان كثيراً ، فإن القلوب بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبها حيث يشاء، والخواتيم علمها عند الله– عز وجل .

١١ – **الإيمان بالقدر** يقضى على كثير من الأمراض التى تفتك بالمجتمعات، وتزرع الأحقاد بينهما ، وذلك مثل رذيلة الحسد ، فالمؤمن لا يحسد الناس على ما آتاهم الله من فضله ، لإيمان منه بأن الله هو الذى رزقهم وقدر لهم ذلك ، فأعطى من شاء ومنع من شاء ابتلاءً وامتحاناً منه عز وجل وأنه حين يحسد غيره ، إنما يعترض على القدر (٢) .

---

(١) الإيمان بالقضاء والقدر لمحمد إبراهيم الحمد : ٢٥ .

(٢) انظر : مجلة البحوث الإسلامية عدد ٣٤ : ٢٥٠ مبحث وسطية اهل السنة فى القدر .

فإن القوم أسرفوا فى تشبيه الله عز وجل بالمخلوق ووصفوه جل وعلا بالنقائص التى تختص بالمخلوق .

ولقد سجل عليهم القرآن الكريم صوراً من ذلك ، وكتابهم الذى بين أيديهم ينضح بالكثير من ذلك ، ونحن نذكر فيما يلى نماذج من أقوالهم التى شبهوا فيها الخالق عز وجل بخلقه .

١ - فمن ذلك : (وصفهم الله بالفقر) .

وهى صفة لا تليق بخالق البشر ، ولكن القوم لا عقول لهم ولا حياء عندهم ، يقول عز وجل فى ذلك : ﴿ **لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ** ﴾ (آل عمران : ١٨١) .

٢ - ومن ذلك : (وصفهم له بأن يده مغلولة) .

قال عز وجل ذاكراً قولهم هذا : ﴿ **وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ** ﴾ (المائدة : ٦٤) .

٣ - وصفوه بأنه : (يحزن ، ويندم على أفعاله) تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .

يصفه (سفر التكوين) بذلك فيقول : (ورأى الرب أى شر الإنسان قد كثر فى الأرض وأن كل تصور أفكار قلبه إنما هو شرير كل يوم فحزن الرب أنه عمل الإنسان الذى خلقه ، الإنسان مع بهائم ودبابات وطيور السماء ، لأنى حزنت أنى علمتهم)[١] .

٤ - ووصفوه : (بالتعب والاستراحة) تعالى عن ذلك .

جاء فى (سفر الخروج) : (أذكر يوم السبت لتقدسه ، ستة أيام تعمل وتصنع جميع عملك وأما اليوم السابع ففيه سبت للرب إلهك ، لا تصنع عملاً أنت وابنك وابنتك وعبدك وأمتك وبهيمتك ، وتريلك الذى داخل أبوابك ؛ لأن فى ستة أيام صنع الرب الأرض والسماء والبحر ، وكل ما فيها واستراح فى اليوم السابع لذلك بارك الرب اليوم السابع وقدسه)[٢] وفى سفر (التكوين) : (فأكملت السموات والأرض وكل جندها وفرغ الله فى اليوم السابع من عمله الذى عمل واستراح فى اليوم

---

(١) إصحاح (٦) ، فقرة (٥ - ٨) .

(٢) إصحاح (٢٠) ، فقرة (١ - ١٧) .

٢٠ - الاستقامة على المنهج سواء فى السراء والضراء : فالعباد فيهم قصور ، ونقص وضعف لا يستقيمون على منهج سواء إلا من آمن بالقدر ، فإن النعمة لا تبطره والمصيبة لا تقنطه .

٢١ - عدم اليأس من انتصار الحق : فالمؤمن بالقدر يعلم علم اليقين أن العاقبة للمتقين وإن قدر الله فى ذلك نافذ لا محالة ، فلا يدب اليأس إلى قلبه ، ولا يعرف إليه طريقاً مهما احلولكت ظلمة الباطل .

٢٢ - علو الهمة ، وعدم الرضا بالدون ، وعدم الرضا بالواقع الأليم، فالمؤمن بالقدر تجده عالى الهمة لا يرضى بالدون ولا بالواقع الأليم المر ، ولا يستسلم له محتجاً بالقدر ، إذ أن هذا ليس مجال الاحتجاج بالقدر ؛ لأنه من المصائب ، والاحتجاج بالقدر إنما يسوغ عند المصائب دون المعائب ، بل إن إيمانه بالقدر يحتم عليه أن يسعى سعياً حثيثاً لتغيير هذا الواقع حسب قدرته واستطاعته . (١).

٢٣ - الإيمان بالقدر على وجه الحقيقة يكشف للإنسان حكمة الله عز وجل فيما يقدره من خير أو شر قال تعالى : ﴿ **وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ** ﴾ [البقرة :٢١٦] .

وما أجمل قول الشاعر :

كم نعمة لا تستقل بشكرها ... لله فى طى المكاره كامنه (٢).

وقول الآخر :

تجرى الأمور على حكم القضاء وفى ... طى الحوادث محبوب ومكروه
وربما سرنى ما كنت أحذره ... وربما ساءنى ما كنت أرجوه (٣)

٢٤ - ومن ثمراته عزة النفس والقناعة والتحرر من رق المخلوقين : فالمؤمن بالقدر يعلم أن رزقه مكتوب ، وأنه لن يموت حتى يستوفى رزقه ، ويدرك أن الله كافيه وحسبه ورازقه ، وأن العباد مهما حاولوا إيصال الرزق له ، أو منعه عنه فلن يستطيعوا إلا بشىء قد كتبه الله ، فينبعث بذلك إلى القناعة

---

(١) الإيمان بالقدر والقدر : ٢٩ .

(٢، ٣) انظر : جنة الرضا فى التسليم لما قدر الله وقضى للغرناطى : ٣ / ٥٢ .

وعزة النفس ، والإجمال فى الطلب وترك التكالب على الدنيا والتحرر من رق المخلوقين، وقطع الطمع مما فى أيديهم ، والتوجه بالقلب إلى رب العالمين ، وهذا أسس فلاحه ورأس نجاحه ، ومن جميل ما يذكر فى هذا المعنى ما ينسب لأمير المؤمنين على بن أبى طالب رضي الله عنه قوله :

أفادتنى القناعة كل عز ... وهل عز أعز من القناعة
فصيرها لنفسك رأس مال ... وصير بعدها التقوى بضاعة
تحز ربحاً وتغنى عن بخيل ... وتنعم فى الجنان بصبر ساعة (١)

٢٥ - سكون القلب وطمأنينة النفس وراحة البال : فهذه الأمور من ثمرات الإيمان بالقضاء والقدر ، وهى هدف منشود ، فكل من على وجه البسيطة يبتغيها ويبحث عنها ، وإنك لتجد عند خواص المسلمين من العلماء العاملين ، والعباد القانتين المتبعين ، من سكون القلب ، وطمأنينة النفس ما لا يخطر على بال ، ولا يدور حول ما يشبهه خيال ، فلهم فى ذلك الشأن القدح المعلى والنصيب الأوفى، فهذا أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه يقول : (أصبحت وما لى سرور إلا فى مواضع القضاء والقدر)(٢) .

وهذا شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - يقول : (إن فى الدنيا جنة من لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة) (٣).

ويقول مقولته المشهورة التى قالها عندما اقتيد إلى السجن : (ما يصنع أعدائى بى ، أنا جنتى وبستانى فى صدرى ، أينما رحلت فهى معى لا تفارقنى ، أنا حبسى خلوة ، وقتلى شهادة ، وإخراجى من بلدى سياحة(٤)) .

بل أنك تجد عند عوام المسلمين من سكون القلب وراحة البال ، وبرد اليقين ما لا تجده عند كبار الكتاب والمفكرين والأطباء من غير المسلمين، فكم من

---

(١) ديوان الإمام على : ١٢١ ، ١٢٢ .
(٢) جامع العلوم والحكم : ١/ ٢٨٧ سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم : ٩٧ .
(٣) الشهادة الزكية فى ثناء الأئمة على ابن تيمية لمرعى الحنبلى : ٣٤ .
(٤) شيخ الإسلام ابن تيمية جهاده ، ودعوته ، عقيدته أحمد القطان محمد الزين : ١٠١ .

الأطباء غير المسلمين على سبيل المثال من يعجب ، ويذهب به العجب كل مذهب ، وذلك إذا كان لديه مريض مسلم واكتشف أنه مصاب بداء خطير – كالسرطان مثلاً – فترى هذا الطبيب يحتار فى كيفية إخبار هذا المريض ومصارحته بعلته، فتجده يقدم رجلاً ويؤخر الأخرى ، وتجده يمهد الطريق ، ويضع المقدمات، كل ذلك خشية من ردة فعل المريض إزاء هذا الخبر ، وما أن يعلمه بمرضه ، ويخبره بعلته – إلا ويفاجأ بأن هذا المريض يستقبل هذا الخبر بنفس راضية ، وصدر رحب، وسكينة وهدوء . لقد أدهش كثيراً من هؤلاء إيمان المسلمين بالقضاء والقدر فكتبوا فى هذا الشأن ، معبرين عن دهشتهم ، مسجلين شهادتهم بقوة عزائم المسلمين ، وارتفاع معنوياتهم ، وحسن استقبالهم لصعوبات الحياة (١) .

فهذه شهادة حق من قوم حرموا الإيمان بالله وبقضائه وقدره :

ومليحة شهدت لها ضراتها والفضل ما شهدت به الأعداء

ومن هؤلاء الكتاب الذين كتبوا فى ذلك – الكاتب المشهور (ر ن س بودلى) مؤلف كتابى (رياح على الصحراء) و (الرسول) وأربعة عشر كتاباً أخرى ، والذى أورد رأيه (ديل كارنيجى) فى كتابه (دع القلق وابدأ الحياة) فى مقالة بعنوان (عشت فى جنة الله) يقول بودلى : (فى عام ١٩١٨ م وليت ظهرى العالم الذى عرفته طيلة حياتى ، ويممت شطر أفريقيا الشمالية الغربية حيث عشت بين الأعراب فى الصحراء ، وقضيت هنالك سبعة أعوام ، وأتقنت خلالها لغة البدو ، وكنت أرتدى زيهم ، وآكل من طعامهم ، وأتخذ مظاهرهم فى الحياة وغدوت مثلهم أمتلك أغنام ، وأنام كما ينامون فى الخيام ، وقد تعمقت فى دراسة الإسلام ، حتى إننى ألفت كتاباً عن محمد ﷺ عنوانه (الرسول) ، وكانت تلك الأعوام السبعة التى قضيتها مع هؤلاء البدو الرحل من أمتع سنى حياتى ، وأحفلها بالسلام ، والاطمئنان ، والرضا بالحياة، وقد تعلمت من

---

(١) انظر: الإيمان بالقضاء والقدر : (٣٢).

عرب الصحراء كيف أتغلب على القلق ، فهم بوصفهم مسلمين – يؤمنون بالقضاء والقدر ، وقد ساعدهم هذا الإيمان على العيش فى أمان ، وأخذ الحياة مأخذا سهلاً هيناً ، فهم لا يتعجلون أمراً ، ولا يلقون بأنفسهم بين براثين الهم قلقاً على أمر إنهم يؤمنون بأن (ما قدر يكون) وأن الفرد منهم (لن يصيبه إلا ما كتب الله له) وليس معنى هذا أنهم يتواكلون أو يقفون فى وجه الكارثة مكتوفى الأيادى كلا) (١) .

ثم أردف قائلاً : (ودعنى أضرب لك مثلاً لما أعنيه) هبت ذات يوم عاصفة عاتية حملت رمال وادى (الرون) فى فرنسا ، وكانت العاصفة حارة شديدة الحرارة ، ولكن العرب لم يشكوا إطلاقاً ، فقد هزوا أكتافهم ، وقالوا كلمتهم المأثورة : (قضاء مكتوب) لكنهم ما أن مرت العاصفة حتى اندفعوا إلى العمل بنشاط كبير فذبحوا صغار الخراف قبل أن يودى القيظ بحياتها ، ثم ساقوا الماشية إلى الجنوب نحو الماء، فعلوا هذا كله فى صمت وهدوء ، دون أن تبدو من أحدهم شكوى ، قال رئيس القبيلة الشيخ : لم نفقد الشيء الكثير ، فقد كنا خليقين بأن نفقد كل شيء ، ولكن حمداً لله وشكراً ، فإن لدينا نحو أربعين فى المائة من ماشيتنا ، وفى استطاعتنا أن نبدأ بها عملنا من جديد) (٢) .

وثمة حادثة أخرى ، فقد كنا نقطع الصحراء بالسيارة يوما ، فانفجرت إحدى الإطارات ، وكان السائق قد نسى استحضار إطار احتياطى ، وتولانى الغضب ، وانتابنى القلق والهم ، وسألت صحبى من الأعراب : وماذا وعسى أن نفعل ؟ فذكرنى بأن الاندفاع إلى الغضب لن يجدى فتيلاً ، بل هو خليق أن يدفع الإنسان إلى الطيش والحمق، ومن ثم درجت بنا السيارة وهى تجرى على ثلاثة إطارات ليس إلا ، لكنها ما لبثت أن كفت عن السير ، وعملت أن البنزين قد نفد ، وهنالك أيضاً لم تثر ثائرة أحد من رفاقى الأعراب ، ولا فارقهم هدوؤهم ، بل

---

(١) انظر : الإيمان بالقضاء والقدر : (٣٢) .

(٢) دع القلق وابدأ الحياة ، ديل كارنيجى (٢٩٠، ٢٩١) .

مضوا يقطعون الطريق سيراً على الأقدام (١) .

وبعد أن استعرض بودلى تجربته مع عرب الصحراء علق بقوله : (قد أقنعتنى الأعوام السبعة التى قضيتها فى الصحراء بين الأعراب الرحل – أن مرضى النفوس، والسكرين الذين تحفل بهم أمريكيا وأروبا – ما هم إلا ضحايا المدنية التى تتخذ السرعة أساساً لها، إننى لم أعان شيئاً من القلق قط وأنا أعيش فى الصحراء ، بل هنالك فى جنة الله وجدت السكنية ، والقناعة ، والرضا (٢) .

وأخيراً أختم كلامه بقوله : (وخلاصة القول أننى بعد انقضاء سبعة عشر عاماً على مغادرتى الصحراء – مازلت أتخذ موقف العرب حيال قضاء الله ، فاقبل الحوادث التى لا حيلة لى فيها بالهدوء والامتثال والسكنية، ولقد أفلحت هذه الطباع التى اكتسبتها من العرب فى تهدئة أعصابى أكثر مما تفلح آلاف المسكنات والعقاقير) (٣) .

وبهذا نكون قد أوضحنا ملامح وسطية القرآن فى باب الاعتقاد والله الهادى إلى سواء السبيل .

ونرجو من القارئ الكريم أن لا ينسى العبد الفقير إلى الله كاتب هذه الأسطر بالدعاء فى ظهر الغيب بالمغفرة والرحمة والشهادة فى سبيل الله تعالى، وأن يكرمه بالصدقة الجارية بعد وفاته إنه ولى ذلك والقادر عليه .

---

(١) نفس المصدر السابق : ٢٩٠ ، ٢٩١ .

(٢ ، ٣) نفس المصدر السابق : ٢٩١ – ٢٩٥ .

الخلاصة

الخلاصة

١ – إن القرآن الكريم كلام الله ، منه بدأ بلا كيفية قولاً ، وأنزله على رسله وحياً ، وصدقه المؤمنون على ذلك حقاً وأيقنوا أنه كلام الله تعالى بالحقيقة ، ليس بمخلوق كلام البرية .

٢ – إن سورة الفاتحة تقرر منهج الوسطية من أولها إلى آخرها ووضعت القاعدة والمنطلق ورسمت منهج الوسطية وحددت معالمه ثم جاءت الآيات بعد ذلك مقررة لذلك وداعية له .

٣ – إن كلمة العقيدة فى الاصطلاح : لم تكن موجودة فى الكتاب والسنة، ولا فى أمهات المعاجم وأن أول من تم الوقوف على ذكره لجمعها (عقائد) هو القشيرى سنة ٤٣٧ .

٤ – ومصطلح العقيدة يشمل التوحيد ، والإيمان ، والإسلام ، والغيبيات ، والنبوات ، والقدر، والأخبار ، وأصوله الأحكام القطعية ، وسائر أصول الدين ، والاعتقاد ، ويتبعه الرد على أهل الأهواء والبدع، وسائر الملل والنحل والمذاهب الضالة ومن مسميات علم العقائد ، التوحيد ، والسنة، وأصول الدين .

٥ – العقيدة الصحيحة لا توجد إلا فى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ، لانهما محفوظتان لحفظ الله لهما .

٦ – إن معرفة حقيقة أسماء الله وصفاته وأفعاله من أهم العلوم التى يجب أن يحرص على معرفتها العبد لأن هذا العلم إذا رسخ فى القلب أوجب خشية الله لا محالة .

٧ – إن القرآن الكريم أشار إلى أسباب الإيمان وثمراته فى كتاب الله تعالى حتى تتطلع القلوب وتشتاق النفوس إلى الأخذ بأسباب الإيمان وتحرص على ثمراته .

٨ – إن الإيمان بالملائكة أصل من أصول الاعتقاد، لا يتم الإيمان إلا به ، والملائكة من عوالم الغيب التى امتدح الله المؤمنين بها ، تصديقاً لخبر الله سبحانه وإخبار رسوله ﷺ.

٩ – إن من أركان الإيمان الاعتقاد بالكتب السماوية وأنها من عند الله

سبحانه وتعالى ، إلا أن البشر هناك من أنكر الكتب السماوية جملة وهم الملاحدة ، وهناك من حرف الكتب السماوية وأضاف إليها مالم ينزل به من سلطان وهم اليهود والنصارى وقعوا فى الغلو وفى الإفراط وابتعدوا عن الصراط المستقيم .

١٠ – إن القرآن الكريم رسم لهذه الأمة الاستقامة فاستجابت لأمر الله ورسوله وآمنت برسل الله جميعا وشهد الله لها بهذا الإيمان فى محكم كتابه .

١١ – إن القرآن الكريم والسنة النبوية مملوءة بذكر أحوال اليوم الآخر وتفاصيل ما فيه، وتقرير ذلك بالأخبار الصادقة والأمثال المضروبة للاعتبار والإرشاد. .

١٢ – من وسطية القرآن الكريم وحكمته وإرشاده إلى الصراط المستقيم بيانه مراتب القدر والتى تسمى عند العلماء بأركانه .

١٣ – إن منهج أهل السنة فى باب القدر وسط بين الإفراط والتفريط ويظهر ذلك فى مسألة أفعال العباد وأنها مخلوقة لله عز وجل على الحقيقة ، وهى فعل للعباد على الحقيقة وأنهم قادرون على أفعالهم بقدرة حقيقية مؤثرة فى وقوع الفعل منهم والله هو الذى أقدرهم على ذلك .

١٤ – إن مفهوم الإرادة فى كتاب الله نوعان :

أ – إرادة شرعية دينية .

ب – إرادة قدرية كونية خلقية وفهمهما له أهمية عظيمة فى استيعاب القضاء والقدر .

١٥ – إن الفهم الصحيح والاعتقاد الراسخ بمفهوم أهل السنة والجماعة فى قضية القضاء والقدر ليترتب عليه ثمار نافعة ومفيدة تعود عل الأفراد والمجتمعات فى الدنيا والآخرة .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

الفهرس

☆ المقدمة : ٥

الفصل الأول
القرآن يقرر منهج الوسطية ٩

☆ المبحث الأول : التعريف بالقرآن ١٢
☆ المبحث الثانى : وسطية القرآن فى العقيدة ١٨

الفصل الثانى
وسطية القرآن فى باب توحيد الله وأسمائه ٣٣

☆ المبحث الأول : موقف أمة اليهود ٣٥
☆ المبحث الثانى : موقف النصارى ٤٠
☆ المبحث الثالث : موقف المسلمين ٤٦
☆ المبحث الرابع : مفهوم الإيمان كما جاء فى القرآن ٤٩

الفصل الثالث
الملائكة ٨٥

☆ المبحث الأول : صفات الملائكة الخلقية ٨٨
☆ المبحث الثانى : علاقتهم مع الله والإنسان والكون وعددهم ٩٠

الفصل الرابع
الكتب السماوية ٩٧

☆ المبحث الأول : تحريف اليهود وتزويرهم ٩٨
☆ المبحث الثانى : تحريف النصارى للإنجيل ١٠٣
☆ المبحث الثالث : وسطية القرآن بين الكتب السماوية ١٠٧

الفصل الخامس
وسطية القرآن فى أنبياء الله ورسله ١١١

☆ المبحث الأول : موقف اليهود من أنبياء الله ورسله ١١٣
☆ المبحث الثانى : موقف النصارى ١٢١
☆ المبحث الثالث : موقف المسلمين من أنبياء الله ورسله ١٢٤

الفصل السادس
وسطية القرآن فى اليوم الآخر ١٣٣

☆ المبحث الأول : أنواع المكذبين بالبعث ١٣٣
☆ المبحث الثانى : نظرة فى نصوص اليوم الآخر عند أهل الكتاب.... ١٣٦
☆ المبحث الثالث : أدلة البعث والنشور ١٣٨
☆ المبحث الرابع : طعام أهل النار وشرابهم ولباسهم ١٤٨
☆ المبحث الخامس : صور من عذاب أهل النار ١٥١
☆ المبحث السادس : صفة الجنة ١٥٩

الفصل السابع
وسطية القرآن في القضاء والقدر ١٧٧

☆ المبحث الأول : تعريف القضاء والقدر ، والعلاقة بينهما ١٧٩
☆ المبحث الثاني : الإفراط والتفريط في باب القدر ١٨١
☆ المبحث الثالث : ظهور بدعتي نفي القدر والقول بالجبر ١٨٦
☆ المبحث الرابع : مجمل اعتقاد أهل السُّنة والجماعة في باب القدر .. ١٨٩
☆ المبحث الخامس : الأدلة من الكتاب والسُّنة في باب القدر ١٩٠
☆ المبحث السادس : مراتب القدر وأركانه ١٩٢
☆ المبحث السابع : وسطية أهل السُّنة في مسألة أفعال العباد ١٩٦
☆ المبحث الثامن : وسطية أهل السُّنة في معنى إرادة الله ومشيئته ١٩٩
☆ المبحث التاسع : أقسام التقدير التي جاءت في القرآن الكريم والسُّنة ٢٠١
☆ المبحث العاشر : ثمرات الإيمان بالقدر ٢٠٣
☆ الخلاصة : ٢١٣
☆ الفهرس : ٢١٥